محتوى الفكر الماركسي

تنبيه من مكتبة الشيوعيين العرب!

هذه الوثيقة ليست من نسخ الصوت الشيوعي، بل من نسخ آخرين، وقد وجدها الصوت الشيوعي اثناء بحثه في الإنترنت.

قامت مكتبة الشيوعيين العرب بـ "تطهير" هذه الوثيقة من ما يأتي:

1) جميع النصوص والفقرات المتضمنة على أفكار شيوعية الخائن خروشوف المزيفة؛

2) جميع النصوص والفقرات المتعلقة بمرحلة ما بعد وفاة الرفيق ستالين، حيث اقتصرنا على مراحل: مراكس – أنجلس، لينين، ستالين، (وماو تسي تونغ إن وجدت).

وقد انجزنا ما ورد أعلاه من خلال:

1) حذف وإزالة النصوص والفقرات ذات الصلة؛

2) حذف وإزالة بعض الصفحات بصورة كلية؛

3) اعادة صياغة بعض الجمل والنصوص بما يتفق والنهج الماركسي – اللينيني الثوري.

بالإضافة الى ذلك، قمنا، بواسطة استعمال محرر ملفات PDF: بـ

1) إدراج بعض الملاحظات والتعليقات التوضيحية، في بعض المواضع، على شكل Sticky Notes،

2) تصحيح بعض الأخطاء المطبعية.

لذا اقتضى التنويه.

الصوت الشيوعي

الفصل الاول (١)

مراحل تطور فكر كارل ماركس (٢)

المرحلة الاولى : حتى عام ١٨٤٦

لا يكفي ان نقرأ مؤلفات كارل ماركس (٣) حتى نتبين الصورة الكاملة لتطور فكر هذا المفكر العظيم ، كما لا يكفي ان نطالع كتابات لينين وحدها حتى نفهم اللينينية ونبقى مقصرين عن فهم حركة تطور الفكر الماركسي بوجه عام اذا حصرنا جهودنا في تتبع مؤلفات المفكرين الماركسيين في المرحلة الاخيرة .

فالماركسية ليست مجرد أدب ماركسي وليست مجرد نظرية بين النظريات ، بل هي الى جانب ذلك طريقة في التحليل ، ودليل للعمل لقلب صورة العالم وتصحيحها . فهي اذن لا تنفصل عن النضال الماركسي ، وفكرها لا ينعزل عن محاولات تطبيقه .

ان تفكير ماركس ملتحم التحاما كبيرا بحياته وبحياة عصره ، لانه وليد التأمل

---

١ ـ اعتمد هذا الفصل على النصوص التي اوردها هنري لوفيفر في كتابه (كارل ماركس) ، ترجمة محمد عيتاني . وكتاب (كارل ماركس) لفرانز مهرنغ . وكتاب (فكر كارل ماركس) لجان كالفيز . وكتاب (اصول الفكر الماركسي) لكورنو .

٢ ـ راجع كتاب (ايديولوجيات اليسار الجديد) للمؤلف . الفصل الخاص ، بلوي التوسير .

٣ ـ ان بعض هذه المؤلفات الهامة ـ كالمخطوطة الاقتصادية الفلسفية ١٨٤٤ ـ و ـ الايديولوجية الالمانية ـ وكذلك ـ نقد فلسفة الحقوق كما يفهمها هيجل ـ لم تكتشف الا قبيل الحرب العالمية الثانية ، ولم تنقل الى الفرنسية الا بين ١٩٣٥-١٩٣٧ .

والمعاناة في آن واحد . والماركسية من بعده نضال فكري وعمل متجدد يتجاوز نفسه في محاولة دائمة للتكيف مع معطيات التطور العالمي ، وللتفاعل مع شروطه الجديدة .

لنصعد اولا الى اصول التفكير الماركسي ومنابعه الاولى .

في عام ١٨٤٢ ، اي بعد حصول ماركس على شهادة الدكتوراه من جامعة برلين بسنة واحدة ، نفى في الصحيفة التي كان يساهم في ادارتها (الرايخ زايتونج) ، بانه شيوعي ، واعلن عن عزمه على نشر دراسة تنقد الشيوعية ، وانه ينتسب الى المتحررين المسالمين الذين يناضلون في سبيل الحرية مع بقائهم في نطاق الحدود الدستورية .

فكيف تحول تفكير ماركس وحياته الى كفاح دائم في سبيل تحقيق رسالته في اعطاء الطبقة العاملة دليلا فكريا لنضالها ؟

اثر هيجل في حياة ماركس :

لنعد الى نهاية عام ١٨٣٧ الذي دخل فيه ماركس الى كلية الحقوق في برلين ، وحيث بدا يتفتح ميله الى الفلسفة : «كان علي ان ادرس الحقوق ، ولكنني شعرت بميل خاص الى الفلسفة» . في نهاية هذا العام التقى ماركس بالتفكير الهيجلي ، وحدث اول تحول في حياته الفكرية : تحول من الشعر الى الفلسفة .

فقد سبق لماركس في عام ١٨٣٥ عندما قدم لدراسة الحقوق في جامعة بون وقبل انتقاله الى برلين ، ان انضم الى ـ نادي الشعراء ـ ، وكان ينظم الشعر ويهيء نفسه لحرفة الادب . وقد كانت نظرية (وعي الذات) الاغريقية المتمثلة بالنزعات الفلسفية الابقورية والرواقية ، مركز الجذب الاول لتفكيره الفلسفي ، فكانت اطروحته عن الفروق بين الفلسفة الطبيعية عن ابيقور وديموقريط ، الميدان الاول لممارسة تفكيره الفلسفي كتلميذ لهيغل . فقد حاول ماركس في تصديه لفلسفة (كانت) النقدية ، ان يتخذ موقفا هيغليا وان يربط تطور الفكر بتطور الواقع العيني .

كان هيجل اذن اول مصدر نهل منه الفكر الماركسي ، بيد ان صلة ماركس بالتفكير الهيجلي كانت سطحية في البدء ، لانها لم تكن نتيجة للقلق الفكري ، بل جاءت نتيجة لاحتكاك ماركس باصدقاء هيجليين تجمعوا في نادي ـ الدكتور كلوب ـ امثال غوبن وستراوس وبرونو بوير . وهذا ما دفع ماركس بعد اول لقاء مع المصادر الجديدة لتفكيره الى نقد فلسفة هيجل وطريقته الجدلية نقدا عنيفا في مؤلفه ـ الاسرة المقدسة ـ عام ١٨٤٤ وفي مؤلفه ـ الايديولوجية الالمانية ـ عام ١٨٤٦ . حيث كان تاثير مادية القرن الثامن عشر والاشتراكية الفرنسية واضحا في بلورة تصوره المادي الجدلي للتاريخ الذي يربط بين تطور الاشتراكية والمادية . وقد كتب

هذين المؤلفين بالاشتراك مع فردريك انجلز ، وكذلك في كتاب – بؤس الفلسفة – الذي رد فيه على برودون ، فقد تناول فيه بالنقد اللاذع التهكمي الدياالكتيك الهيجلي . كما ان – المخطوطة الاقتصادية الفلسفية التي الفها عام ١٨٤٤ جاءت تجرح في الفكر الهيجلي تجريحا عنيفا ، وتؤكد على أن النظام الرأسمالي يشكل النفي التام للطبيعة الانسانية .

ان ظرفية اللقاء بين الفكر الماركسي والفكر الهيجلي في المرحلة الاولى هي التي تفسر لنا لماذا عاد ماركس بعد عام ١٨٥٧ مرة ثانية الى هيجل ، واعاد الى الديالكتيك المكان الذي سبق ان انكره عليه ، واخذ يطبق منهج هيجل على الاقتصاد السياسي.

ما هي المصادر الجديدة التي التقى بها ماركس وجعلته يتحول بسرعة عن الفلسفة الهيجلية ؟

وما هي الايحاءات التي استقاها من هذه الفلسفة ؟

الظاهرة النقدية :

ان الظاهرة الاساسية التي تسترعي الانتباه خلال تطور فكر كارل ماركس هي الظاهرة النقدية وخاصة في المرحلة الاولى التي انقضت بين عام ١٨٣٧ – ١٨٥٧ فطابع المعارك القلمية والمناظرات والجدال يسيطر على معظم مؤلفاته . فالموقف النقدي كان طريقه الطبيعي للتحرر من مختلف التسلطات او الاشتطاطات الفلسفية والفكرية الكائنة في العالم الذي كان يحيط به .

وقد تكون هذه الخاصة التي يتميز بها فكر كارل ماركس هي السبب الرئيسي في اقباله على فلسفة هيجل وفي انصرافه السريع عنها . فالعلاقة وثيقة بين النزعتين النقدية والجدلية عند ماركس . فهو فيلسوف ناقد ، لان الحقيقة الكائنة تحمل علامات(الضياع) الذي يشكل الموضوع الرئيسي لنقده والهدف الاكبر لنضاله من اجل استئصاله .

لقد راق لماركس الموقف النقدي الذي واجهت به فلسفة هيجل النزعات الفلسفية التي كانت مسيطرة على القرن الثامن عشر ، والتي كانت تتبنى نظرية التوافق والانسجام في الكون . فقد كانت فلسفة هيجل ثورة على ما سبقها من فلسفات ، اذ احلت محل النزعة التفاؤلية التي كانت تقول بوجود منسجم ، نزعة تقول بصيرورة متجسدة في حركة الكون قائمة على تجاوز التناقضات المستمرة داخل الحياة والفكر والمجتمع .

كما راق لماركس في التفكير الهيجلي ادراكه لقانون التطور التاريخي ولقانون التطور البشري . فالانسان مسلمة تاريخية وليس مجرد مسلمة طبيعية حيوانية بيولوجية . وكل ما هو انساني هو من صنع التاريخ . فالانسان يصنع ذاته من خلال التناقضات وعبر مراحل زمنية تاريخية من التطور التاريخي العام .

ثمة جانب آخر من الفلسفة الهيجلية استأثر باهتمام كارل ماركس ، وهو ما يتمثل في نظرية (الضياع) اي التردي والانحطاط والتخلي عن الجوهر . فالكون والطبيعة في نظر هيجل هما نتيجة للتجسد الخارجي للفكرة المطلقة ولما يصيبها من انحراف عن جوهرها ومن انحطاط خلال عملية التجسد الخارجي .

فتاريخ الانسان يمر عبر مراحل ـ غير انسانية ـ تمثل انحراف الانسان عن جوهره . الا أن ماركس انطلق من نقد (فلسفة القانون) عند هيغل للبحث عن أسباب هذا (الضياع) ورده الى المستوى السياسي والاجتماعي واعتبر ان القضاء على الضياع الانساني في هذا العالم الدنيوي ، رهن بالغاء الملكية الخاصة والغاء النظام الراسمالي . وحوّل الصراع الاخلاقي بين الانانية والغيرية الى صراع اجتماعي بين الطبقات .

لماذا رفض ماركس ثورية هيجل :

ان هذه النظرية (نظرية الضياع) كانت الاساس الذي انطلق منه كارل ماركس في مخطوطة عام ١٨٤٤ التي تصدى بها لنقد الدين .

غير ان الذي لم يرق لكارل ماركس هو ان هيجل قد وضع فلسفته في خدمة الدولة البروسية ، فأصبح فيلسوفها والمدافع الاول عنها . ولعل هذا الموقف هو السبب الرئيسي المباشر في رد الفعل السلبي الذي حصل عند ماركس تجاه الفلسفة الهيجلية ، والذي بلغ حدا جعله يرفض حتى محاولة الشباب اليساريين من اتباع هيجل التوكيد على الجانب الثوري من ديالكتيك هيجل ، وابعاد التناقض عن نظرية الصيرورة ، لانه من غير المعقول ان تدافع هذه النظرية عن الجمود وعن استقرار الاوضاع وعن المحافظة على المؤسسات والامتيازات .

هنا تطل علينا زاوية من زوايا حياة كارل ماركس ذات صلة بالسياسة وبالفكر في آن واحد . فالعبارة التي اطلقها الفيلسوف لودفيج فيورباخ والتي تقول : ان الفكر الكامل يجب ان يتحلى بقلب فرنسي وراس الماني ، تلخص الظرف التاريخي الذي كان يعيش فيه المثقفون في المقاطعات الالمانية التي أخذت بسحر الثورة الفرنسية واستأثرت الحركة الفرنسية الثورية باعجابها . وخاصة مقاطعة رينانيا ومدينة تريف التي ولد فيها كارل ماركس . فقد وصلت جيوش الثورة الفرنسية الى مدينة كارل ماركس والحقتها بمقاطعة ــ روير ــ الفرنسية ، وبقيت عشرين عاما ملحقة بفرنسا . وقد رافق وصول الجيوش الفرنسية وضع حد لسيطرة الامراء والاقطاع ، والغاء للجمارك بين الدويلات الاقطاعية وتشجيع للحرية الاقتصادية ، فقوبلت هذه الاجراءات بالارتياح الا ان ضريبة الدم التي فرضت على ابناء الفلاحين الرينانيين ان يتجندوا في جيوش نابليون ، هي التي اعلنت شرارة النقمة . وفي عام ١٨١٥ منح مؤتمر فينا رينانيا لبروسيا . الا ان النفوذ الفرنسي

الثقافي بقي مسيطرا على اذهان الناشئة ، وكانت كلية تريف التي درس فيهـا ماركس مركزا لهذا النفوذ . كما كان والد كارل ماركس — فرنسي الميل — اصيلا في فرنسيته كما يصفه اصحابه ، يستظهر كتب فولتير ، وكان عميد كلية تريف يفاخر بانه تلميذ جان جاك روسو . في ظل هذا الظرف السياسـي عـاش كارل ماركس فاصبح فرنسي القلب الماني الرأس .

لذلك كان رد فعله عنيفا على هيجل عندما وضع فلسفته في خدمة الدولة البروسية ، وانسحب هذا الرد على الفلسفة الهيجلية والديالكتيك الهيجلي دون تمييـز .

لم يكن هذا السبب هو الوحيد الذي حول ماركس عن الفلسفة الهيجلية ولكنه كان سببا هاما ورئيسيا ، فقد كان تفكير ماركس وقلبه يتجاوزان حدود الدولة البروسية ويتحدان بالحركة الثورية التي كانت تجد مركز ثقلها في فرنسا .

تاثيرات اخرى :

اما التاثيرات الاخرى التي ساهمت في تطوير الفكر الماركسي في هذه المرحلة فترجع الى عدة مصادر .

اول هذه المصادر يعود الى الظروف الجديدة التـي دخلت فيهـا حياة كارل ماركس بعد حصوله على الدكتوراه عام ١٨٤١ وممارسته للصحافـة (دفاعه عـن الفلاحين الموزليين الذين كانوا يعملون في الكرمة ، وحملته الصحيفة على الاستبداد البروسي ثم رحيله الى باريس عام ١٨٤٣ بعد تعطيل صحيفته) . ان هذه الملامسة المباشرة للحياة الواقعية كانت وراء التحول الجديد في تفكير ماركس .

ثمة مصدر آخر يرجع الى التقائه بفردريك انجلز الذي وجه انتبـاه ماركس واهتمامه ، نحو الاقتصاد السياسي . وقد كان هذا الالتقاء بين المفكرين صميميا الى درجة اصبحت معه الماركسية عملا مشتركا طيلة حياة كارل ماركس ، وعملا موضحا ومكملا لها ، تابعه انجلز بعد وفاته . فقد كان لقاء ماركس بانجلز التقـاء بالحضارة الانجليزية .

اما المصدر الثالث لتحول ماركس من «فلسفة الفكر» الى «فلسفة الانسان» ، فيرجع الى اتصال الفكر الماركسي بالاوساط الاشتراكية والشيوعية في باريس عام ١٨٤٤ ، فقد كان اتصاله ببرودون ، ولويس بلان ، وهنري هايـن ، وويتلنـج باكونين ، عاملا كبيرا في هذا التحول . لان التقاءه بهذه الاوساط كان يعني ايضـا التقاء بالحضارة الفرنسية .

فلسفة فيورباخ او المرحلة الجديدة :

اما المصدر الرئيسـي الاخير الذي ادخل الفكر الماركسي في مرحلته الجديدة ،

فهو احتكاكه بفلسفة (فيورباخ) .

كان لودفيج فيورباخ قد نشر عام ١٨٤١ كتابه الشهير (جوهر المسيحية) . ثم نشر كتابه (دراسات مؤقتة في اصلاح الفلسفة) عام ١٨٤٣ وفيهما يصدر عن نزعة مادية تتحدى اصول التفكير الهيجلي في وقت كان فيه انتباه كارل ماركس قد بدأ يتحول الى النضال السياسي والى الحياة العامة حيث عجزت الفلسفة الهيجلية عن حل المسائل المادية لهذا النضال . وقد اعجب ماركس بتأكيد فيورباخ على علاقة الفكر بالانسان : «ان الفكر صفة من صفات الذات ، فهو يصدر عن الكائن ولا يصدر الكائن عن الفكر وكل تفكير يجري دون الانسان وخارج الانسان ليس الا تجريدا مفككا عديم الوحدة لا اساس ولا قوام ولا فائدة ولا حقيقة له» . واعجب ماركس بالمبدأ الذي انطلق منه فيورباخ : «الانسان هو جوهر كل نشاط انساني ، وكل علاقة انسانية وقاعدتهما» . كما اعجب بنقد فيورباخ لموقف هيجل من الدولة البروسية فهو يعتبر الدولة «حقيقة في خدمة الانسان لا حقيقة فوقه واسمى منه» كما يرفض ان تكون الدولة تجسيدا خارجيا للفكرة المطلقة ، ويرفض ان يكون الانسان مظهرا من مظاهر ترديها وانحطاطها .

وهكذا فان احلال فيورباخ للانسان الحي محل الفكرة الهيجلية المطلقة ، كان مركز الجذب الذي استقطب اهتمام كارل ماركس .

فكان لا بد لتفكير ماركس النقدي الذي وجد في تفكير انجلز رفيقا مخلصا ، ان يتصدى معه لهذه المصادر الجديدة بروح نقدية ، وان ينفذ من خلالها الى مرحلة جديدة من مراحل تطوره . فهو في مقدمته لنقد فلسفة الحق عند هيغل ، التي كتبها في شباط ١٨٤٤ يعتبر ان مفتاح فهم التطور التاريخي يكمن في دراسة المجتمع الذي يحتقره هيغل ، وليس في دراسة الدولة التي يمجدها .

ماركس ينقد فيورباخ :

في عام ١٨٤٥ الف ماركس كتابه ـ دراسات عن فيورباخ ـ . وفي هذه الدراسة سجل كارل ماركس ماخذه الرئيسي على الفلسفات المادية السابقة ، دون استثناء مادية فيورباخ ، فالعيب الاول في هذه الفلسفات يكمن في انها ـ لا تنظر الى الشيء المادي والى الواقع والى العالم المحسوس ، الا من خلال الموضوعية الشيئية الجامدة ومن خلال المظهر الحدسي الحسي ، دون ان تنفذ الى مظهرها الحقيقي باعتبارها نشاطا وفعالية انسانية محسوسة وبوصفها تطبيقا عمليا .

كما أخذ ماركس في هذه الدراسات على فيورباخ انه نظر الى الحدس الحسي نظرة سلبية دون ان يربطه بالنشاط العملي التطبيقي ، وحصر الكائن الانساني في حدود الفرد المنعزل في حين ان الكائن البشري الحقيقي «هو مجموعة من العلاقات الاجتماعية» . وينتهي ماركس في (الدراسة الثانية) الى اتهام فيورباخ بأنه «يصدف

عن واقع التاريخ ، وينظر اليه نظرة مجردة» والى اهام وجهة النظر المادية القديمة (في الدراسة العاشرة) بان منطلقها هو المجتمع البورجوازي . وهكذا يبرز المفهوم المادي التاريخي الجدلي عند ماركس من خلال نقده المزدوج للمثالية وللمادية الآلية، لانهما تتجاهلان طبيعة (الفعل) وتفشلان في ادراك (ان تطور العالم هو نتاج النشاط الانساني) لان المثالية ترد الواقع العيني الى العقل ، ولان المادية الآلية تعتبر العالم الخارجي موضوعا للادراك الحسي لا موضوعا للفعل .

في عام ١٨٤٦ الف ماركس بالاشتراك مع انجلز كتاب «الايديولوجية الالمانية» وفيه يتابعان نقد فيورباخ على ضوء المفهوم المادي الجدلي للتاريخ : فهو يرى في الانسان مجرد فرد بيولوجي منعزل ، والانسان الفيورباخي ليس الا الفرد البورجوازي... دون ان ينكرا ميزة فيورباخ الذي وضع يده على الموضوع الحقيقي الواقعي لعملية التطور التاريخي : «الانسان الحي ، ذو اللحم والدم» ، هذا الانسان الذي يتطور وهو يتقهقر ، ويتقهقر وهو يتطور ، والذي بلغ حدا من الانحطاط والتردي (طوال المدة التي استغرقها التطور التاريخي) اصبحت معه ابسط حاجات الانسان عدوا للكائن الانساني ، واصبح فكر الانسان نفسه عدوا له . وماركس وانجلز يتتبعان المراحل الكبرى للتطور الاقتصادي والاجتماعي للانسانية ، حتى تكون هذه المعرفة اداة لتفسير الواقع بشكل يسترد معه الانسان جوهره الانساني .

«اقتصرت اعمال الفلاسفة على تفسير الكون تفسيرات مختلفة ، والمهم الان تحويله وتغييره» ، تلك هي الصرخة التي تلخص هذه المرحلة من تطور تفكير كارل ماركس .

انجلز واثره في تفكير ماركس :

ولا بد لادراك كنه المحرك الجديد في تحول فكر كارل ماركس من الفلسفة المثالية الى الفلسفة المادية ، ومن الفلسفة النقدية الى نقد الفلسفة نقدا اجتماعيا ، من الاشارة الى التاثير الكبير الذي دخل على تفكير كارل ماركس وعلى حياته من جراء الصلة التي انعقدت بينه وبين فردريك انجلز .

كان اول لقاء تم بين الرجلين في باريس بعد ان وصلها ماركس عام ١٨٤٣ . كان انجلز قد اعتنق الشيوعية عام ١٨٤٢ : اي في العام الذي كان فيه ماركس يعلن في صحيفته (رايخ زايتونج) بانه ليس شيوعيا وبانه سوف ينشر دراسة نقدية للشيوعية . وكان انجلز ابنا لصاحب مصنع كبير للنسيج ، فأتيح له ان يشاهد عن كثب ، بؤس العمال في مصنع أبيه ، فعكف على دراسة الراسمالية والوضع الراسمالي في انكلترا . وهكذا فان انجلز وصل الى الاشتراكية والشيوعية عن طريق دراسة الوضع العمالي في انجلترا . اما ماركس ، فقد وصلها تحت تأثير الحركة العمالية التي تعرف بها في باريس عام ١٨٤٤ .

وعندما أسس ماركس في باريس مجلة (الحوليات الفرنسية الالمانية) املا في التقريب بين فكر الالمان النظري والحركة الاشتراكية الفرنسية ، نشرت هذه المجلة لفردريك انجلز دراسة في (نقد الاقتصاد السياسي) اعتبرها كارل ماركس عملا عبقريا . كانت هذه الدراسة تشير الى التفاوت المتزايد بين الطبقات ، والى ازمات فيض الانتاج ألتي تميل الى التفاقم . وفي هذه الدراسة يربط انجلز جميع مقولات الاقتصاد السياسي وجميع التناقضات الاقتصادية بالملكية الخاصة لوسائل الانتاج.

وقد قرأ ماركس هذه الدراسة بشغف ، وانكب بعدها على دراسة مؤلفات الاقتصاديين بنهم يشبه الحمى . ومنذ ذلك الحين تزاوج فكرا المفكرين الكبيرين ، فكانت الماركسية ثمرة من ثمار التفاعل بين فكر تحليلي عميق رائد في الحقل الاقتصادي وبين فكر تركيبي خارق مبدع ، تدرب في مدرسة الفلسفة الهيغلية الجدلية ، فأصبح يرى بعيدا وكثيرا وسريعا اكثر من الجميع ، على حد تعبير انجلز.

انصرف ماركس وانجلز الى عمل مشترك ، ركزا فيه على نقد النزعات المسيطرة على الفكر في تلك الفترة . فبدأ بنقد مذاهب الهيجليين اليساريين الذين كانوا معهما في نادي (الدكتور كلوب) . وكان كتاب (اسرار باريس) الذي الفه (اوجين سو) يعتبر اقوى ممثل لهذه النزعة الهيجلية اليسارية ، نتصدى له ماركس وانجلز بالنقد اللاذع في مؤلفهما (الاسرة المقدسة) . واكملا هذا النقد في كتابهما (الايديولوجية الالمانية) الذي استغرق تأليفه بين ايلول ١٨٤٥ وآب ١٨٤٦ . وفي هذا الكتاب نقف لاول مرة على (نظرية المادية التاريخية) ، كما ينطوي هذا الكتاب على نقد مزدوج لفلسفة فيورباخ الفردية المادية ، ولفلسفة (بوير شتيرنر) الفردية المثالية . اي على نقد شامل للفلسفة الالمانية الحديثة .

لم يكن الفكر الماركسي قد تحدد تحديدا دقيقا عام ١٨٤٦ لان ماركس كان يوقن بأن ثورته على الفلسفة الهيجلية ، منطقا ومنهجا ، تشكل حكما مبرما قاطعا لا رجوع عنه . فلم تكن المسألة بالنسبة اليه مسألة تطوير الديالكتيك الهيجلي وتكميله او تعميقه بل مسألة تقويض للفلسفة الهيجلية جملة وتفصيلا .

كان اكتشاف المادية التاريخية دافعا مباشرا لالتحام ماركس بالحركة الشيوعية . فمنذ عام ١٨٤٦ بدأ ماركس مع انجلز الاتصال بالمنظمات العمالية ، وكانت مراسلات ماركس مع برودون مستمرة . الا ان علاقات ماركس وانجلز بالطبقة العاملة اصطدمت بحاجز : (الشيوعية العفوية) ، وبزعمائها وعلى رأسهم ويتلنج .

المرحلة الثانية : ١٨٤٦ – ١٨٤٨

رافقنا تطور الفكر الماركسي حتى عام ١٨٤٦ . وقد تبين لنا ان هذا الفكر لم يستمد مصادره من خلال احتكاكه بافكار الفلاسفة وخاصة (هيجل وفيورباخ)

حسب ، بل ومن خلال احتكاكه بالواقع السياسي والاجتماعي ايضا ، لا في المانيا وحدها بل في القارة الاوروبية . وان الخطوط العامة لنظرية المادية التاريخية قد نضجت كثمرة لهذا التزاوج بين المعاناة الفكرية والممارسة العملية في هذه المرحلة اي بعد أن تحرر ماركس نهائيا من الموقف الفلسفي النظري المحض ومن لقته بالدولة والسياسة والدين .

بعد عام ١٨٤٦ ، يدخل الفكر الماركسي في طور جديد (١) ، فقد بدأت مصادر الفكر الماركسي على الصعيدين النظري والعملي ، تتسع وتتعدد . وبدأ احتكاك ماركس بالاوساط الاشتراكية والشيوعية الذي حصل في باريس عام ١٨٤٤ ، يعطي ثماره ، ويزيد فكر كارل ماركس وضوحا واستقلالية .

وهنا تتكرر الظاهرة النقدية التي تطبع فكر ماركس . فكما بدأ ماركس هيجليا ثم فيورباخيا ، وانتهى بنقدهما وبمحاولة تجاوزهما في نظرية المادية التاريخية . كذلك فان احتكاك ماركس بالنزعات الاشتراكية والشيوعية قد انتهى الى نقدها وتجاوزها . لان ماركس كان قد تجاوز نفسه فحقق الميزة الكبرى للفكر المناضل ، وهي وحدة الفكر والعمل. كما كانت مفاهيمه في المادية الجدلية ونظرته الى التاريخ والى العمل الثوري ، قد بدأت تكتمل . ومن خلال هذه المقاييس اصبح ينظر الى الواقع السياسي والى الحركات التي تقود الجماهير الكادحة .

الشيوعية البدائية :

١ لقد اعجب كارل ماركس بالجمعيات الشيوعية الفرنسية في باريس . وسجل انطباعه عنها بهذه العبارة : « ليست الاخوة في هذه الجمعيات كلمة فارغة . وانك لتجد كل ما في البشر من نبل ، يشع من هؤلاء الرجال الذين تمرسوا بالعمل فتصلبت عزائمهم » .

كما اعجب ماركس بالنشاط الفكري الذي بدأت تمارسه الجمعية العمالية الشيوعية التي أسسها المفكر الشيوعي ويتلنج واطلق عليها اسم (رابطة انصار العدالة)، وبدأ يتردد في باريس بصحبة انجلز على العمال الشيوعيين من فرنسيين ومهاجرين .

الا ان فكره النقدي ما لبث ان تركز على هذا النوع من الشيوعية العفوية التي كان يطلق عليها ماركس اسم (الشيوعية البدائية) لانه بقدر ما كان يرفض الاكتفاء بنظرية بعيدة عن العمل وبفلسفة بعيدة عن الشعب ، بقدر ما كان يرفض العمل الذي توجهه العاطفة البسيطة .

---

١ ـ راجع (ايديولوجيات اليسار الجديد ـ التوسير) للمؤلف .

وكان ويتلنج قد اصدر كتابه (الانسانية كما هي ، وكما يجب ان تكون) ، وكان يسمي مذهبه (الشيوعية الداعية الى المساواة) . وهو عامل خياط فيلسوف وشاعر ينظر الى نفسه على انه مسيح الطبقة العاملة . وكان يتمتع في اوساط العمال بمحبة ونفوذ عظيمين ، وكانت حيويته ونشاطه محط انظار الكادحين واعجابهم. فقد انشأ الجمعيات والنوادي والحلقات العمالية في شتى انحاء اوروبا، وعمد الى تشكيل جيش يهدف الى اقامة ثورة شاملة في اوروبا وتحقيق (الشيوعية العادلة) كما كان يسميها ويتلنج .

في عام ١٨٤٦ بدأ ماركس يتصدى لمنطق هذه الشيوعية ولاسلوبها ، اتهم ماركس ويتلنج بأنه يعمد الى اثارة الشعب اثارة عاطفية دون ان يركز نضاله على قواعد واسس متينة . وانه يتوجه الى العمال دون نظرية علمية ، وانه يتبنى اسلوب الزعامة الفردية التي تجر الجماهير خلفها وتسوقها كالقطيع .

كان ماركس يرى ان الشيوعية لا يمكن اقامتها بارادة تحكمية ، وفي اي زمان شئنا وأي مكان ، لانها تتطلب شروطا تاريخية معينة ، وانه من المستحيل القفز فوق مرحلة تاريخية وعدم المرور بها .

وقد تعرض ماركس لحملات ويتلنج بعد هذا النقد ، واتهم بأنه المثقف النظري ذي الفكر المجرد، من قبل اولئك الذين وصفهم ماركس بأنهم «ابطال مزيفون يدعون الى النضال العشوائي ويكرهون التفكير والثقافة الذهنية المعمقة ويحاولون ستر عجزهم باتهام العلم» .

اليسارية الاعتباطية :

وتجددت هذه المعركة عام ١٨٤٨ عندما شكل اللاجئون الالمان في باريس كتيبة ثورية محاربة للدخول الى المانيا ، فرأى ماركس في هذه المحاولة تصرفا حماسيا اجوف لا يأخذ بعين الاعتبار كل ملابسات الموقف السياسي ، وناشد الشيوعيين البقاء في باريس ، فاتهم بالجبن والخيانة . وعندما فشلت المحاولة وعاد كارل ماركس الى المانيا ، دخل في صراع جديد مع شخصية شبيهة بشخصية ويتلنج ، وهو غوتشالك الذي اسس (الرابطة العمالية) وانشأ جيشا عماليا وكان يطالب بشيوعية فورية وباتجاه بروليتاري محض ويرفض كل احتكاك وتعاون مع المنظمات الديمقراطية .

فتصدى كارل ماركس لهذه النزعة اليسارية واتهمها بالانعزالية وطالب البروليتاريا بان تسير مع الجيش الديمقراطي الكبير . « فما دام الباستيل الالماني قائما ليس للبروليتاريا الحق في الانعزال . وما دامتْ المانيا لم تنضج بعد لثورة عامة من السخف التضحية بفصيلة من رجال الطليعة والديمقراطية» .

كما كان ماركس يرى ان الثورة الالمانية في تلك المرحلة يجب ان تكون جمهورية

تستهدف اعلان حق الانتخاب العام وتحرير الفلاحين من السيطرة الاقطاعية وتشجيع تطور الصناعة وتمركز القروض في مصارف الدولة . وان الوقت لم يحن لالغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ولا لالغاء الطبقات . فشن غوتشالك حملة عنيفة على ماركس ، واتهمه بانه مضطهد الطبقة العاملة وخائن للشعب ، لان المطبعة التي كانت تطبع فيها صحيفة ماركس لم تدفع اجور عمالها وفق مطالب (الرابطة العمالية) . كما ان صحيفة الرابطة العمالية وجهت كتابا مفتوحا الى كارل ماركس اتهمته فيه بانه لا ينظر نظرة جدية الى تحرير المضطهدين ، وان شقاء العامل وجوع المسكين ، ليس لهما في نظره الا اهمية علمية . وطرح غوتشالك على ماركس في هذه الصحيفة نفس السؤال الذي سبق لويتلنج ان طرحه : «لماذا تحتم علينا اهراق دمائنا ؟ اكان علينا كما تنبات ، يا سيدي الواعظ ، لكي ننجو من جحيم العصور الوسطى ، ان نغوص في المظهر الراسمالي حتى نصل فيما بعد الى نعيم غائم، تنادي به عقيدتك الشيوعية ؟» .

الا ان ماركس استمر في التصدي لهذه اليسارية الاعتباطية ونجح في خلق تيار جديد داخل الحركة الشيوعية يهدف الى تركيز النضال العمالي على اسس علمية . فكان البيان الشيوعي الذي كلف ماركس مع انجلز بوضعه في المؤتمر الشيوعي الثاني في لندن عام ١٨٤٨) نقطة التحول الاساسية في هذا النضال .

النزعة الاصلاحية :

ثم كان لماركس موقف من النزعة الاصلاحية الاشتراكية بعد احتكاكه بالمفكرين الاشتراكيين في باريس . فقد كان الجو الفكري في باريس باهرا وكانت الافكار الاشتراكية تحتل المكان الاول . وكانت النزعات الاشتراكية السان سيمونية والفورية والمسيحيين الاشتراكيين (الاب لامينيه) والسيسموندين ، تحركهم جميعا الكلمة وحدها . بيد أن ماركس ما لبث أن انتقل من دراسة هذه الاشتراكيات (الطوباوية) الى دراسة البروليتاريا . وكان (برودون) المفكر العامل في المطبعة ، هو حلقة الوصل بين هاتين المرحلتين .

وقد كان ماركس على اتصال مباشر بالمفكر الاشتراكي الفرنسي برودون وتأثر به ، وهو يعتبر احد منابع الفكر الماركسي. فقد تميز برودون عن سائر الاشتراكيين الفرنسيين بانه منذ كتابه الاول «ما هي الملكية ؟» نادى بالغاء الملكية ولم يكتف بنقدها . واعتبر الملكية هي السرقة . وحقق بذلك تقدما على (فورييه) . وكان ماركس يحمل لبرودون تقديرا خاصا وينسب اليه دورا فعالا هاما في تاريخ الحركة الاشتراكية . وقد حاول برودون في كتابه «فلسفة البؤس» ان يطبق الديالكتيك الهيجلي على المسائل الاقتصادية والاجتماعية،فانبرى فكر كارل ماركس النقدي للرد عليه في كتابه «بؤس الفلسفة» . وفي هذا الكتاب يعود مرة ثانية

للتصدي لفلسفة هيجل ويأخذ على برودون انه سار في اثر هيجل واقتفى منهجه في التحليل . فالديالكتيك «ليس سوى حركة العقل المجرد في ذهن الفيلسوف . هذه الحركة التي تؤكد ذاتها ، ثم تنفي ذاتها ، ثم تنفي النفي» . وهكذا اندفع ماركس في هذا الكتاب لمهاجمة الفلسفة والطريقة الجدلية بمهاجمته لتحليل برودون للمقولات الاقتصادية والاجتماعية . فبرودون يعزل في راي ماركس جوانب الواقع المتناقضة بعضها عن بعض ، بدلا من تحليلها في مجموعها وتفاعلاتها المتبادلة . وهو ينتهي الى (نزعة اصلاحية) يظن من خلالها انه يكفي اتخاذ التدابير القانونية او الاخلاقية حتى تتلاشى السرقة وينتهي الاستغلال الذي يقع العامل ضحيتهما . فبرودون في كتابه «فلسفة البؤس» لم يدرك حسب راي ماركس الدور التاريخي الذي تقوم به الطبقة العاملة ولم يفهم العمل النضالي كما لم يربط الاستغلال الفردي داخل المجتمع الراسمالي ببنية هذا النظام . فالراسمالي كما يرى ماركس في رده على برودون «ليس محتالا ولا لصا سارقا» . وهو يمكن ان يكون على الصعيد الفردي ، انسانا شريفا

. فليس اذن الراسمالي الفرد هو المطروح على بساط البحث ، وانما النظام الراسمالي، بقوانينه الداخلية . هذا النظام الذي لا يمكن تغييره بواسطة الاخلاق والتشريع وحدهما ، ولا بقصر النضال العمالي على المطالب النقابية ، كما تبشر النزعة الاصلاحية لان البروليتاريا ، في ظل الصراعات القائمة ، لم تعد تستطيع تحرير نفسها من الطبقة المستغلة المستبدة ، الا بتحرير المجتمع كله في الوقت ذاته .

ان هذا التفاعل بين فكر كارل ماركس وبين الحركة الشيوعية والتفكير الاشتراكي قد ساهم في تطويرهما معا . فمن ناحية ازداد الفكر الماركسي وضوحا ودقة استقلالية ، ومن ناحية ثانية تقدمت الحركة الاشتراكية تقدما كبيرا بعد البيان الشيوعي الذي كان ثمرة من ثمار هذا التفاعل .

البيان الشيوعي :

خلال عام ١٨٤٧ ، كان نشاط الاشتراكيين في جميع البلدان الاوروبية قد وصل الى درجة اصبحت فيه لجمعية (الاخوة الديمقراطية) فروع في كل المدن الكبرى في اوروبا . وقد اصدرت هذه الجمعية التي كان ماركس على صلة بها بيانا امميا يدعو الى تاليف منظمة اممية . وعندما انعقد المؤتمر الثاني لرابطة الشيوعيين ، طالب ماركس بعقد مؤتمر عام لجميع المنظمات الديمقراطية ، فقبل اقتراحه وتحدد موعد المؤتمر في ٢٥ تشرين اول من عام ١٨٤٨ ، الا ان قيام الثورة الاوروبية سبق هذا التاريخ وحال دون عقد المؤتمر .

ان هذه المنظمات كانت تفتقر الى منهاج سياسي يوجه نضالها ويحدد مراحل هذا النضال واهدافه تحديدا دقيقا . وقد عبر المؤتمر الشيوعي الذي انعقد في لندن في اواخر عام ١٨٤٧ عن هذه الحاجة ، وكلف ماركس وانجلز بوضع منهاج سياسي لرابطة الشيوعيين وكان انجلز قد وضع كتابه عن (مبادىء الشيوعية) ، فاتخذ منه ماركس اساسا لصياغة البيان الشيوعي الذي ارسلت مخطوطته الى لندن في كانون الثاني من عام ١٨٤٨ .

يعرّف هذا البيان (الشيوعية) التعريف التالي : الشيوعية مرحلة من مراحل التاريخ يمكن فهمها حين تدرس حركة التاريخ ، فهي ليست (حالة) او (وضعا) يمكن تحقيقه فورا بمجرد اصدار قرار ، او يستطيع عدد معين من الافراد ، يتمتعون بارادة وبعزم نضالي كبيرين ، ان يفرضوه على الانسانية .

و(الشيوعي) ، حسب تعريف البيان ، هو الذي يتخذ موقفا علميا من قضايا المجتمع والانسان ، ويهتم دائما بتحديد الفترة الزمنية والنقطة التي يجتازها البشر، من مجرى التاريخ ، ويبذل جهده للامساك باقرب حلقة من السلسلة ، وتوجيه الاحداث والبشر في اتجاه المستقبل لادراك هذه المرحلة المنشودة التي تمثل سن الرشد بالنسبة الى الانسانية .

لذلك ينصرف بيان ١٨٤٨ الى دراسة الحركة التاريخية دراسة عقلانية علمية من خلال مظاهر الحياة الايديولوجية والسياسية السطحية الصاخبة . فيكشف عن المراحل الماضية من تاريخ البشرية : المشاعية البدائية (السابقة لنشوء الطبقات) ــ المجتمع المؤسس على الرق ــ الاقطاعية ــ المجتمع البورجوازي الراسمالي .

والفكرة الرئيسية التي تهيمن على البيان الشيوعي ، هي ان الانتاج الاقتصادي والبنية او التركيب الاجتماعي الناتج عنه ، يكونان بشكل حتمي وخلال جميع العصور ، قاعدة التاريخ السياسي والفكري ، وان التاريخ (منذ انحلال ملكيةالارض المشاعية القديمة) هو تاريخ صراع بين الطبقات وان هذا الصراع وصل الى مرحلة لا تستطيع معها الطبقة الكادحة ان تتحرر اليوم من الطبقة التي تستغلها وتضطهدها، الا بالغاء الاستثمار كليا والغاء الصراع الطبقي الى الابد . وهذا لا يتم الا باستيلاء الطبقة الكادحة على السلطة السياسية وتغيير الدولة بوصفها اداة سياسية للتطوير الاجتماعي . وذلك على مراحل :

١ ــ الثورة الديمقراطية : وفيها يتم التحرر الديمقراطي الوطني .

٢ ــ الثورة الاشتراكية: وفيها يتحقق النمو الكبير في وسائل الانتاج وفي الثروة الاجتماعية ، وتتلاشى المنازعات الطبقية .

٣ ــ الشيوعية : وفيها يتم زوال الطبقات وزوال الدولة ، وهي مرحلة تتميز بوفرة الخيرات والثروات الاجتماعية ، ويتحقق المبدأ القائل «من كل حسب طاقته ؛ ولكل حسب حاجته » .

ان تعبير (ديكتاتورية البروليتاريا) لم يرد في البيان الشيوعي لانه ظهر اول مرة عام ١٨٥٢ في رسالة ماركس الى (ويدمير) .

كما ان تحليل ماركس للأزمة الثورية لم يات كاملا في البيان . ذلك لان بيان ١٨٤٨ يعبر عن مرحلة من مراحل التفكير الماركسي ، لم تكن قد بلغت بعد درجة الوضوح والنضوج التي نشاهدها بعد عشر سنوات في (نقد الاقتصاد السياسي) ، وبعد خمسة عشر عاما في الجزء الاول من (راس المال) .

المرحلة الثالثة بعد ١٨٤٨

ما هي العوامل الجديدة التي ساعدت على تطوير الفكر الماركسي خلال سنوات ١٨٤٨ – ١٨٦٥ ؟

كان ماركس ينظر الى الازمة السياسية والاقتصادية التي عرفتها اوروبا عام ١٨٤٨ ، على انها ازمة حاسمة ونهائية سوف تقضي على النظام الرأسمالي في البلدان الاوروبية جميعها . وتحت وطأة سيطرة هذه الفكرة ، كتب كارل ماركس في أول كانون الثاني من عام ١٨٤٩ مقالا تنبأ فيه بثورة الطبقة العاملة الفرنسية ، وبحرب عالمية . وانتهى عام ١٨٤٩ ، ولم تتحقق نبوءة ماركس . وبقي عام ١٨٥٠ مصرا على نبوءته بأن اوروبا ستعاني ازمة اقتصادية وسياسية . وعندما ذهب الى لندن بعد نفيه من المانيا عمد الى التفاهم مع انصار غوتشالك وقام بنقد ذاتي اعلن بعده تبنيه لفكرة الثورة الدائمة حتى تتحقق الشيوعية ، وكان هذا التبني نتيجة لفكرة (الازمة الدائمة) التي سيطرت على تفكير كارل ماركس في هذه الفترة .

ومضى عام ١٨٥٠ دون ان تتحقق نبوءة ماركس في الازمة الاقتصادية والسياسية ، بل لاحظ كارل ماركس ان المجتمع البورجوازي قد عاد فثبت دعائمه، كما عادت الطبقة المسيطرة سياسيا الى تعديل وضعها وتسوية مواقعها وتثبيت دعائمها . فأدرك ان القوانين الداخلية للنظام الرأسمالي اكثر تعقيدا مما كان يحسبه. ومنذ ذلك التاريخ عاد ماركس الى اغناء دراساته النظرية فانكب على دراسة الاقتصاد وعلى استنباط قوانين التطور الاقتصادي وعلاقة هذا التطور بالتطور الاجتماعي ووجد في (الديالكتيك) زورق النجاة فاقبل عليه من جديد ، وبدات دراسته لحركة التاريخ ترتبط بنظرية كلية شاملة وانصرف خلال اعوام ١٨٥٢ – ١٨٥٧ للعمل الصحفي والتاليف ، وتوقف عن بذل اي نشاط داخل رابطة الشيوعيين ، فاتهم من قبل جماعة غوتشالك بالفشل ، لانه اخضع النضال العمالي لتحليل ذهني مجرد ، وبأنه قد تخلى عن الثورة بحجة التفرغ لتجريدات نظرية لا طائل تحتها . فرد عليهم كارل ماركس قائلا : «نحن نقول للعمال : سوف تجتازون خمسة عشر ، او عشرين، او خمسين عاما من الحروب الاهلية والعالمية ، لا لتغيير الظروف وتطويرها وتبديل شروط معيشتكم فحسب ، بل لتطوير انفسكم وجعلها صالحة للحكم السياسي ايضا . اما انتم فتقولون لهم ، على العكس : علينا الاستيلاء على الحكم فورا ، او فلنذهب الى النوم !... ، وكما ان الديمقراطيين جعلوا من كلمة (الشعب) مفهوما

ذهنيا مقدسا ، هكذا انتم تكرسون كلمة (بروليتاريا) وتطوبونها !» . اما ماركس ، الذي انطلق من وحدة النظرية والممارسة النضالية العملية اساسا لمذهبه ، فقد كان يعتبر الحركة العمالية حركة تحرير للانسان . لذلك كان مع حرصه على عدم الابتعاد عنها وعلى الابقاء على وحدتها ، يقف بحزم امام كل المواقف والتيارات السطحية والعشوائية والاصلاحية ، القصيرة النظر في داخلها ، متمسكا بالاعتبارات النظرية لتصحيح المواقف العملية . وهو الذي راى في الضياع الاقتصادي ضياع الانسان الاساسي ، يسعى بعد الان الى المزيد من العمق في فهم طبيعة هذا الضياع وتحديد طريق التحرر منه .

لذلك كانت علاقته بالحركات الاشتراكية ، ابتداء من جماعة (الاشتراكية الحقة)، الى (العصبة الشيوعية) ، الى (جمعية الشيوعيين الثوريين العالمية) علاقة نقدية كثيرا ما انتهت به الى القطيعة مع بعض التيارات ، كما حصل مع (لاسال) فيما بعد، ومع (باكونين) ومع (بلانك) . اي مع النزعات التعاونية والفوضوية والمغامرة .

بعد عام ١٨٥٧ يدخل الفكر الماركسي مرحلة النضج ، فبعودته الى طريقة هيجل الديالكتيكية وبتطويره لها تنشأ نظرية الجدلية المادية ، وبتحليله لراس المال تكتمل الصورة النقدية للنظام الراسمالي . وتصبح الماركسية كما اراد لها ماركس دليلا لنضال الطبقة العاملة .

بعد ان استعرضنا الخطوط العامة لتطور فكر كارل ماركس ، يجدر ان نقف على المحتوى التفصيلي لهذا الفكر وعلى مراحل تطوره لدى بناة الماركسية .

الفصل الثاني

نظرية المادية الجدلية

يتلخص محتوى الفكر الماركسي في النظريات الثلاث الاتية :
١ ـ نظرية المادية الجدلية .
٢ ـ نظرية المادية التاريخية .
٣ ـ نظرية الاقتصاد السياسي .

أن عرضنا لهذا المحتوى بنظرياته الثلاث سوف يعتمد على الترجمة الفرنسية لكتاب (الايديولوجية السوفياتية المعاصرة) (لكوستاف ويتر) الذي صدر عام ١٩٦٥ وعلى الكتابين اللذين صدرا في الاتحاد السوفياتي بتوقيع مجموعة من الايديولوجيين السوفيات هما : (اسس الفلسفة الماركسية) عـــام ١٩٥٨ و (اسس الماركسية ـ اللينينية) عام ١٩٥٩ .

نظرية المادية الجدلية :

يرى لينين ان نظرية كارل ماركس هي الوريث الشرعي لافضل ما ابدعته الانسانية في القرن التاسع عشر ، اي الفلسفة الالمانية ، والاقتصاد السياسي الانجليزي ، والاشتراكية الفرنسية .

وقد بقي هذا التصنيف الثلاثي اساسا للبحث بالنسبة للمفكرين والكتّاب الماركسيين ، وان تشعبت بنود هذا التصنيف احيانا ، كما يشير الى ذلك كتاب أسس الماركسية ـ اللينينية ، فتقسم (الفلسفة) الى ١ ـ مادية جدلية و ٢ـ مادية تاريخية ، وتقسم (نظرية الاشتراكية العلمية) الى ١ـ نظرية الاشتراكية والشيوعية و٢ـ نظرية الحركة الشيوعية الاممية وتكتيكها .

اما المادية الجدلية والمادية التاريخية ، فقد اعتبرتا أساس النظرية وروحها .

لانهما تشكلان اساس وحدة التفكير الماركسي وصلة الوصل بين جميع اجزاء هذا التفكير . حتى خصوم الماركسية يقرون بتماسك هذا المذهب والتحامه لان المادية الجدلية والمادية التاريخية قد جعلتا مفهوما واحدا للعالم وطريقة واحدة ، يسيطران على جميع جوانب المذهب الماركسي .

المادية الجدلية والفلسفة :

(ان الفلسفة الماركسية تمثل نظاما متناسقا من وجهات النظر عن العالم ككل ، عن قوانين تطوره ، وعن طرق معرفته) (١) . وفي المؤتمر الخامس عشر للفلسفة الذي انعقد في فارنا عام ١٩٧٣ اكد الفيلسوف البلغاري (اربياجاكوف) في رده على الفيلسوف التحليلي الوضعي (الفرد آير) بأن ماركس فيلسوف وليس مجرد عالم اجتماع ، لانه قام بتحليل عدة تصورات مثل المادة والشعور والضرورة والحرية وتساءل عن معنى الانسان والطبيعة والمجتمع . ان الماركسية اذن تحمل تصورا عن العالم ، وهي تخالف النزعة الوضعية **Le Positivisme** التي تعتبر ان العلوم وحدها هي التي تسمح بمعرفة الحقيقة . اذ ان كل علم ينحصر ميدانه في جانب من جوانب الحقيقة ، فالميكانيك يدرس قوانين الحركة ، والكيمياء تدرس بنية المادة وتحولاتها، والبيولوجيا تدرس قوانين تطور العضوية الحية . لذلك فان الماركسية تقف مع وجهة نظر الفيلسوف اليوناني (ارسطو) في ضرورة وجود نظام فكري يتناول الحقيقة في مجموعها . غير ان الماركسية تحدد دور الفلسفة وتقصره على نظرية المعرفة . لذلك فان المادية الجدلية تعتبر نفسها فلسفة القوانين العامة لحركة الطبيعة والمجتمع والفكر البشري ولتطورها . وبحكم الصلة التي تربطها بمختلف العلوم ، تعتبر المادية الجدلية نفسها نظرية علمية وتقدمية عن الحياة . وانها قد احدثت انعطافا ثوريا في تاريخ الفلسفة . فكما ان معرفة قوانين الطبيعة تعطي الانسان القدرة على السيطرة على الطبيعة ، كذلك فان معرفة قوانين التطور الاجتماعي من شانها ان تسمح بتبديل العلاقات الاجتماعية تبديلا واعيا .

فالفلسفة الماركسية تهدف اولا الى اعطاء تفسير للعالم على ضوئه تنكشف المعايير الموضوعية لتطور المجتمع البشري ، وهي تهدف ثانيا الى الاستعانة بهذا التفسير على تغيير العالم تغييرا ثوريا .

ثم ان الفلسفة الماركسية تضع في يد البروليتاريا سلاحا ماضيا عندما تزودها بمعرفة قواعد التحويل الثوري للواقع .

وهكذا فان الانعطاف الثوري الذي احدثته الماركسية في تاريخ الفلسفة يكمن في جعلها الناحية التطبيقية العملية مركز الاهتمام الاول في كل عمل فلسفي . اي

---

١ ـ أسس الفلسفة الماركسية . افاناسييف . ص ٥ .

الفعالية الانتاجية المادية والصراع الثوري الذي تمارسه الطبقة العاملة من اجل تحررها .

ان النزعات المادية الفلسفية تصعد الى لوسيب وديموقريط والانسكلوبيديين الفرنسيين وفيورباخ ، الا ان هذه المصادر التي استقى منها الفكر الماركسي بقيت في حدود نزعة مادية بدائية اخذ عليها ماركس وانجلز ما يلي :

١ ـ انها لا تعرف سوى شكل واحد من اشكال حركة المادة ، هي الحركة الميكانيكية ، وانها تحاول ارجاع كل ميادين الطبيعة بما فيها الحياة والمجتمع ، الى سياق ميكانيكي .

٢ ـ انها ذات طابع ميتافيزيكي ينظر الى الطبيعة على انها مجموعة متنوعة من الاشكال النهائية الثابتة .

٣ ـ انها اكتفت بتفسير الطبيعة من وجهة نظر مادية ولم تعمم ذلك على التاريخ، فبقيت تعتبر الافكار القوة التي تحدد تطور المجتمع .

فالمادية الجدلية تجاوزت هذه المادية البدائية بوضعها المفهوم المادي للتاريخ ، وبفضل اعتمادها على الطريقة الجدلية .

كما تجاوزت المفهوم المثالي عن العالم لدى الاشتراكيين امثال سيمون وفوريه وبرودون واوين ، وجعلت من الاشتراكية مرحلة حتمية من المراحل الموضوعية لسير التاريخ لا مجرد تحقيق لمثل اعلى .

وتجاوزت ايضا نظرية الاقتصاد السياسي الانجليزية لدى (سمث وريكاردو) اللذين كانا ينظران الى النظام الراسمالي على انه حقيقة ميتافيزيكية وشكل خالد جامد من اشكال المجتمع البشري ، دون ان ينتبها الى الطابع المؤقت لهذا النظام .

من خلال هذا كله ، نستطيع ان نتبين خاصتين رئيسيتين للفلسفة الماركسية:

١ ـ الوحدة بين النظرية والممارسة .

٢ ـ الالتزام الفكري والعملي .

فحسب مفهوم كارل ماركس تكون البروليتاريا هي الطبقة التي تملك المستقبل. وتكون المصالح الذاتية للبروليتاريا (اي ظفر الاشتراكية) ، متطابقة مع السير الموضوعي للتاريخ . لذلك فان لينين في رده على بعض الماركسيين الروس يقول : «ان الماركسية تتضمن الالتزام والتحزب ، فنحن حين نحكم على اهمية ظاهرة ما ، ننظر اليها مباشرة من خلال وجهة نظر فئة اجتماعية محددة» . وهذا هو ما يحول دون المفكر البورجوازي ودون رؤية حركة التاريخ وبالتالي دون فهم العالم فهما صحيحا . فالبورجوازية التي ينصرف همها الى الابقاء على النظام الراهن للعالم تجنح باتجاه عقلية ميتافيزيكية تتجاهل الحقائق الموضوعية التي تسير ضد مصالحها، وتحاول ان تسخر فكرها لكي تغطي وتبرر استغلال الجماهير الكادحة .

لذلك فان الفلسفة الماركسية هي فلسفة الطبقة الكادحة ، وهي لا تستطيع ان تتصور امكانية قيام فلسفة حيادية وغير متحزبة . لان كل نظرية في رايها تعكس مصالح هذه او تلك من الطبقات ولا بد الا ان تكون متحزبة .

والتحزب الوحيد المشروع هو التحزب للبروليتاريا بسبب تطابق مصالحها الذاتية مع التطور الموضوعي للواقع . فمشكلة الحقيقة بالنسبة للفلسفة الماركسية ليست مشكلة هامة في ذاتها ، ولا تصبح هامة الا بمقدار ما تسمح بالعمل المجدي الفعال . لذلك فانها ليست عقيدة بل هي دليل للعمل . وينجم عن هذا المبدأ ان الماركسيّة ليست ذات طابع جامد مطلق ، بل هي قابلة لان تكمل بمعارف جديدة مستمدة من التجارب الجديدة . على ان هذه التجارب الجديدة لا يمكن ان تؤول الى رفض المضامين الاساسية للنظرية الماركسية ، بل تضع المبادىء الماركسية موضع التطبيق العملي وتغنيها بالمزيد من التكيف مع الاوضاع والمعطيات الجديدة في الازمنة الحديثة ، وتسمح لطبقة البروليتاريا ان تجابه بسرعة كل موقف جديد، وان تستبق الخطوط العامة للتطور المقبل . وبذلك تشكل الماركسية الاساس العلمي لسياسة مؤزرة بالنصر ، قائمة على معرفة القوانين الموضوعية لتطور التاريخ .

ان الفلسفة الماركسية ترى اخيرا ان المبادىء الاساسية التي تنطلق منها لا تصح فقط على التطور الاجتماعي ، بل تنطبق على تطور الطبيعة وتطور الفكر البشري على الصعيدين العلمي والفني .

ثنائية المادية والمثالية :

ان القضية الاساسية في كل فلسفة وخاصة في الفلسفة الحديثة ، كما يقول انجلز ، هي قضية العلاقة بين الكائن وبين الفكر . فالفلاسفة الذين قالوا باسبقية الفكر على الطبيعة ، يشكلون معسكر (المثالية) . اما الذين اعتبروا الطبيعة العنصر الاولي الاصيل ، فقد ارتبطوا بالمدرسة (المادية) في مختلف اشكالها . فبالنسبة للنزعة المادية يشكل الكائن والطبيعة العنصر الاول ، اما الفكر فهو مظهر من مظاهر هذا العنصر الاول ومشتق من مشتقاته . اما بالنسبة للمثالية فيحتل الفكر المكان الاول .

وهكذا فان لكل من المادية والمثالية معنيين : فكلمة (مادية) لها مدلولان : فهي يمكن ان تعني (النظرية التي تقول بأن الطبيعة هي التي تولد الفكر) ، ويمكن ان تعني (نظرية المعرفة التي تقول بأن موضوع المعرفة ، (اي الوجود المستقل عن الفكر) ، هو الذي يحدد فعل المعرفة اي الفكر) .

كما ان كلمة (مثالية) يمكن ان تعني النظرية التي بموجبها يلد الفكر الطبيعة ، كما تعني ايضا النظرية التي تقول بأن الكائن (اي موضوع المعرفة) انما يتحدد بفعل المعرفة اي بالفكر .

ان الايديولوجية الماركسية ترجع جميع الفلسفات الى زمرتين : المثالية والمادية، وتلحق بهما احدى خاصتين : الجدلية او الميتافيزيكية . فكل فلسفة تعتبر الاشياء من خلال حركتها وسياقها وتناقضاتها ، هي فلسفة جدلية . وعلى العكس فان كل

فلسفة لا بد ان تكون ميتافيزيكية عندما تنظر الى الاشياء معزولة عن بعضها وثابتة لا تتحول .

وهكذا يمكن ان نعثر حسب تصنيف الفلسفة الماركسية على اربعة نماذج من الفلسفة : المثالية الميتافيزيكية والمثالية الجدلية ، والمادية الميتافيزيكية ، والمادية الجدلية . اما الفلسفة (البورجوازية) المعاصرة باتجاهاتها الرئيسية الثلاثة : الوجودية والوضعية والتومائية (١) الجديدة ، فهي تندرج تحت مفهوم الفلسفة المثالية .

مفهوم المادة :

نجد انفسنا داخل العالم الذي يحيط بنا ، امام اشياء حية واشياء ميتة ، بعضها صلب وبعضها رخو ، منها ما هو ضئيل ومنها ما هو ضخم عات ، تؤلف بمجموعها ما نسميه الطبيعة . فعلى الرغم من تنوع هذه الاجسام الطبيعية ، فانها تملك خطا عاما مشتركا يجمعها وهو كونها موجودة وجودا مستقلا عن الشعور وخارجا عنه ، اما شعور الانسان ووعيه فقد وجدا في مرحلة من مراحل تطور الطبيعة ، وهما في رأي الماركسية نتاج الطبيعة نفسها لذلك فان الفلسفة الماركسية تقول باولوية المادة على الشعور والوعي .

ولكن ما هي هذه المادة ؟

لقد ميز ماركس بين اتجاهين داخل النظريات المادية للقرن الثامن عشر : الاتجاه الاول يصدر عن (ديكارت) ويحمل تصورا آليا ميكانيكيا عن العالم . والآخر ، تيار اجتماعي يتعلق (بجون لوك) يؤكد على اهمية البيئة وعلى الاصل المادي للاحساسات والافكار . وماركس يعتبر نفسه مكملا لهذا التيار الاخير . فيؤكد أولوية الاختبار المحسوس القائم على العلاقة الجدلية بين الانسان والطبيعة . وفي عهد ماركس وانجلز مؤسسي الماركسية ، لم يكن مفهوم المادة يثير اشكالا . فعلوم الطبيعة في ذلك العصر كانت تعتبر المادة مؤلفة من جواهر ساكنة غير متحركة وغير قابلة للانقسام او للاختراق . بيد ان تطور العلوم الطبيعية وخاصة فيما يتعلق بالنظائر المشعة ، قد كشف عن ان الجواهر نفسها مؤلفة من جزئيات هي الالكترونات ، وقد قاد هذا الاكتشاف الى المضي في دراسة تركيب المادة والى التوصل الى اكتشاف مكونات اصغر من الالكترونات ، وبالتالي الى ارجاع تركيب المادة الى طاقات لا تحمل من الاوصاف المادية المألوفة شيئا . فكان لا بد ان يؤدي ذلك الى خلق ازمة في قلب النزعات المادية الفلسفية . وان يثير هذا الاتجاه لاعادة النظر في مفهوم المادة اهتمام لينين ، وان ينصرف المفكرون الماركسيون الى ايجاد تعريف جديد للمادة .

ففي كتابه (المادية والنزعة الاختبارية النقدية) ، ينطلق لينين من ان التطور الحديث في الفيزياء قد يشكل خطرا على (المادية الميتافيزيكية) التي تطرح مشكلة الجوهر الصميمي والساكن للمادة وليس على (المادية الجدلية) التي لا تفتش عن ماهيات جامدة ، بل تفهم العالم على انه حركة مستمرة دائمة تخضع لتبدلات ثابتة.

---

١ - اي الفلسفة التي تعتمد على نظريات (توما الاكويني) .

لذلك فان لينين يعتبر ان كل مبدأ علمي خاص بتركيب المادة وخواصها لا يملك الا قيمة نسبية وتقريبية ، ويعرف المادة على الشكل التالي :

«ان المادة مقولة فلسفية من شانها ان تحدد الحقيقة الموضوعية كما تبدو للحواس وتؤثر عليها» وهذه المادة تؤخذ في حقيقتها المتحركة لا في مظهرها الساكن. لان الحركة هي احدى الخواص الرئيسية الهامة للمادة ، فهي تنطوي على جزئيات في حالة حركة دائمة . والاجسام توجد على الارض التي هي في حالة حركة دائمة ودوران حول الشمس التي تتنقل بدورها مع مجموعة النظام الكوكبي . فالحركة ليست صفة عرضية للمادة بل هي خاصة نوعية من خواصها ، بل هي الصفة الازلية لوجود المادة .

والمادية الديالكتيكية لا تكتفي بتعريف الحركة بانها مجرد التبدل في المكان ، بل تعتبرها كما اعتبرها ارسطو ، بانها على وجه العموم (كل تحول يطرا) . فهناك الى جانب الحركة الميكانيكية (اي التحول في المكان) ، الحركة الفيزيائية (داخل الجوهر)، والحركة الكيماوية (التفاعلات) ، والحركة البيولوجية (العضوية) ، والحركة الاجتماعية (العلاقات الاجتماعية وتاريخ المجتمع البشري) . وهذه الاشكال المختلفة تشكل وحدة لا تنفصم لدى الكائن الحي .

اذن فالمادة والحركة تشكلان وحدة لا تنفصم في نظر المادية الجدلية .

اما الخاصة الرئيسية الثانية للمادة ، فهي (لا نهائيتها) ، فالمادة لا متناهية ، وليس مبدأ انحفاظ الكتلة وانحفاظ الطاقة في نظر المادية الجدلية سوى تعبير علمي وتأكيد لنظرية ازلية المادة والحركة .

ثم ان الخاصة الثالثة التي تميزها المادية الجدلية تتلخص في كون المادة (غير قابلة للنفاذ) .

اما مفهوما الزمان والمكان ، فياخذان في المادية الجدلية تعريفا يختلف عن تعريف (نيوتن) الذي نظر الى العالم كشيء حقيقي في ذاته ويختلف ايضا عن تعريف (كنت) الفيلسوف الالماني الذي اعتبر الزمان والمكان شيئا ذاتيا محضا ، اي مظاهر ذاتية للتصورات . فالزمان والمكان حسب المادية الجدلية «مظهر من مظاهر وجود المادة ذات الحقيقة الموضوعية» ، وهما يتمتعان بخاصتي (الموضوعية واللاتناهي) . كما انهما ليسا مجرد مظهر من مظاهر وجود المادة وحدها ، بل ومن وجود كل كائن ايضا .

ان مفهوم المادة حسب المادية الجدلية ، يجعل منها وجودا مستقلا لا عن الشعور الفردي وحده ، بل عن كل شعور بوجه عام . وهو يلتزم مفهوم الوحدة المادية للعالم. فالعالم واحد ، وعالمنا المادي في نظر المادية الجدلية هو وحده الموجود . فهي من جهة تنكر الثنائية ، وهي من جهة ثانية لا تعترف بوجود ما ليس ماديا .

المادة والوعي :

وقعت المادية العامية في خطأ اساسي عندما نظرت الى الحياة الانسانية والى

الوعي على انهما مجرد تفاعلات كيمياوية . لان الحياة والوعي لا يمكن ارجاعهما في نظر المادية الجدلية ، الى الكيمياء وحدها . فالوعي نسيج تفاعلات معقدة تقوم على تشابك الاحساس والادراك والتصور والفكر والعاطفة والارادة ، وهو نتاج «لا مادي» ووظيفة من وظائف المادة الدماغية المعقدة التركيب .

ان المادة هي الاصل والاساس ، والوعي هو نتاج الطبيعة وخاصية المادة ذات التركيب العالي . فهو خاصية الدماغ ، الا انه لا مادي . فالفعالية النفسية تتوقف على وجود الفعالية العضوية الراقية ذات الجهاز العصبي، الا انها ليست شيئا ماديا.

هكذا تتميز المادية الجدلية عن المادية العامية ، كما تتميز عن المثالية في آن واحد . فنظرية الشعور حسب المادية الجدلية لا تختلف فقط عن النظرية المثالية على اختلاف مدارسها ، بل تعارضها . ذلك ان المثاليين لا يكتفون باعتبار الشعور شيئا لا ماديا ، بل يذهبون الى اعتباره مظهرا من مظاهر جوهر لا مادي هو النفس. والحالة الشعورية في رأيهم ذات وجود مستقل عن الدماغ فهي ليست نتاجا له . وهو اداتها للتعبير عن ذاتها وليس مولدا لها .

ان المادية الجدلية باعتبارها الوعي نتاجا للمادة الدماغية المعقدة ، قد عارضت المفاهيم المثالية ، كما عارضت في الوقت نفسه المفاهيم المادية الاخرى التي تعتبر الشعور كالحركة صفة ازلية من صفات المادة ، او التي تعتبر الشعور بالنسبة للدماغ أشبه بعصارة الصفراء بالنسبة الى الكبد . فالوعي بالنسبة للمادية الجدلية مرتبط بشكل وثيق بالوسط المادي الذي يحيط بالانسان ، فالدماغ وحده لا يكفي للقيام بوظيفة الوعي . وكما ان الوعي لا يمكن ان يوجد مستقلا عن المادة ومنفصلا عنها ، فانهما في نظر المادية الجدلية غير متطابقين ايضا .

لقد انتقدت المادية الجدلية ايضا النظرية التي تربط الوظائف النفسية بمراكز متعددة في الدماغ ، لانها تتجاهل وحدة العمل الدماغي وفعاليته التركيبية ، ولانها تنتهي الى اقامة نوع من التوازي النفسي ــ الجسدي ، وتنظر الى الفعاليات النفسية على انها مجموعة من العلاقات المستقلة التي لا تتطابق مع العمل الدماغي الا مطابقة آنية ومكانية .

فالمادية الجدلية تلوذ بنظرية العالم الروسي بافلوف لتؤكد ان الظواهر النفسية هي نتاج التآزر بين عمل مجموع الدماغ وبين مختلف اجزاء الدورة الدماغية . اما بصدد (ماهية الشعور) ، فان المادية الجدلية تعتبر ان الارتباط الداخلي بين الوعي وبين المادة لا يجيز اعتبار الوعي شيئا ماديا كما يؤكد الماديون العاميون . فقد رفض لينين اعتبار الوعي شيئا ماديا . وفي كتابه (المادية والنزعة الاختبارية النقدية) ، اعطى لينين للمادة التي هي حقيقة موضوعية، وجودا مستقلا عن الاحساس والشعور. الا ان ذلك لم يوقعه في الثنائية ولم يبعده عن نظرية وحدة العالم ، لان لينين قد حصر هذا التقابل بين المادة والشعور داخل حدود نظرية المعرفة ، اما من الناحية الانتولوجية فان هذا التقابل غير وارد .

اما مصدر الوعي ، فان المادية الجدلية ترده الى منبعين : العمل واللغة . ذلك

ان هناك خاصية عامة ملازمة للمادة هي الانعكاس . اي انها تستطيع اعادة تنظيم نفسها داخليا تجاه التاثيرات الخارجية والرد عليها . ووعي الانسان هو نتيجة للنشاط العملي وللتطور التاريخي الاجتماعي الذي انتج الوعاء المادي للافكار ، اي اللغة .

الجدل المادي :

ان الحركة في نظر المادية الجدلية صفة ملازمة للمادة ، وهي حركة صاعدة تبدأ بالظواهر الاولية البسيطة لتنتهي الى ظواهر معقدة عالية . وهذا التطور في عرف الفلسفة الماركسية يتم بشكل عفوي دون تدخل ارادة عليا، وهو يمر عبر مراحل ثلاث:

١ ـ المرحلة الدنيا ، وهي مرحلة المادة غير الحية ، واليها تنسب الحركة الميكانيكية والكيميائية والفيزيائية .

٢ ـ مرحلة الكائنات الحية التي تحددها الحركة البيولوجية .

٣ ـ المرحلة العليا ، وهي المرحلة الاجتماعية التي تمتلك الشكل الاجتماعي للحركة . كما ان الشعور الذي هو النتاج الاسمى للمادة المتعضية الراقية ، ينتسب بدوره الى هذه المرحلة .

ان المرور من مرحلة من هذه المراحل الى مرحلة اعلى منها ، يتميز بظهور عنصر جديد لا يمكن ارجاعه الى العناصر التي هي دونه في المرتبة . وهكذا فان الكائن الحي لا يمكن تفسيره على ضوء القوانين الكيميائية والفيزيائية وحدها . لان الانتقال من مرحلة دنيا الى مرحلة عليا يتم على شكل تطور نوعي . وقد وجدت المادية الجدلية في الديالكتيك حلا للصعوبة التي يمكن ان تنشأ عن هذا التفسير للمراحل التي يتم خلالها تطور المادة .

ان اصل كلمة الجدل (الديالكتيك) في اللغة اليونانية تعني تبادل وجهات النظر. فالاخذ والرد في النقاش قد ينتهي بالطرفين المتقابلين الى نتيجة جديدة تتجاوز الرايين المتعارضين . **وقد لاحظ كارل ماركس ظاهرة مماثلة في مجال التطور الاجتماعي ، فالصراع الطبقي بين البروليتاريا وبين البورجوازية سيؤدي بالضرورة الى قلب النظام الراسمالي ، وبالتالي الى التطور والتقدم الاجتماعي . وقد وجد انجلز في هذا القانون الذي وضعه كارل ماركس ، قانونا عاما لا ينطبق على الميدان الاجتماعي وحده ، بل ينطبق على الطبيعة ايضا . اي انه يشكل قانونا اساسيا ينطبق على الحقيقة في مجموعها . وهكذا ولدت (المادية الجدلية) .**

فبالجدل تميز المادية الجدلية نفسها عن المادية العامية البدائية . لان المادية العامية (الميكانيكية) لا تميز في العالم بين ظواهر (دنيا) وظواهر (عليا) . وبالجدل المادي تميز الفلسفة الماركسية نفسها عن الفلسفة الهيجلية ، لان الجدل في نظرها ليس مجرد حركة الفكر ، بل هو قانون التطور العام للكائن ، اي للمادة . وهو يقدم

الوسائل الكفيلة بتفسير التطور المعقد والمتنوع الاشكال للعالم الموضوعي .

ان المادية الجدلية تميز ، بين ديالكتيك موضوعي وديالكتيك ذاتي :

فالجدل الذاتي (الخاص بتطور المفاهيم العقلية) هو انعكاس للجدل الموضوعي (الخاص بتطور الكائن نفسه) .

اما قوانين الجدل المادي ، فقد صاغها انجلز في الثلاثة الآتية :

١ ـ قانون الانتقال من الكمية الى الكيفية ، والعكس .
٢ ـ قانون تفسير المتناقضات .
٣ ـ قانون نفي النفي .

وقد بقيت هذه القوانين اداة التفسير في يد المادية الجدلية حتى ظهور كتاب ستالين (المادية الجدلية والمادية التاريخية) عام ١٩٣٨ . وفي هذا الكتاب ، يصوغ ستالين اربعة عناصر للطريقة الجدلية الماركسية :

١ ـ قانون الالتحام العام بين الظواهر .
٢ ـ قانون الحركة والتطور في الطبيعة والمجتمع .
٣ ـ قانون التحول من التبدلات الكمية الى التبدلات الكيفية .
٤ ـ قانون صراع المتناقضات .

فقانون (وحدة وصراع المتناقضات) يكشف مصادر التطور وقواه المحركة . وقانون (تحول التغيرات الكمية الى كيفية) يشير الى التبدل الثوري الذي يحدث على شكل قفزات والى التحول المستمر للتغيرات الكمية الى كيفية جذرية . وقانون (نفي النفي) يظهر الطابع الحلزوني الدائب للتطور .

الحتمية والحرية :

عندما يدرس الجدل الحركة في المادة ، اي التحول في العالم ، يكتشف وجود علاقات عامة بين الظواهر . ويطلق على هذه العلاقات العامة في الفلسفة اسم (المقولات) **Les Catégories** . ان اهم هذه المقولات في المادية الجدلية هي : العلة والمعلول ، القانون ، الضرورة والصدفة ، الواقع والامكان ، الحتمية .

والمادية الجدلية تميز الى جانب الشكل الميكانيكي للسببية **Causalité** حيث تشكل العلة عنصرا خارجيا بالنسبة الى المعلول ، اشكالا أخرى من السببية ، كتلك التي نلاحظها في علوم الحياة والنفس والاجتماع ، والتي لا تنطبق عليها الحتمية الميكانيكية **determinisme Mécanique** لان الحركة في هذه الميادين تأخذ شكل تطور معقد ، ولان المعلول يحتوي على عنصر جديد غير موجود في العلة. يضاف الى ذلك ان المادية الجدلية تنفي امكانية تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية بقوى ميتافيزيكية ، وترد جميع الظواهر الى التفسير السببي . وهكذا تصل الى (مقولة)

القانون ، التي هي العلاقة الضرورية بين الظواهر . فالقوانين التي تهيمن على الطبيعة ذات طابع موضوعي مستقل لا عن ارادة الانسان فحسب ، بل وعن كل شكل من أشكال الوعي ايضا . فالضرورة تنشأ من جوهر الظاهرة المتطورة وطابعها الداخلي، وتكون دائمة وثابتة بالنسبة للظاهرة المعنية . فبالضرورة يعقب النهار الليل ، والاشتراكية الراسمالية .

لذلك فان المادية الجدلية تقول بمبدأ الحتمية دون ان تتوقف عند الحتمية الآلية التي تحاول ان ترجع كل علاقة الى علاقة ميكانيكية ، والى علاقة ضرورية وتنكر الصدفة .

فالحتمية الماركسية تقبل الصدفة **Le hasard** على خلاف الحتمية الميكانيكية. وبدل ان تفسر الصدفة بانها الحادثة التي لا سبب لها ، وبالتالي تنكرها ، اعطت المادية الجدلية للصدفة تفسيرا آخر : فهي نتيجة لالتقاء عفوي بين سلسلتين او اكثر من الاسباب (١) .

اذن فالعلاقة النسبية بين الظواهر يمكن ان تأخذ طابع الضرورة **Necessité** كما يمكن ان تأخذ طابع الصدفة . وفي نظر المادية الجدلية لا يجوز ان نقيم تعارضا قاطعا ميتافيزيكيا بين مقولتي الضرورة والصدفة . فالصدفة يمكن ان تخترق الضرورة كما هي الحال في نظرية (الانتقاء الطبيعي) التي قال بها داروين حيث تلعب الصدفة دورا في اكتساب بعض الخواص الجديدة بالنسبة الى العضوية . فالضرورة والصدفة مترابطتان جدليا . والصدفة تكمل الضرورة وتمثل شكل ظهورها . اما بصدد مقولة (الحرية) ، فان المادية الجدلية ترفض اولا كل محاولة لاظهارها مع مقولة (الضرورة) على أنهما مقولتان يقوم بينهما تعارض ميتافيزيكي تنفي بموجبهما احداهما الاخرى .

ثم ان المادية الجدلية لا تنكر حرية الارادة الانسانية ، ولكنها في الوقت نفسه لا تقر استقلال هذه الارادة بالنسبة لقوانين الطبيعة ، وترى ان هذه الارادة تأتي نتيجة لمعرفة هذه القوانين .

وقد جرى الايديولوجيون الماركسيون على اعتبار ما كتبه انجلز في كتابه، **L'Anti - During** ممثلا لوجهة نظر المادية الجدلية في موضوع الحرية . يقول انجلز : « لقد كان هيجل اول من صوّر العلاقة بين الحرية والضرورة تصويرا ملائما . فالحرية في نظر هيجل هي «حدس الضرورة» . والضرورة لا تكون عمياء الا بمقدار ما نعجز عن فهمها . لذلك فان الحرية هي معرفة استخدام القوانين لاغراض محددة . وهي تتجلى في سيطرتنا على انفسنا وعلى الطبيعة سيطرة تستند الى معرفة الضرورات الطبيعية . فهي اذن نتاج التطور التاريخي» .

ان التطور التاريخي للحرية تم في نظر الماركسية ــ اللينينية على النحو التالي:

---

١ - وهذا التعريف يلتقي بتعريف العالم الفرنسي كورنو **A. Cournot**

في مطلع التاريخ ، كان الانسان عبدا للطبيعة . الا انه تحرر من هذه العبودية عندما اكتشف قوانين الطبيعة ووضعها في خدمته . الا ان الانسان ما لبث ان وقع تحت عبودية جديدة ، هي عبودية المجتمع . فتطور الملكية الخاصة ادى الى نشوء مجتمع الطبقات الذي يكشف عن اقسى انواع العبودية في ظل النظام الراسمالي . وكما ان معرفة قوانين الطبيعة هي التي ساعدت الانسان على التحرر من عبوديتها، كذلك فان معرفة قوانين التطور الاجتماعي التي وضعت الماركسية يدها عليها هي الكفيلة بتحرير الانسان من هذه العبودية الجديدة . فالثورة الاشتراكية التي تؤدي الى الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هي التي سوف تحرر الانسان من الاستغلال وتمكنه عن طريق استخدام قوانين التطور الاجتماعي ، من السيطرة على الطبيعة وعلى المجتمع . والحركات الثورية التي تعمل في اتجاه التطور التاريخي تساهم في تسارع حركة التاريخ .

وهكذا تحل المادية الجدلية مشكلة التعارض بين الحرية والضرورة ، وترى ان الضرورة هي الشرط الاساسي للحرية ، طالما ان الحرية لا يمكن ان تقوم الا على معرفة الضرورة . وتعرف الحرية بانها (وعي الضرورة) . فتحول الامكانية الى واقع يتم في الطبيعة بشكل عفوي ، بلاوعي . اما في المجتمع فان وعي الناس ونشاطهم الفعال الهادف على اساس القوانين المعروفة ، يشكل شرط تحويل الامكانية الى واقع . فالسلام يتحقق بنضال القوى المحبة للسلام في العالم .

نظرية المعرفة :

في كل فلسفة ، تطرح مشكلة رئيسية هامة حول علاقة الكائن بالفكر ، وعلاقة الفكر بالطبيعة . وقد طرحت هذه المشكلة على (انجلز) في صورتين :

١ ـ الصورة الاولى تدور حول المشكلة الانتولوجية وهي تتلخص في مشكلة الاولوية اي الاسبقية في الوجود : هل الفكر ولد الطبيعة ام ان الطبيعة هي التي ولدت الفكر ؟

٢ ـ الصورة الثانية تتعلق بمشكلة المعرفة ، اي بامكانية الفكر البشري : هل فكرنا على مستوى القدرة على معرفة الحقيقة ، وهل تعكس تصوراتنا وافكارنا الحقيقة الواقعية بامانة ؟ فكيف اجابت المادية الجدلية على هذين السؤالين ؟

ان المادية الجدلية تقول بوحدة (الجدل والمنطق ونظرية المعرفة) . فالديالكتيك بالنسبة الى انجلز هو (علم القوانين العامة لحركة الطبيعة والمجتمع والفكر) . واذا كان (المنطق) يهتم بصحة الروابط الضرورية بين محتويات الفكر ، وكانت (نظرية المعرفة) تهتم بتطابق الفكر مع الحقيقة ، فان لينين يرى بأن الديالكتيك هو منطق المعرفة ونظريتها في آن واحد .

وهكذا فان ديالكتيك المفاهيم والافكار يعتبر انعكاسا واعيا للحركة الديالكتيكية للعالم الواقعي ، كما ان الممارسة العملية تتدخل في سياق المعرفة كعامل مكوّن لها في نظر الماركسية . فالمعرفة هي انعكاس فعال هادف للعالم المادي ولقوانينه في عقل

الانسان . والتطبيق العملي والنشاط الانتاجي المادي هو اساس المعرفة ونقطة الانطلاق فيها. ووحدة النظرية والتطبيق هي المبدأ الاسمى للماركسية — اللينينية. ووحدة الحسي والمنطقي هي قوام عملية المعرفة .

من هذه الزاوية تنظر المادية الجدلية الى الفلسفات التي سبقتها نظرة نقدية ، فترى ان هذه الفلسفات قد ارتكبت خطأين رئيسيين :

١ — الخطأ الاول يتركز في كونها درست الاشكال الصورية للفكر مستقلة عن محتوى الفكر .

٢ — اما الخطأ الثاني فيكمن في افتراضها الانسان الفرد العارف معزولا عن السياق التاريخي للانسانية .

لذلك فان المادية الجدلية ترى بأن المنطق الصوري **La logique Formelle** يجب أن يكتمل بالمنطق الجدلي ، لان المنطق كما يرى لينين (ليس هو نظرية الاشكال الخارجية للفكر ، بل هو نظرية قوانين تطور جميع الاشياء المادية ، الطبيعية والروحية) . كما ان المنطق الجدلي لا يقصر اهتمامه على صحة الفكر بل يهتم ايضا بصدق الفكر وبأمانته في التعبير عن الواقع .

ان كل معرفة تبدأ في نظر المادية الجدلية من الحواس ، والاحساسات في نظرها انعكاس للاشياء الموجودة موضوعيا . فهي كما يقول لينين : (صورة ذاتية للعالم الموضوعي). ثم تطورت من خلال تبادل التأثير فيما بينها وبين الوسط المحيط بها ، الى ادراك حسي ، ثم الى معرفة منطقية . ذلك ان الاحساسات والادراكات لا تعكس سوى الظواهر الخارجية السطحية ، اما الفكر فينفذ بفضل المفاهيم المجردة الى طبقات أعمق حتى يصل الى ماهية الاشياء ، عن طريق التحليل والتركيب .

ان فعل المعرفة الذي يبدأ بالملاحظة المشخصة لا يكتمل بمجرد الانتقال من المشخص الى المجرد ، لان المراحل الديالكتيكية للمعرفة تتضمن مرحلة ثالثة هي مرحلة انتقال الفكر المجرد الى التطبيق العملي . فالمعرفة الحسية والمعرفة العقلية ترتبطان كلاهما بالمعرفة العملية . اذ ان معرفة الاشياء تعني معرفة استعمالها . لذلك فان دقة الاحساسات تسير جنبا الى جنب مع تقدم الانتاج والتكنيك . كما ان تطبيق المعرفة هو هدف المعرفة وهو معيارها . فالعلوم لم تنشأ الا لتجيب على حاجات عملية . وبما اننا نعيش في عالم الصيرورة لا في عالم ساكن جامد ، فان معرفة الانسان تتطور باستمرار ، وفي كل مرحلة من مراحل التاريخ ، يجد الانسان ان معارفه ناقصة لم تكتمل ، وان الاخطاء تشوبها . فهي معرفة نسبية متطورة تتم ضمن اطار حقيقة مطلقة هي الحقيقة الموضوعية بكاملها ، وانعكاس الواقع ، المضبوط بشكل مطلق . والفكر البشري كما يقول لينين ، قادر بطبيعته على اعطائنا الحقيقة المطلقة التي تتكون من مجموع الحقائق النسبية . فالقول بأن المادة هي الاولى والوعي هو خاصية الدماغ ، وان الحياة نتيجة لتطور المادة ، هو تعبير عن تصورات ذات طابع ثابت مطلق . ومعرفة الانسان هي مطلقة ونسبية معا .

تلك هي الخطوط الرئيسية لنظرية المادية الجدلية ، ننتقل بعدها الى نظرية المادية التاريخية .

الفصل الثالث

نظرية المادية التاريخية

نظرية وطريقة :

بعد ان انتهينا من عرض (المادية الجدلية) ، ننتقل الى النظرية الثانية التي تشكل الدعامة الاساسية للماركسية ، وهي المادية التاريخية Materialisme Historique . ان هذه النظرية تاتي حسب التسلسل المنطقي في عرض محتوى الفكر الماركسي بعد المادية الجدلية . اما بالنسبة للتسلسل التاريخي ، فانها تاتي قبلها ، ذلك لان ولادتها قد سبقت المادية الجدلية باكثر من عشر سنوات .

عندما عرضنا (للمادية الجدلية) ، رأينا انها تدرس القوانين الموضوعية الضرورية العامة للحقيقة الواقعية في مجموعها . وهذه الحقيقة تتألف من : الطبيعة والتاريخ والانسان . اما (المادية التاريخية) فهي تتناول جانبا من هذه الحقيقة الواقعية وهو (التاريخ) . وتحاول ان تجيب على السؤال التالي : ما الذي يحدد سير التاريخ ، وهل يخضع لقوانين موضوعية ضرورية ، ام انه من صنع الصدف العمياء ؟ ان المادية التاريخية تدرس اذن (التطور العام الكلي للمجتمع) . انها تدرس المجتمع من خلال التحولات التاريخية التي تطرأ عليه . وهي تنظر الى المجتمع نظرتها الى عضوية حية في حالة تطور دائم ، تربط ما بين الافراد في داخلها بروابط اقتصادية وسياسية وثقافية متنوعة . من بين هذه الروابط ، تبرز الماركسية الروابط المادية للانتاج وتعتبرها في نهاية التحليل عوامل حاسمة ، تلعب دور الموجّه والمحدد للروابط الاخرى . وهي بذلك لا تعتبر نفسها مجرد نظرية جديدة في تفسير التطور الاجتماعي ، بل تعتبر انها سمحت لاول مرة في التاريخ بتفسير علمي لهذا التطور .

فهي لا تدرس المجتمع بصورة مجردة معزولا عن التاريخ ، بل تنظر اليه من خلال

المرحلة التي يجتازها من تطوره التاريخي ، اي من خلال نمط الانتاج والعلاقات الانتاجية المحددة والمؤسسات الاجتماعية والافكار الخاصة بهذه المرحلة . فالمجتمع لا يستطيع ان يقفز من فوق هذه المراحل ، كما لا يستطيع ان يرفضها ، لانها مراحل طبيعية تعكس قانون التطور الاجتماعي . لذلك فان موضوع المادية التاريخية هو دراسة المجتمع وقوانين تطوره . وهي تنطلق من الموضوعة الرئيسية القائلة : (الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي) . اي ان الحياة المادية للمجتمع هي التي تحدد الحياة الفكرية . وان الصناع الحقيقيين للتاريخ هم الجماهير الشعبية ، جماهير الشغيلة .

ان القول بالضرورة التاريخية Necessité Historique لا يتنافى في راي المادية التاريخية مع وجود الحرية . ذلك لان حوادث التاريخ تختلف عن الحوادث الطبيعية التي تجري بصورة مستقلة عن ارادة البشر في حين ان البشر هم الذين يصنعون تاريخهم . ومعرفة الانسان للضرورة التاريخية هي التي تسمح له بان يصنع بوعي تاريخه الخاص . والحرية ليستسوى ضرورة واعية، اي مدركة ادراكا واعيا.

ان الماركسية تعتبر المفهوم المادي للتاريخ ثورة في تاريخ علم الاجتماع . وعلى الرغم من ان فلسفة التاريخ عند هيجل والاقتصاد السياسي الانجليزي التقليدي ومحاولات المؤرخين الفرنسيين والانجليز بعد الثورتين الانجليزية والفرنسية ، قد ساهمت جميعها في تكوين المادية التاريخية ، الا ان تعاظم التناقضات الاجتماعية وولادة الطبقة العاملة هي التي تعكس الشروط الاجتماعية لولادة هذه النظرية على يد كارل ماركس وفريدريك انجلز ، اللذين اعتبرا قانون الصراع الطبقي والثورة الاجتماعية المحرك الاساسي للتاريخ .

ان الماركسية تعتبر المادية التاريخية نظرية وطريقة في آن واحد . فهي من جهة تقدم المعلومات عن القواعد العامة لتطور التاريخ ، وهي من جهة ثانية (طريقة) تسمح باكتساب معارف تاريخية جديدة .

المفهوم المادي للتاريخ :

ان النواة الاساسية للمادية التاريخية تدور حول الافكار الرئيسية التالية :

١ ـ العامل المحدد للتطور التاريخي .
٢ ـ العلاقة الجدلية بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج .
٣ ـ نظرية القاعدة والهرم (البنى السفلى والبنى العليا) .
٤ ـ نظرية (التركيبات الاجتماعية ـ الاقتصادية الخمس) .

العامل المحدد للتطور التاريخي :

تصطدم (نظرية المادية التاريخية) معالمدارس الراهنة لعلمالاجتماع (البورجوازي)

لانها ، سواء تلك التي ترفض الحتمية التاريخية او تلك التي تعزو اساس التطور الاجتماعي للعامل النفسي أو البيولوجي او علم الاجتماع التجريبي او الميكروسوسيولوجيا ، تهمل جميعها الدور الحاسم للعامل المادي .

ان المجتمع البشري في نظر المادية التاريخية ليس سوى جزء من العالم المادي. كما ان الانسان ليس سوى جزء من الطبيعة . انه النتاج الاسمى لها . فالفرق بينه وبين الحيوان يكمن في أن الحيوان يتكيف مع الطبيعة تكيفا سلبيا فهو يتلقى منها ما هو جاهز لتأمين حاجاته . اما الانسان فعلى العكس ، يتكيف تكيفا ايجابيا مع الطبيعة بواسطة نشاطه ووعيه . فالعمل ، اي انتاج الخيرات الضرورية للحياة ، هو الذي يميز الانسان عن الحيوان . وبالعمل يصنع الانسان نفسه كما يقول انجلز . فالفعالية الانتاجية هي التي سببت تجمع البشر ونشوء اللغة ، وهي في نظر الماركسية اساس التطور الاجتماعي .

ثم ان الماركسية تعتبر النظريات التي راحت تفسر التحولات الاجتماعية بالعوامل الجغرافية والعوامل الديموغرافية (تكاثف السكان) محاولات بورجوازية تريد ان تدخل في روع العمال ان بؤسهم انما هو نتيجة لاسباب طبيعية تعود الى تكاثر السكان او غيرها لا الى الاستغلال . فلا المحيط الجغرافي ولا تكاثف السكان يلعب دورا حاسما في التطور الاجتماعي ، بل انتاج الخيرات المادية هو العامل المحدد لهذا التطور . لان دور العاملين السابقين يقتصر على التاثير على سرعة التطور الاجتماعي، تاثيرا ايجابيا او سلبيا لا اكثر .

ان تعبير (الانتاج) يحمل في راي ماركس معنيين :

١ ــ علاقة البشر بالطبيعة ، وهذه العلاقة تحددها (قوى الانتاج) .

٢ ــ علاقة البشر فيما بينهم ، ويعبر عنها (بعلاقات الانتاج) .

وهاتان الفئتان من العلاقة ، هما حجر الزاوية في المادية التاريخية .

ان قوى الانتاج **Les Forces productives** تعني اولا الوسائل والآلات التي يؤثر الانسان بواسطتها على الطبيعة . كما انها تعني بالاضافة الى الآلات ، البشر الذين يستخدمونها بفضل ما يملكون من معرفة ومن مهارة خاصة ومن تجربة مسلكية وتقاليد مهنية ومعارف اكتسبتها الاجيال المتتابعة . لذلك اعتبر كارل ماركس الطبقة الثورية اكبر قوة انتاجية .

اما علاقات الانتاج **Rapports de production** فهي مكمل ضروري لقوى الانتاج . ذلك ان البشر خلال عملية الانتاج لا يؤثرون فقط على الطبيعة ، بل يتبادلون التاثير فيما بينهم . فالماركسية تقصد بعلاقات الانتاج قبل كل شيء ، مجموعة الروابط الاقتصادية التي تقوم بين الناس ، كتقسيم العمل وشروط التبادل والبيع والشراء وتوزيع المنتجات . اما (بالمعنى الضيق) ، فان علاقات الانتاج تعني الروابط الاساسية التي تقوم بين البشر خلال عمليات الانتاج والتي تحدد جميع الروابط الاخرى للانتاج بما فيها علاقة البشر بوسائل الانتاج اي بشكل الانتاج ، اذ ان كل نمط من انماط روابط الانتاج يتحدد قبل كل شيء في نظر كارل ماركس

بشكل ملكية وسائل الانتاج . وهو يميز بين شكلين اساسيين للملكية : الملكية الخاصة والملكية الجماعية .

ففي الملكية الخاصة تاخذ العلاقات شكل تسلط وتبعية ، اما في الملكية الجماعية فتاخذ شكل تعاون وتآزر متبادل . وليس في وسع البشر أن يختاروا هذا النوع من علاقات الانتاج او ذاك ، لان ذلك يتوقف على درجة تطور القوى الانتاجية . لذلك فان كارل ماركس يعتبر قوى الانتاج وعلاقات الانتاج مظهرين لحقيقة واحدة هي أسلوب الانتاج **Le Mode de Production** .

العلاقات الجدلية بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج :

تنظر الماركسية الى الانتاج على انه سلسلة جدلية من العلاقات ، ووحدة جدلية بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، يتم في داخلها التأثير المتبادل بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج بشكل تصبح فيه كل واحدة منهما تتوقف على الثانية وتستلزمها .

ان قوى الانتاج تشكل العنصر الاكثر دينامية في هذه الوحدة الجدلية . لانها تمثل (محتوى) فعاليات الانتاج ، في حين ان علاقات الانتاج تمثل (شكلها) . والماركسية تعتبر ان علاقات الانتاج تتكوّن بشكل موضوعي مستقل عن ارادة ورغبة الناس . كما تنظر الى تطور الانتاج كضرورة موضوعية وكقانون للحياة الاجتماعية ، وان تاريخ المجتمع هو تاريخ تطور الانتاج .

واذا تابعنا تطور الانتاج ، نجد ان قوى الانتاج هي التي يطرأ عليها التبديل اولا . وذلك يسوق الى تبدل في العلاقات الاجتماعية . ويبدو ذلك لاول مرة في الانتقال من المجتمع البدائي الى مجتمع الرق ، عندما بدىء باستعمال الادوات المعدنية ، ثم في الانتقال من النظام الاقطاعي الى النظام الراسمالي ، عندما اكتشفت صناعة النسيج الميكانيكية والآلة البخارية .

ان قوى الانتاج تنمو وتتبدل بشكل مستمر ، في حين ان علاقات الانتاج تبقى على حالها فترة من الزمن . وعندما يقوم التناقض فيما بينهما وتتصدع الوحدة الجدلية ، وتصبح العلاقات الانتاجية عائقا في وجه التطور ، عندئذ يغدو العمل على ازالة هذا التناقض ضرورة حيوية للمجتمع الذي يجب ان يكيف علاقاته الانتاجية مع مستوى تطور قواه الانتاجية .

ذاك هو (قانون التوافق بين علاقات الانتاج وبين طابع القوى المنتجة) . فاذا كان تطور العلاقات الانتاجية مشروطا بتطور قوى الانتاج ، فباي شيء يرتبط تطور القوى الانتاجية ؟

في نظر المادية التاريخية ، لا يجوز ان نفتش عن العامل الذي يحدد تطور قوى الانتاج خارج عملية الانتاج نفسها . فلا الوضع الجغرافي كما ظن (بليخانوف) ، ولا تكاثر السكان كما تخيل (بوجدانوف) ، ولا تكاثر حاجيات السكان ، ولا حتى تطور

العلم كما ظن (كاوتسكي) ، يشكل العامل الحاسم في تحديد تطور القوى الانتاجية.

فالانتاج حركة مستقلة ، لها استقلالها الذاتي ، لذلك فان مصدر نموها يرجع اليها ذاتها ولا يمكن ان نلتمسه في عامل خارجي قد يساهم في عملية تطور قوى الانتاج الا انه لا يحدد هذا التطور .

ان التأثير المتبادل بين عناصر الانتاج وبصورة خاصة بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج هو العامل المحدد لتطور قوى الانتاج في المادية التاريخية . فعندما يوسع البشر خبرتهم الانتاجية ومهارتهم المسلكية يصلون الى تحسين ادوات الانتاج ، كما ان هذا التحسين في ادوات الانتاج ، يسوق بدوره الى رفع مستوى الكفاءات المهنية . هكذا يقوم التأثير المتبادل داخل قوى الانتاج (بين البشر وادوات الانتاج) ، ثم بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . فنظام الرق مثلا ، يعتبر رغم قسوته وفظاعته، خطوة متقدمة على المجتمع البدائي . فالعمل المشترك الذي كان يقوم به عدد كبير من العبيد كان يؤدي الى صنع آثار لا يستطيع انجازها عمال متفرقون بعضهم عن بعض.

الا ان امكانية تطوير مثل هذا النظام الاجتماعي بقيت محدودة ، لان العبيد ما كانوا من جهة مهتمين بهذا العمل ولا بالعناية بأدوات العمل ، ثم ان عملهم الرخيص الثمن كان من جهة ثانية يغني عن استثمار الاختراعات التقنية البسيطة التي كانت معروفة في القديم .

من هذه الزاوية ، نجد ان النظام الاقطاعي قد اعطى فرصا اكبر لتطور التقنية . فالقن ، كان يُعنى اكثر بأدوات العمل ، ثم ان الانتاج المهني المستقل الى حد ما عن العلاقات الاقطاعية ، قد شجع ايضا على تطور التقنية . الا ان هذا التطور بقي بطيئا في ظل النظام الاقطاعي .

اما في ظل النظام الراسمالي ، فقد اكتسبت التقنية تحت تأثير عامل الربح المسيطر على التفكير الراسمالي دفعا هائلا ، كما ازدادت الانتاجية بشكل كبير اعطى للراسمالية في بدايتها طابعا تقدميا بالنسبة للتطور الاجتماعي .

الا ان الراسمالية سريعا ما بلغت حدودها . فلم يصاحب المظهر الجماعي للانتاج ملكية جماعية لوسائل الانتاج ، وعزز التقدم التقني هذا التناقض حتى وصل استغلال العمال حدا يهدد مصيرهم تهديدا جماعيا .

اما النظم الاشتراكية التي تقوم على حل هذا التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، فانها تعطي بذلك دفعا قويا لقوى الانتاج على الصعيدين البشري والآلي وتحول دون وصول التناقضات بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج الى حد الصراع .

القاعدة والبنية الفوقية :

تنظر المادية التاريخية الى الحياة الاجتماعية على انها تركيب معقد يشمل مختلف ميادين النشاط البشري الاقتصادية والسياسية والفكرية التي تعبر عن

نفسها في العديد المتنوع من العلاقات الاجتماعية . الا ان لكل مجتمع قاعدته وبناؤه الفوقي الذي يولد من القاعدة ويرتبط بها بشكل لا ينفصم .

لقد ابرز كارل ماركس العلاقات الاقتصادية واعتبرها الاساس الذي تقوم عليه الروابط الاخرى . وبما ان مجموع علاقات الانتاج هي التي تشكل البنية الاقتصادية للمجتمع ، فان ماركس يعتبر طراز انتاج الحياة المادية قاعدة الهرم التي تحدد البنية الفوقيــــة La superstructure للحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية .

فقاعدة الهرم تشمل جميع علائق الانتاج واولها علاقات الملكية (امتلاك وسائل الانتاج) واشكال التوزيع والتبادل المرتبطة بها ، والعلاقات التي تقوم بين مختلف الارهاط الاجتماعية (الطبقات) . وهي علاقات (مادية) مستقلة عن وعي الانســـان وارادته ومرتبطة ارتباطا مباشرا بمستوى تطور القوى الانتاجية .

اما الهرم فيشمل التركيبات الفوقية من افكار ومؤسسات ، كالنظريـــات السياسية والاحزاب السياسية ، والدولة والتشريع والاخلاق والفن والفلسفــة والدين والمعبد ... الخ .

والمادية التاريخية تميز داخل هذه التركيبات الفوقية بين الميدان (السياسي ـ الحقوقي) وبين الميدان (الايديولوجي) فعلى الرغم مـــن ان كليهما يعكس الاساس الاقتصادي الذي صدر عنه ، الا ان صلة كل منهما بالقاعدة الاقتصادية تختلف . ففي حين ان الميدان (السياسي ـ الحقوقي) يتوقف مباشرة على هذه القاعدة ، يبدو الميدان الايديولوجي أقل تعلقا بالقاعدة الاقتصادية من الميدان الآخر .

رغم هذا التمييز تؤكد المادية التاريخية على تلازم الارتباط بين التطورات التي تطرأ على القاعدة وبين التحولات التي تحدث في الهرم ، وترى ان كـــلا الميدانين يعكسان ظاهرة الصراع الطبقي . غير انها في الوقت نفسه تشير الى انه قد يحدث ان تبقى عناصر تابعة لاشكال سابقة داخل المراحل الجديدة سواء في القاعـــدة الاقتصادية او في البنى الفوقية السياسية ـ الحقوقية ، او الايديولوجية . فالبناء الفوقي الناشىء عن القاعدة له استقلال نسبي . واحد مظاهر هذه الاستقلالية يتجلى في صفة (الاستمرارية) التي تلازم تطور البناء الفوقي . لذلك فان زوال القاعـدة القديمة لا يعني تصفية آلية لجميع مظاهر البناء الفوقي القديم .

فالعلاقة اذن بين القاعدة والهرم داخل الحياة الاجتماعية ليست علاقة بسيطة كما انها ليست علاقة آلية . الا ان العامل المسيطر دوما هو ارتباط الصراع السياسي والايديولوجي بالصراع الطبقي . فلكل قاعدة اقتصادية هرمها وان كان ذلك لا يمنع وجود عناصر مشتركة بين التركيبات الفوقية للتكوينات الاجتماعية المتعددة .

ان هذا العرض للعلاقة بين القاعدة والهرم في المادية التاريخية ، يبقى ناقصا اذا لم نكمله بالاشارة الى دور البناء الفوقي الكبير في التطور الاجتماعي وفي تطور القوى المنتجة . لانه يعبر في النهاية عن موقف تجاه القاعدة . وكذلك بالملاحظة التي اضافها انجلز في أواخر حياته تحت ضغط النقد الذي وجهه ادوار برنشتاين الى هذه العلاقة . ففي رسالتيه الموجهتين الى Bloch & Schmid بتاريخ ٢١ ايلول و٢٧

تشرين اول من عام ١٨٩٠ يقول انجلز :

«حسب المفهوم الماركسي للتاريخ ، يشكل الانتاج في نهاية التحليل الفترة المحددة للتاريخ . فلا ماركس ولا انا ، ذهبنا الى ابعد من ذلك .

فاذا ادعينا بأن الفترة الاقتصادية وحدها هي التي تحدد التاريخ ، نكون قد حولنا هذا المبدأ الى عبارة فارغة من المعنى ، مجردة وعقيمة .

ان الوضع الاقتصادي يشكل الاساس ، الا ان الاشكال السياسية ونتائج الصراع الطبقي وما تعكسه هذه المعارك الحقيقية في ادمغة الذين ساهموا فيها من نظريات فلسفية وسياسية وحقوقية ومن آراء دينية ، تحمل بدورها تأثيرها على حلبة الصراعات التاريخية . فعن طريق هذا التداخل في التأثير بين جميع هذه الاشكال تفرض الحركة الاقتصادية نفسها كشيء ضروري في خطوطها العامة . فالتأثير السياسي للسلطات العامة على التطور الاقتصادي يمكن ان يأخذ اشكالا ثلاثة : يعجل التطور او يقاومه (ولكنه لا بد ان يتلاشى على المدى البعيد) او يحول دون بعض اتجاهاته ، أو يملي على هذا التطور بعض الاتجاهات الاخرى» .

ان اعطاء البنى العليا الفوقية دورا اكثر اهمية في أواخر حياة انجلز ، قد ادخل تطورا على المفهوم المادي للتاريخ تابعه كل من لينين وستالين فيما بعد .

فلينين ينسب للوعي دورا هاما كعامل من عوامل تطور التاريخ ، فهو يرى ان الضرورة التاريخية لا يمكن ان تتحقق الا بعمل ثوري يقوده الوعي .

اما ستالين فيرى ان للنظريات الاجتماعية وللمؤسسات السياسية اهمية تنظيمية وتحريكية وتحويلية تنعكس حتى على الحياة المادية للمجتمع نفسها . لذلك فان المادية التاريخية تنسب الى التركيبات الفوقية كالدولة والتشريع والايديولوجية الاشتراكية دورا فعالا في التحويل الثوري للمجتمع الراسمالي وفي بناء المجتمع الاشتراكي وحمايته والدفاع عنه وفي توطيد او تحطيم قاعدة ما بوجه عام .

التركيبات الاجتماعية الخمس :

يتلخص تاريخ الانسانية حسب المادية التاريخية ، في التركيبات الاجتماعية الخمس المتلاحقة :

١ ــ المشاعية البدائية .
٢ ــ العبودية .
٣ ــ الاقطاعية .
٤ ــ الراسمالية .
٥ ــ الشيوعية (حيث تشكل الاشتراكية اولى مراحلها) .

والمقصود بالتركيبات الاجتماعية: اسلوب الانتاج وعلاقات الانتاج والبنية الهرمية الفوقية المرتبطة بها . اذ ما دام اسلوب الانتاج هو الاساس المادي للحياة الاجتماعية،

الذي يقرر جميع جوانبها الاخرى ، فان تاريخ المجتمع البشري قد عرف خمسة اساليب انتاج متتابعة هي المشاعي البدائي ثم القائم على الرق ثم الاقطاعي فالراسمالي فالاشتراكي .

المشاعية البدائية :

ففي المجتمع البدائي كانت ادوات العمل بسيطة جدا : البلطة والفاس والموسى الحجرية ، والرمح والمدية ثم القوس والسهم فيما بعد . اما العلاقات الاجتماعية للانتاج فقد كانت متناسبة مع هذا المظهر البسيط الاولي لقوى الانتاج . ان بساطة هذه الادوات لم تكن تسمح للفرد ان يعيش في عزلة وان يؤمن حاجاته الخاصة فقد عاش الناس في المشاعية البدائية على شكل عشائر تقوم فيها الوحدة على اساس القرابة ، لذلك كانت الجهود المشتركة لجميع اعضاء المجتمع البدائي هي الكفيلة بانتزاع ما هو ضروري للحياة عن طريق الصراع مع الطبيعة . وهكذا كانت الملكية المشتركة لوسائل الانتاج مرتبطة بالعمل المشترك ، ولم يكن هناك ثمة مجال لقيام الاستغلال او لظهور تفاوت في علاقة افراد المجتمع بوسائل الانتاج . فانتاجية العمل كانت متدنية ليس فيها فائض يمكن امتلاكه ، فهي تكاد تسد حاجة الافراد الى الحياة . وطالما انه لم توجد ملكية خاصة ولا طبقات ، وان الاستغلال لم يوجد بعد ، فانه لم يكن ثمة مبرر لقيام سلطة سياسية قسرية . لذلك كانت الشؤون العامة تقرر بصورة مشتركة ، او توكل الى اكثر اعضاء المجتمع خبرة واحتراما . وتلعب المرأة دورا هاما في هذه المرحلة ، لان اسرة الزواج الموحد لم تكن قد نشأت بعد ، فالطفل لم يكن يعرف ابوه . فالأم وحدها تشكل آصرة النسب المحددة وعلى اساس الارتباط بها كانت تتوزع الافخاذ ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان النساء اللواتي كن يجمعن الخضار لطعام الاسرة ويحصرن همهن في الاقتصاد المنزلي في الوقت الذي كان فيه الرجال منصرفين الى الصيد ، هن اللواتي اسسن الزراعة .

ان مستوى التطور الشديد الانخفاض لقوى الانتاج في هذه المرحلة قد جعل الانسان يشعر بعجزه امام الطبيعة ، لذلك كانت الافكار الدينية المفرطة في البساطة والطفولية تهيمن على فكره .

بيد ان التطور الصاعد لقوى الانتاج ما لبث ان ادى الى الانحلال التدريجي للمجتمع البدائي . فالادوات الحجرية استبدلت بأوائل معدنية كالمحراث والرؤوس المعدنية للرماح وللسهام ، وتدريجيا بدأ تقسيم العمل : الزراعة ، تربية المواشي ، الصناعة اليدوية ، كما بدا تبادل منتوجات العمل بين مختلف القبائل البدائية ، وتلاشت مشاركة جميع افراد المجتمع بكل الاعمال بشكل تدريجي . وتلا انقسام العشائر الى افخاذ انقسام الافخاذ الى اسر ، واصبحت العائلة عندئذ الوحدة الاقتصادية المستقلة .

ان الانتقال من الصيد الى تربية المواشي ومن الزراعة بواسطة المجرفة الى الزراعة بواسطة المحراث ، قد عزز مكانة الرجال في الحياة الاجتماعية ، وحل محل النظام الامومي **Le Matriarcat** النظام الابوي **Le Patriarcat** فأصبح النسب للأب هو الاساس ، وكذلك الارث وانتقال الملكية يتبعان الاصل الابوي . وبظهور العائلة الموحدة الزواج **Monogamie** ذات الاستقلال الاقتصادي ، ظهرت الملكية الخاصة . كما ان تزايد انتاجية العمل وتجاوزها للحاجات الضرورية للحياة قد سمحت بظهور الاستغلال وامكانية امتلاك انتاج عمل الاخرين . واصبح تحويل اسرى الحرب الى عبيد اكثر فائدة من قتلهم .

هكذا حل النظام القائم على العبودية **Le Régime Esclavagiste** محل المجتمع البدائي .

العبودية :

ان ما يميز القوى المنتجة في مجتمع الرق ، هو ان الادوات الخشبية والحجرية قد تركت مكانها نهائيا للادوات المعدنية (المحراث والمنجل) فزادت انتاجية العمل في الزراعة . واستمرت عملية تقسيم العمل والتخصص في الانتاج الحرفي ، ونمت المدن وتطورت التجارة . كما ان ما يميز علاقات الانتاج في هذا النظام هو ان الملكية الخاصة لا تشمل فقط وسائل الانتاج بل تمتد ايضا فتشمل المنتجين انفسهم ايضا . كان ذلك نتيجة ضرورية لمستوى تطور القوى الانتاجية الذي وصل في ذلك الحين الى درجة تسمح بامتلاك نتاج الاخرين ، فحل محل التضامن والتعاون في المجتمع البدائي ، علاقات قائمة على الاستغلال والاضطهاد من قسم من الشعب لقسم آخر . وتحول المجتمع الى طبقات متصارعة . فكان لا بد للقضاء على مقاومة العبيد من انشاء جهاز قمع خاص ، فكانت (الدولة) التي حلت محل الموجهين في المجتمع البدائي . ومع نشوء الدولة ظهر (التشريع) المعبر عن ارادة الطبقة الموجهة . وحققت ظاهرة تقسيم العمل تقدما واضحا ، فانقسم العمل الى زراعي ريفي وصناعي في المدن . واستخدمت الحيوانات في الاعمال الزراعية . كما سمح عمل العبيد بانشاء شبكات للري وللطرق البرية والمائية وبناء السفن .. الخ . اما ذلك القسم من السكان الذي كان بعيدا عن العمل البدني ، فقد اتيح له ان يهتم بالفن وبالعلم . لذلك فان المادية التاريخية تعتبر نظام العبودية رغم فظاعته خطوة الى الامام في طريق التطور الاجتماعي . الا ان علاقات الانتاج نفسها قد اصبحت مع الزمن عائقا في وجه تطور قوى الانتاج فالسادة الذين كانوا يمتلكون بفضل العبيد أيد عاملة رخيصة ، اهملوا تطوير وسائل الانتاج . والعبيد ما كانوا يهتمون بالعمل ولم تكن اهم مصلحة فيه . ولم يكن بالامكان تحقيق تطور في وسائل الانتاج الا بالثورة على نظام العبودية. كان العبيد مادة هذه الثورة ، ثم جاءت غزوات القبائل البربرية المجاورة لتهدم هذا

النظام الذي لم يكن قادرا على الصمود في وجهها بعد ان اضعفته الصراعات الداخلية. فانهار النظام العبودي وحل محله شكل جديد من اشكال الحياة الاجتماعية ، هو النظام الاقطاعي .

الاقطاعية :

ان تطور القوى المنتجة قد استمر في ظروف الاقطاعية. فبالاضافة الى السيطرة على الطاقة المائية والهوائية لتطوير الزراعة ، تقدم انتاج النسيج وتطورت الحرف واكتشف الورق والبارود وطباعة الكتب ، وكبرت المدن ونشأت مراكز تجارية عالمية كبيرة .

اما علاقات الانتاج في النظام الاقطاعي فقد كانت تقوم على اساس الملكية الفردية لوسائل الانتاج . وكان الفلاحون مرتبطين بالاسياد الاقطاعيين وبالارض ، الا انهم لم يكونوا بشكل كامل ملكا للاقطاعيين ، لانهم كانوا يملكون ادوات العمل وقسما من الارض يعملون فيها خارج اوقات العمل التي يتطلبها الاقطاعي . لذلك فان الفلاحين (الاقنان) كانوا يشعرون بأن لهم ثمة مصلحة في العمل وكانوا يهتمون به خلاف ما كان عليه الامر في نظام العبودية ، وكان لذلك اهمية اقتصادية خاصة . وفي ظل النظام الاقطاعي عرفت التجارة والصناعة نهضة ظهرت آثارها في الرفاه الذي عرفته المدن .

ان التبدل الذي طرا على التركيب الاقتصادي ، كان لا بد ان يرافقه تحول في التركيب الاجتماعي . فالاسياد الاقطاعيون كانوا يشكلون الطبقة الموجهة ، كما كان الاقنان (عبيد الارض) Les Serfs يشكلون الطبقة الثانية . وكانت العلاقة بين الطبقتين علاقة سلبية ، فقد بقي الفلاحون يعانون الاستغلال الرهيب من قبل الاقطاعيين وان كان بدرجة اقل منه في النظام السابق . فكان لا بد للصراع الطبقي ان ينفجر على شكل حركات عصيان وتمرد ، كما حصل في انجلترا وفرنسا في القرن الرابع عشر ، وفي المانيا في القرن السادس عشر ، وفي روسيا خلال القرنين السابع والثامن عشر ، وفي الصين في القرن التاسع عشر .

اما على صعيد التركيب السياسي الفوقي ، فان الاستغلال الاقطاعي لم يتوقف عند حدود السلطة السياسية ، بل ان السادة الاقطاعيين كانوا يملكون اجهزة معدة لعمليات القمع في حالات التمرد التي يدفع اليها الصراع الطبقي . وكانوا يملكون ايضا سلطة التشريع وسلطة اصدار الاحكام .

اما تطور قوى الانتاج فقد بلغ حدا تجاوز امكانيات هذا النظام . فقد توسعت مشاريع الصناعة الحرفية وتعقدت ظاهرة تقسيم العمل وشهدت التجارة قفزة كبيرة بعد اكتشاف بلدان ما وراء البحار وما فيها من مواد اولية (اكتشاف امريكا والطريق البحري الى الهند ، في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر) . وهكذا

ولد في قلب النظام الاقطاعي اسلوب جديد في الانتاج دخل في صراع مع الاشكال القديمة لعلاقات الانتاج . فالحاجة الى سوق حر على الصعيد القومي اصطدمت بوجود الحواجز الجمركية الكثيرة ، والحاجة الى ايد عاملة متجددة اصطدمت بوضع الاقنان المرتبطين بالارض . لذلك بدأ عصر الثورات البورجوازية التي استهدفت حل تلك التناقضات معتمدة على استياء الاقنان والطبقات الفقيرة في المدن .

الراسمالية :

لقد أدت الثورة البورجوازية الى نشوء شكل جديد من اشكال التركيب الاجتماعي هو النظام الراسمالي . ان ما يميز القوى المنتجة في هذا النظام هو الانتاج الكبير القائم على استخدام الآلة . وفي هذا النظام تقوم علاقات الانتاج ايضا على اساس الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . الا ان هذه العلاقات قد خلقت في البدء مجالا واسعا لازدهار وتطور قوى الانتاج . فالصناعة الكبرى الميكانيكية قد نمت بفضل استعمال الآلة البخارية ثم المحرك الكهربائي . كما ان تقسيم العمل قد اتسع نطاقه ونشأ نظام اقتصادي وسوق اقتصادية ذو طابع عالمي . فقد عملت الراسمالية خلال قرنين من بدء وجودها في ميدان القوى المنتجة أكثر مما تم في كل العصور السابقة للبشرية .

اما على الصعيد الاجتماعي ، فان العصر الراسمالي قد داخله التناقض السلبي بين طبقة الراسماليين وبين طبقة العمال . فاسلوب الاستغلال قد تبدل واصبح بعد الان يقوم على القسر الاقتصادي **La Contrainte Economique** فالطبقة العاملة لم تعد كطبقة الاقنان من حيث ارتباطها بالطبقة المسيطرة ، بل أصبحت اكثر استقلالا . الا انها لا تملك وسائل الانتاج ، وتجد نفسها مرغمة لان تبيع نفسها طائعة كأيد عاملة لكي لا تموت جوعا . اما السلطة السياسية فقد طرا عليها تبدل ايضا ، اذ حل محل الطغيان المكشوف نوع جديد ملطف من انواع الطغيان يحمل اسم الديمقراطية البورجوازية . ان هذه الديمقراطية تتفق اتفاقا كاملا مع مبدأ حرية المزاحمة الذي يشكل اساس المجتمع الراسمالي . فالمناداة بالحريات السياسية وبالمساواة امام القانون ، لا بد ان يتحول لمصلحة الطبقة المسيطرة طالما ان المساواة الاقتصادية مفقودة . وفي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، تطورت الراسمالية الى استعمار ، فحلت الاحتكارات محل المزاحمة الحرة ، وانضاف الى استغلال الشغيلة، استغلال الشعوب في المستعمرات .

وهكذا فان تطور النظام الراسمالي يصل بهذا النظام الى مرحلة تصبح فيه علاقات الانتاج القائمة ، معيقة لتطور قوى الانتاج . فالازمات الاقتصادية الدورية والحروب المستمرة تنعكس انعكاسا سيئا على قوى الانتاج وعلى امكانيات تطورها . واذا كان اهتمام العمال بازدياد الانتاجية يفوق اهتمام الاقنان في النظام الاقطاعي ، فان اهتمامهم بازدياد مردود العمل يتضاءل الى حد بعيد ، لان الراسمالي يحتفظ

لنفسه بقسم كبير من المنتوج . وهكذا فان التناقض الاساسي الذي يعانيه النظام الراسمالي بين الطابع الاجتماعي للانتاج والطابع الفردي للملكية ، يدفع الى قيام الثورة الاشتراكية الكفيلة بحل هذا التناقض .

الاشتراكية :

ان الملكية الجماعية لوسائل الانتاج هي اساس اسلوب الانتاج الاشتراكي ، كما ان العلاقات الانتاجية تتخلص من الآثار السلبية ومن النزاعات وتأخذ في ظل النظام الاشتراكي طابعا تعاونيا وتسانديا كاملين ، وتصبح منسجمة انسجاما تاما مع قوى الانتاج . فالصفة الجماعية للانتاج تقابلها صفة جماعية لملكية وسائل الانتاج ، اي امتلاك للخيرات المنتجة . ويغدو من مصلحة كل عامل ان يهتم بزيادة الانتاج . وفي هذه المرحلة تجد المبادىء التالية : «كل انسان يجب ان يعمل وفق قابلياته» ، و«كل انسان يكافأ حسب عمله» ، مجالها الواسع للتحقيق .

اما المبادىء التي تقول : «كل انسان يقوم بشكل عفوي بالعمل الذي يتناسب مع قابلياته ، والمجتمع يعطي كل انسان حسب حاجته» ، فانها تحتاج الى مرحلة جديدة اخرى هي مرحلة المجتمع الخالي من الطبقات . وهي المرحلة الشيوعية .

الطبقات والصراع الطبقي :

انتاريخ المجتمعات البشريةهو فينظر الماديةالتاريخية تاريخالصراع بين الطبقات، لان العلاقة بين الطبقات هي اكثر علاقات الانتاج تأثيرا في تطور التاريخ ، وهي تشكل القاعدة التي يقوم على اساسها بنيان الدولة ، اي التركيب السياسي الفوقي . فلكي نفهم العلاقة بين الصراع الاقتصادي وبين الشكل السياسي للحياة الاجتماعية ، لا بد ان نبدأ بتحديد مفهوم الطبقة حسب نظرية المادية التاريخية .

ان النظرة العفوية المباشرة تكشف لنا عن ان الحياة البشرية لا تتألف من كتلة متجانسة خالية من الفوارق ، بل تتألف من تجمعات ذات اشكال متعددة ومتنوعة : فهناك الاسرة والافخاذ والعشائر والامم والدول والاحزاب والطبقات والطوائف الدينية ... الخ . والماركسية تنسب الى (الطبقات) من بين هذه التجمعات اهمية خاصة وحاسمة . اما المعيار الذي يحدد انتماء الافراد الى طبقة ، فهو ليس معيارا بيولوجيا عرقيا ، لان عرقا واحدا يمكن ان يتضمن عدة طبقات . وليس معيارا بسيكولوجيا يقوم على التمييز بين المواهب عند الافراد ، لان ذلك لا يتوقف على الطبقة التي ينتمي اليها الافراد . بل هو معيار اقتصادي ، لان السبب الحاسم في التطور الاجتماعي هو الانتاج المادي . والمادية التاريخية ترفض معا النظرية التي تجعل من توزيع الدخل اساس التكوين الطبقي ، والنظرية التي قال بها (بوجدانوف) والتي تعتبر (توزع الافراد منظمين ومنفذين) المصدر الذي نبعت منه الطبقات .

فالتفسير الحديث للمادية التاريخية يعتبر (وضع الافراد داخل عمليات الانتاج) هو الاساس الذي يتم بموجبه التوزع الطبقي . وهذا التفسير يعتمد على النظرية اللينينية اكثر من اعتماده على نظرية كارل ماركس . فقد توفي ماركس قبل ان ينجز تحليل مفهوم الطبقة . ومخطوطة الجزء الثالث من كتاب راس المال تتوقف عند الفصل الثالث : (الطبقات) وهكذا فان المادية التاريخية تجد في مؤلف لينين المبادرة الكبرى **La grande initiative** التعريف الكامل للطبقة) حيث يقول : «نعني بالطبقات تجمعات كبرى للافراد تتميز بعضها عن بعض حسب مكانها من النظام الانتاجي للمجتمع المحدد تحديدا تاريخيا وحسب علاقاتها بوسائل الانتاج (هذه العلاقات التي تتخذ شكل قوانين) ، وحسب دورها في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وبالتالي اهمية مشاركتها في الثورة الاجتماعية فالطبقات هي تجمعات من البشر ، بعضهم يستطيع ان يمتلك عمل الاخرين بسبب الاوضاع المختلفة التي يشغلونها داخل نظام اقتصادي واجتماعي محدد» .

ان عدم المساواة بين البشر (وهو اساس التوزع على طبقات) ، ليست في نظر المادية التاريخية خاصة اساسية ثابتة وضرورية من خواص المجتمع البشري ، كما يحاول المفكرون البورجوازيون ان يصوروها . ففي المجتمع البدائي في القديم لم يكن للطبقات وجود ، كما لن يكون لها وجود في النظام الشيوعي . فانقسام الانسانية الى طبقات كان نتيجة ضرورية لتقسيم العمل الذي ادى بدوره الى الملكية الخاصة . وقد كان تشكل الطبقات شرطا ضروريا لتطور القوى المنتجة . اولا ان قوى الانتاج ما تكاد تبلغ حدا عاليا من التطور ، كما هو الامر في النظام الراسمالي ، حتى تزول مبررات استمرار الطبقات . ففي
النظام الشيوعي تكون الطبقات قد زالت كليا .

ان المادية التاريخية تميز داخل كل شكل من اشكال المجتمع بين طبقات اساسية ، وطبقات ملحقة . فالطبقات الاساسية هي تلك التي تنشأ نتيجة لطراز الانتاج ولاسلوبه الاساسي : كالعبيد والمستعبدين في نظام الرق ، والاقنان والسادة الاقطاعيين في النظام الاقطاعي ، والعمال الراسماليين في النظام الراسمالي . لذلك فان الصراع الطبقي في المجتمعات المتناحرة هو اولا صراع بين الطبقات الاجتماعية الاساسية .

اما الطبقات الملحقة ، فتنشأ داخل كل شكل من اشكال المجتمعات الى جانب الطبقات الاساسية ، كطبقة الصناع الحرفيين والفلاحين الاحرار تحت نظام الرق ، وكطبقة العقاريين والفلاحين الكادحين في ظل النظام الراسمالي ، بالاضافة الى ذلك فان المجتمع الراسمالي يضم ايضا الطبقات المتوسطة من (البورجوازية الصغيرة) كالحرفيين وصغار التجار والكسبة الذين لا يعيشون من جهد الاخرين ، ومن (المثقفين) كالمهندسين والفنيين والاطباء والاساتذة والعلماء والموظفين ... الخ.

ان موقف الطبقة البورجوازية الصغيرة داخل صراع الطبقات موقف متردد . فهي لا ترتبط بالعمال لانها تعيش من عملها الخاص . وهي على الرغم من كونها

مستقلة عن البورجوازية الكبيرة ، فانها تتقرب منها لانها قائمة على اصحاب الملكيات الخاصة .

اما فئة المثقفين ، فانهم يتوزعون في ولائهم . فالطبقة العليا منهم أقرب الى الراسماليين ، في حين ان الطبقة الدنيا أقرب الى النضال الثوري مع الطبقة العاملة ومن مصلحة الطبقة العاملة ان تكسب الى قضيتها اكبر عدد ممكن من المثقفين .

هناك اخيرا داخل كل مجتمع عناصر سائبة فقدت اتصالها بكل طبقة، كالسارقين ورجال العصابات قطاع الطرق والمشردين البوهميين والبغايا .. الخ.

ان المادية التاريخية اذ تؤكد على الدور الحاسم للعامل الطبقي لا تنكر دور الاشكال الاخرى للترابط الاجتماعي سيما في المراحل التي سبقت نشوء الراسمالية.

ولكن كيف يحدث ان تتحكم طبقة قليلة العدد من المستغلين بالعدد الاكبر من ابناء المجتمع ؟ ان جواب المادية التاريخية يتلخص في الملكية الفردية لوسائل الانتاج. بيد ان السلطة الاقتصادية وحدها لا تكفي ، لذلك فان الطبقة المستغلة تستعين بجهاز قمع هو (الدولة) ، اي بسلطة سياسية وبجيش وبشرطة وبمحاكم وسجون .. الخ. فالدولة لها عمل محدد هو الدفاع عن مصالح الطبقة الموجهة . (والتشريع) هو ترجمة ارادة هذه الطبقة الى قوانين . فله اذن طابع طبقي يعكس الشروط الاقتصادية للحياة الاجتماعية .

ان المادية التاريخية تميز في مفهوم (الدولة) بين نموذج الدولة **Le Type d'état** وبين شكل الدولة .

لقد عرف التاريخ ثلاثة نماذج من الدول المستغلة : دولة العبودية ــ الدولة الاقطاعية ــ الدولة البورجوازية . لذلك فان الدولة الاشتراكية التي تعود فيها السلطة الى العمال ، اي الى الغالبية الساحقة من ابناء المجتمع ، تختلف اختلافا اساسيا عن النماذج السابقة المستغلة . اما شكل الدولة **La Forme de L'état** فتحدده تنظيمات اجهزة الدولة واداراتها (ملكية ، جمهورية ... الخ) . ويمكن لنموذج واحد من نماذج الدولة ان يتجلى في عدة اشكال . فمثلا نموذج الدولة العبودية اتخذ في مصر القديمة شكلا استبداديا ، وفي اثينا شكلا ديمقراطيا وفي روما شكل جمهورية ارستوقراطية ثم شكل امبراطورية . الا ان هذه الاشكال جميعها تتوقف على التركيب الاقتصادي . لذلك فان التشتت السياسي للاقطاعية البدائية كان يعكس تشتتها الاقتصادي . ثم لما دخلت العلاقات الاقتصادية والتجارية بين مختلف المناطق مرحلة التضافر ، قامت الدولة المركزية ذات الشكل الملكي المطلق.

كذلك فان الدولة البورجوازية يمكن ان تأخذ اشكالا متعددة بدءا من الملكية الدستورية وعبر الجمهورية الديموقراطية حتى الدكتاتورية الفاشية . وليس تحول الديموقراطية البورجوازية الى رجعية سياسية سوى مظهر للانتقال من المزاحمة الحرة الى الراسمالية الاحتكارية ، كما ان الفاشية ليست سوى محاولة يائسة للبورجوازية الامبريالية لحماية امتيازاتها المهددة من الحركة العمالية الصاعدة .

ان الديموقراطية البورجوازية تقوم بمساواة شكلية في الحقوق ، ولكن طبيعة

عمل الدولة البورجوازية تقوم على ابعاد الجماهير الكادحة عن المشاركة الحاسمة في الحياة السياسية وفي توجيه الدولة . لان الذين يمتلكون المطابع والورق والصحف والمجلات اي الذين يمتلكون رؤوس الاموال ، هم وحدهم الذين يتمتعون فعلا بحرية القول وبحرية التعبير عن الراي .

الصراع الطبقي والثوره الاجتماعية :

تعتبر المادية التاريخية الصراع الطبقي محركا للتطور الاجتماعي خلافا للمفكرين الرجعيين الذين يعتبرونه معيقا له ، وينظرون اليه على انه انحراف عن المجرى الطبيعي للتطور الاجتماعي . ان الصراع الطبقي ينشأ عن تعارض مصالح الطبقات ، الا ان هذا التعارض يصل في النظام الراسمالي الى حد تصبح فيه مصلحة البروليتاريا الحقيقية هي في التحرر من الاستغلال الراسمالي . وذلك عن طريق قلب هذا النظام .

قد يقصر وعي هذه الطبقة فيخيل الى العمال ان مصلحتهم هي في انقاص ساعات العمل ، الا ان المكان الموضوعي الذي تحتله هذه الطبقة في سلسلة عمليات الانتاج هو الشيء الهام ، وهو الذي يجعل منها بالضرورة طبقة ثورية .

وقد يحدث أن تلتقي مصالح عدة طبقات وعندئذ تقوم امكانية انشاء تحالف فيما بينها . وهذا ما يحصل بين طبقة العمال وطبقة الفلاحين والبورجوازية الصغيرة في بعض المراحل .

ان الصراع الطبقي ضد البورجوازية يكتسي ثلاث اشكال رئيسية : فهناك الصراع الاقتصادي ثم الصراع السياسي ، واخيرا الصراع الايديولوجي .

ان الصراع الاقتصادي يمثل من الناحية الزمنية الشكل الاول للصراع . فالعمال ينتظمون في نقابات ويندرجون في تجمعات مشابهة اخرى ، ويلجأون الى الاضرابات لتحسين وضعهم الاقتصادي . وهذا الشكل من الصراع له اهمية كبرى ، لان قانون التراكم الراسمالي لا بد ان يسوق الى افقار الطبقة العاملة . وما تزال الاتجاهات الحديثة في تفسير المادية التاريخية تدعم نظرية ماركس في الافقار Théorie de L'appauvrissement لا على انها نظرية كاملة ، بل على انها اتجاه مسيطر . كما انها تميز بين (الافقار النسبي) الذي يعني أن مشاركة العمال في الدخل القومي تتدنى في حين ان مشاركة الراسماليين تزيد ، وبين (الافقار المطلق) الذي يعني أن مستوى الحياة لدى الطبقة العاملة لا يتفق وارتفاع الحد الادنى لمتطلبات الحياة .

الى جانب اهمية الصراع الاقتصادي في تحسين الوضع الاقتصادي للبروليتاريا، فان له اهمية اخرى لا تقل اهمية عن تلك . فهو مدرسة للنضال بالنسبة للبروليتاريا ينمي وعيها الطبقي ويشعرها بأنها المحرك الرئيسي للتطور الاجتماعي .

الا ان للصراع الاقتصادي حدوده ، فهو لا يسمح وحده بالغاء الاستغلال وبقلب النظام الراسمالي . فلا بد اذن للصراع الاقتصادي ان يجد في (الصراع السياسي) امتدادا له . سيما في هذا العصر حيث الاضراب الاقتصادي يحمل غالبا طابعا سياسيا . والصراع السياسي يأخذ اشكالا متعددة بدءا من الاحتجاجات والمظاهرات والاضرابات والحملات الانتخابية حتى الانتفاضة المسلحة .

ان هدف الصراع السياسي هو تقويض سلطة الطبقة الراسمالية وبناء دكتاتورية الطبقة العاملة . اما وسيلة الصراع السياسي فهي (الاحزاب السياسية) التي تعكس مصلحة الطبقة التي تصارع من اجلها . فهناك صلة بين الطبقات والاحزاب . اما (الصراع الايديولوجي) فيهدف الى تحرير الطبقة العاملة من آثار العقلية والافكار البورجوازية والى غرس الايديولوجية الاشتراكية بين صفوف الجماهير الكادحة وخلق الوعي الطبقي لديهم . فالطبقة العاملة لا تستطيع اذا تركت لذاتها ان تشكل اكثر من وعي نقابي . اما الوعي الاشتراكي فانها تحتاج للحصول عليه الى منظمة حزبية سياسية تقوم بهذه المهمة ، سيما وان وعي الطبقة العاملة هو دوما موضوع تحريف وتزييف وتشويه من قبل الطبقة البورجوازية . ان الثورة الاجتماعية تكون تتويجا للصراع الطبقي وهي تأتي لتحدث انعطافا تاريخيا وتحل شكلا جديدا من التركيب الاجتماعي محل التركيب القديم ، وتعيد الانسجام بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . ان الطبقة المسيطرة تقاوم كل تبدل في التركيب الاجتماعي لانها تدافع بذلك عن مصالحها . لذلك فان اي تبديل جذري لا يمكن ان يتحقق الا بالثورة الاجتماعية .

فعلى الصعيد السياسي تقوم الثورة بنقل السلطة من يد طبقة الى يد طبقة اخرى . وهذا ما يميز الثورة اولا عن (الانقلاب) الذي يكتفي بنقل السلطة من يد بعض ممثلي طبقة ما الى ايدي ممثلين اخرين لنفس الطبقة . وثانيا عن (الثورة المضادة) التي هي ارجاع السلطة للطبقة التي ازيحت عنها . فتعريف الثورة الاجتماعية اذن هو (الانقلاب الاجتماعي الذي يزيح عن السلطة الطبقات البائدة البالية ، ويبني سلطة الطبقات التقدمية والثورية) .

فمفهوم الثورة اذن ليس مطابقا لمفهوم الانقلاب المسلح او الحرب الاهلية ، لان انقلابات عسكرية حدثت في التاريخ دون ان تكون ثورات

ان الثورات تعجل في تطور المجتمع . انها تمثل الفترات التي يبلغ فيها وعي الجماهير الشعبية ، وارادتها ، قمة التوتر . انها (قاطرات التاريخ) كما يدعوها كارل ماركس ، وهي الاعياد الحقيقية للتاريخ ، كما يشير الى ذلك المؤلف السوفياتي الحديث (أسس الفلسفة الماركسية) .

ان المادية التاريخية التي تعتبر التناقضات الدوافع المباشرة للثورة ، تميز بين نوعين من التناقضات : التناقضات التي تصل في سلبيتها الى حد التناحر العدائي ، وهي التي تدفع الى الثورة ، والتناقضات التي لا تصل الى هذا الحد من السلبية .

وهذا النوع الاخير هو طابع المجتمع اللاطبقي الذي يتم فيه التحول دون انفجارات عن طريق التحولات النوعية في قوى الانتاج .

دور الوعي في التطور الاجتماعي : (الصراع الايديولوجي)

ما هو مفهوم (الايديولوجية) في المادية التاريخية ؟ وما هو دورها ؟ حسب المفهوم المادي للتاريخ (١) ، تعبّر الايديولوجيات عن مختلف اشكال الوعي الاجتماعي وهي تتضمن الحقوق والاخلاق والفن والعلم والفلسفة والدين . كما انها تلخص الحياة الفكرية للمجتمع عن طريق النظريات الاجتماعية المتعددة. في ماضي الانسانية كان الارتباط بين الوعي الاجتماعي وبين انتاج الخيرات المادية ارتباطا مباشرا ودقيقا. ففي المجتمع البدائي لم تكن الحياة الفكرية قد انفصلت بعد عن العمل البدني وعن الحياة المادية للمجتمع . فالفن مثلا لم يكن سوى تعبير عن الفعالية الانتاجية للبشر . والمفهوم الحقوقي للملكية لم يكن موجودا لان الملكية لم يكن لها وجود بعد . ومع نشوء ظاهرة تقسيم العمل ، بدأ التمييز بين العمل الجسمي والعمل الفكري ، وبدأت الحياة المادية للمجتمع تتعقد ، كما بدات الحياة الفكرية تستقل نسبيا .

ان الايديولوجية المثالية تعتبر افكار البشر هي في نهاية التحليل ـ المحركات الاساسية للتطور التاريخي . الا انها تعجز ـ في راي المادية التاريخية ، عن تفسير مصدر هذه الافكار . اما التفسير الذي تقدمه المادية التاريخية فيستند الى نظرية القاعدة والهرم التي سبق الكلام عنها ، اي الى العلاقة بين الشروط الاجتماعية والوعي الاجتماعي ، حيث تتلقى مجموعة المشاعر والحالات النفسية والعادات والافكار وكل ما يتعلق بالسيكولوجيا الاجتماعية تأثير شرط الوجود اليومي للبشر . فأصل الافكار ومصدرها يجب ان تفتش عنه في الشروط الاجتماعية للوجود . وهذا لا يعني طبعا ان الايديولوجية الاجتماعية لطبقة ما هي مجرد تعميم لبسيكولوجيا الطبقة . لان هذه الايديولوجية تنتج قبل كل شيء عن انضاج عقلي للتطور الايديولوجي السابق . ثم يجب ان نميز بين الخاصية السيكولوجية القومية المشتركة بين جميع طبقات الامة التي تحدد الشكل القومي للايديولوجية والثقافة ، وبين محتوى هذه الايديولوجية وهذه الثقافة ذي الطابع الطبقي . كما يجب ان نأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين الشعور الفردي والشعور الجمعي ، وان نراعي خصوصيات الشعور الفردي عندما نريد ان نكسب المثقفين الى قضية الثورة . ذلك لان بعض المثقفين يؤخذ بالعوامل الاخلاقية اكثر مما يتأثر بالمنطق المجرد ، ويأخذ على النظام

---

١ ـ اعتمدنا على المرجع الماركسي (اسس الفلسفة الماركسية) في عرض هذا البحث .

الرأسمالي ظلمه اكثر مما يأخذ عليه تناقضاته . وآخرون ينطلقون من انطباعات مخالفة لتلك .

وعلى الرغم من تأكيد الماركسية ـ اللينينية على الارضية الطبقية لكل نظام فكري ، فانها لا تعتبر ان المفكرين الذين يصوغون ايديولوجية طبقة ما يجب ان يكونوا بالضرورة منتسبين الى تلك الطبقة . فقد سبق للنبلاء ان صاغوا الايديولوجية البورجوازية . كما ان مؤسسي الماركسية انفسهم كانوا من اصل بورجوازي .

ان كل الطبقات اعتبرت حتى الان ايديولوجيتها تعبيرا عن مصلحة المجتمع ككل . والمادية التاريخية تعتبر هذا الادعاء صحيحا الى حد ما طالما ان الطبقة المعنية تناضل من اجل تحررها . فقد قضت الظروف التاريخية ان يكون نضال الطبقة الاكثر تقدما في فترة من التاريخ تعبيرا عن مصلحة الشعب والمجتمع بأسره . ان ذلك ينطبق على نضال الفلاسفة العقلانيين الفرنسيين الذين حملوا راية الحرية والمساواة في وجه الاقطاعية . وان كان ذلك لم يمنع ان يصبح موقفهم فيما بعد تعبيرا انانيا عن مصلحة الطبقة البورجوازية .

ان التفسير الحديث للمادية التاريخية كما نعثر عليه في المؤلف السوفياتي (اسس الفلسفة الماركسية) ، يقر المحتوى الانساني الشامل للايديولوجيات رغم محتواها الطبقي ، ذلك ان كل طبقة من الطبقات التي سيطرت حتى الان ، قد مرت في المرحلة الاولى من نشوئها بفترة كانت فيها تحقق عملا تقدميا . في تلك الفترات التي كانت فيها هذه الطبقات تقدمية بالنسبة الى عصرها ، كانت النظريات الفلسفية والاجتماعية والفنية والاخلاقية التي تواكبها ذات مضمون تقدمي ايضا .

ان المحتوى الانساني الشامل لهذه الايديولوجيات لا يعود ملكا للطبقة ، بل تصبح له صفة تقدمية عامة ، لان مبدع الايديولوجية قد ارتفع فوق وجهة النظر الضيقة لطبقة ، ونظر من منظار الشعب بأكمله . ان الآثار الرائعة للفن الكلاسيكي التي ابدعتها تصورات الطبقات المسيطرة عبرت الى حد ما عن تصورات الشعب ، وكان لها مضمون عام مشترك ، لان مبدعيها ارتفعوا فوق المصالح الضيقة لطبقاتهم واستمدوا ابداعهم من الينبوع الحي للحكمة الا وهي حياة الجماهير الشعبية ومصلحتها .

ان الايديولوجية الاشتراكية تحاول أن تحقق للمرة الاولى في تاريخ الانسانية ما قصرت الايديولوجيات السابقة عن تحقيقه : وهو تمثيل مصالح المجتمع الانساني بأكمله ، عن طريق تحقيق مجتمع لا طبقي .

ان الاستقلال النسبي الذي تقره المادية التاريخية للفكر بالنسبة للاساس الاقتصادي المادي ، والدور الفعال الذي تقره للفكر في التطور الاجتماعي ، والقول بان الوعي قد يتقدم التطور ويسبقه ، وان الضرورة التاريخية لا تتحقق الا بارادة البشر . . . كل ذلك يجعل المادية التاريخية تتميز بمفهومها الحديث عن المادية العامية التي تنظر الى التطور التاريخي نظرة جبرية قدرية تجعل منه قوة خارجية ومتعالية على الانسان .

لقد حددت نظرية كارل ماركس العامل الحاسم في التطور الاجتماعي ، وهو :

(الفعالية الانتاجية للبشر) . وقد ترك ماركس بهذا التحديد لوعي البشر مجالالمراقبة التطور الاقتصادي عبر التاريخ .

فالوعي الاشتراكي حتى بعد اكتشاف القانون الاساسي للتطور الاجتماعي ، لا يستطيع ان يحيط وان يتنبأ بكل التفاصيل، ولا بد من اعمال الفكر عن طريق التحليل النظري المعمق للتطورات الجديدة ، كما لا بد من عملية توعية مستمرة للجماهير الشعبية ومن تربية سياسية وعلمية وتكنيكية واخلاقية تستهدف خلق انسان جديد يرتفع بوعيه الى ادراك المهمة التاريخية للبروليتاريا .

اشكال الوعي الاجتماعي :

ان المادية التاريخية تميز تبعا لتعدد مظاهر الواقع الاجتماعي وتبعا لطبيعة انعكاسها على الوعي الاجتماعي ، اشكالا متعددة لهذا الوعي : كالحقوق ، والاخلاق ، والفلسفة ، والعلوم .. الخ. ان هذا التعدد والتنوع في اشكال الوعي التي نشاهدها اليوم ، لم يكن موجودا في المرحلة الاولى من تطور البشرية . ففي مرحلة المجتمع البدائي كان الوعي الاجتماعي ما يزال محدودا ومقتصرا على بعض المعارف الاساسية عن الظواهر الطبيعية التي حصل عليها المجتمع البدائي خلال صراعه مع الطبيعة من اجل تأمين وسائل البقاء . وكانت الاعراف والعادات المتناقلة بين الاجيال تشكل اخلاق ذاك العصر . وفي تلك المرحلة نعثر ايضا على بعض المبادرات الفنية . اما التصورات الدينية فقد أتت في مرحلة لاحقة لهذه المرحلة . اما الايديولوجية السياسية والحقوقية فقد ظهرت بعد انقسام المجتمع الى طبقات ، ثم انضافت الفلسفة ومن بعدها العلوم التي انفصلت عنها مع الزمن .

وسنبدأ عرضنا لاشكال الوعي الاجتماعي من العلم الذي يعكس بدقة الواقع ، وننتهي بالدين الذي تعتبره المادية التاريخية ابعد اشكال الوعي الاجتماعي عن هذا الواقع .

العلم :

ينطلق العلم شأن كل معرفة بشرية من الحاجات العملية ، وخاصة من حاجات فعالية الانتاج . فعلم الفلك نشأ من الحاجة الى حساب الفصول والى الاتجاه خلال الاسفار . والقفزة الشهيرة للعلوم الفيزيائية في العصر الحديث تمت بدافع حاجات الصناعة الكبرى .

ان العلاقة بين العلوم كبنية فوقية وبين الاساس المادي الذي تنطلق منه بقيت ركيزة التفسير الماركسي . الا ان المادية التاريخية حققت تقدما في هذا التفسير منذ بدأ ستالين في (رسائله عن علم اللغة) يضع اللغة في منأى عن هذه العلاقة بين القاعدة والهرم . واستمر هذا الاتجاه في ابعاد بعض الظواهر الفكرية عن هذه

الصيغة ، كالمنطق الصوري وغيره من اقسام العلوم . فعلى الرغم من ان العلوم تشكل مظهرا من مظاهر الوعي الاجتماعي ، الا ان محتواها لا يتحدد تحديدا طبقيا . وذلك ناجم عن ان الحقائق الموضوعية التي يحتويها العلم تتراكم عبر الاجيال ومن عصر الى عصر ومن شكل اجتماعي الى آخر . وهي لا تفقد قيمتها عندما يتم الانتقال من قاعدة اقتصادية الى قاعدة اخرى ، بل على العكس فان ذلك يساعد على نموها وتطورها . فقانون (نيوتن) في الجاذبية وقوانين انحفاظ الكتلة والطاقة ... الخ تمثل حقائق موضوعية مستقلة عن الانسان ، وتبقى صالحة رغم اختلاف وتعدد اساليب الانتاج.

اما الصراع الطبقي فهو ينعكس على ميدان العلوم الاجتماعية كالاقتصاد السياسي والعلوم السياسية وعلم الاجتماع ... الخ ، لان موضوع هذه العلوم يمس بشكل مباشر مصلحة الطبقات . حتى في مجال العلوم الطبيعية يتسرب احيانا تأثير العامل الطبقي ، كما هي الحال في نظرية الوراثة حيث تتقابل وجهات النظر (الديالكتيكية) من جهة مع (الميتافيزيكية البورجوازية) من جهة ثانية .

ان الحياد واللاتحزب في العلم صفة نسبية وليست قاعدة ثابتة . فالايديولوجية الماركسية تأخذ على النظام الراسمالي استعباده للعلم وتسخير النشاط العلمي والبحوث لمصلحة الاحتكارات الراسمالية ولزيادة ارباحها ، واضطهاد العلماء الذين تتجه ابحاثهم اتجاها معاكسا لذلك . كما انه قد يحصل ان تفسر النتائج الصحيحة للعلم تفسيرا سيئا بتاثير مبادىء فلسفية مغلوطة .

لذلك فان الماركسية ترى ان التطور السليم للعلم لا يتطلب فقط وجود مخابر ومنشآت للتجريب وأدوات للقياس... الخ، بل يتطلب ايضا وجود اطار ايديولوجي يوجه تفكير العلماء في الطريق الصحيح .

ان المادية التاريخية تعتبر ان مفهوم البروليتاريا عن العالم يحتوي الحقيقة الموضوعية ، لان المصالح الذاتية للبروليتاريا تتفق والسير الموضوعي لتطور التاريخ. فهي لا تناضل من اجل تحررها فحسب ، بل للقضاء على كل اشكال الاستغلال. فمن حقها اذن ان تتحزب حتى في مجال العلم لتقطع الطريق على استغلال الراسمالية للبحث العلمي ولكي توجه العلم والعلماء في الطريق المؤدي الى تحقيق رسالتها .

الفلسفة :

تعتبر المادية التاريخية الفلسفة شكلا من اشكال الوعي الاجتماعي يعبر عن مفهوم طبقة ما . وقد سبق أن ذكرنا ان الايديولوجية الماركسية لا تعترف الا على اتجاهين رئيسيين في الفلسفة : الاتجاه المادي والاتجاه المثالي .

فالاتجاه المادي في الفلسفة يعكس في نظر المادية التاريخية ، عقلية الطبقات التقدمية ، في حين ان الاتجاهات المثالية كانت دوما تعبيرا عن مفهوم الطبقات الرجعية ، لذلك فهي تبقى متآزرة مع الدين تدعمه ، ويساندها بشكل متبادل .

وترى المادية التاريخية ايضا ان تطور الفلسفة يعكس التطور الاقتصادي والصراع الطبقي . وكما انه لا حياد في السياسة وفي الصراع الطبقي ، كذلك لا حياد في الفلسفة . فالصراع بين المادية والمثالية يمتد حسب الايديولوجية الماركسية عبر تاريخ الفلسفة . وقد رافق ظهور التحولات الاجتماعية دوما احتدام الصراع الايديولوجي . فقد كانت فلسفة (الموسوعيين الفرنسيين) المادية بمثابة تحضير فكري للثورة الفرنسية . في حين ان الفلسفة المثالية الالمانية التي حمل لواءها كنت وفخته وهيجل،جاءت في نظر المادية التاريخية كرد فعل ارستوقراطي على الثورة الفرنسية، ولم يكن فيها من نفحات الثورة سوى (الديالكتيك الهيجلي) .

ان نظريتي المادية الجدلية والمادية التاريخية تشكلان انعطافا حاسما في تاريخ الفلسفة ، لانهما تتويج للصراع الفلسفي السابق في حياة الانسانية . فهما ليستا ملكا لنخبة مثقفة محدودة العدد ، بل هما تعبير عن مفهوم الطبقة العاملة عن العالم ، ودليل يساعد هذه الطبقة على تحقيق التحول الثوري في صورة العالم ، كما ان النظرية المادية تعتبر نفسها مزودة بمفهوم علمي يتآزر مع ادق اشكال الوعي الاجتماعي تعبيرا عن الحقيقة الموضوعية ، الا وهو العلم .

في الوقت الذي تعتبر فيه الماركسية الفلسفة البورجوازية ابان نهضتها ، وخاصة النزعة المادية في القرنين الثامن والتاسع عشر ، فلسفة تقدمية ، تعتبر الفلسفة البورجوازية الحالية فلسفة متهافتة متداعية ، لانها في نظر الماركسية تشجع النزعة اللاعقلانية الصوفية (التومائية) ، وتعمل جاهدة وبكل الوسائل للتقليل من قيمة العقل البشري .

الفن :

تنظر المادية التاريخية الى الفن ــ نظرتها الى سائر اشكال الوعي الاجتماعي ، على انه انعكاس للواقع . الا انه يختلف عن العلم في كون الحياة تنعكس فيه على شكل صور لا على شكل مفاهيم ، فالاثر الفني الواقعي يعبر بواسطة الشيء الفردي عما هو نموذجي في الحقيقة الواقعية .

فباعتباره شكلا من اشكال الوعي الاجتماعي ، يشكل الفن بنية فوقية ترتبط بقاعدة الهرم الاجتماعية والاقتصادية وتعبر عن مفهوم للعالم عند هذه الطبقة او تلك. وقد عبر (تشرنيشفسكي) احد الممثلين البارزين للمفكرين الثوريين الروس في القرن الماضي عن هذا الطابع الطبقي للفن بمقارنته النظرة الى الجمال لدى كل من الفلاح والرجل الارستوقراطي . ففي حين ان الارستوقراطي يرى الجمال في المظهر الناعم والقامة النحيفة والخدود الشاحبة للفتاة الارستوقراطية نجد الفلاح على العكس ينشد الجمال في الجسم الممتلىء القوي والخدود الموردة والحيوية التي تنضح صحة ونشاطا وقابلية للعمل لدى الفتاة القروية .

بيد ان الفن شأن جميع اشكال البنية الفوقية للهرم الاجتماعي ليس مجرد مظهر للحياة الاجتماعية ، بل هو ايضا عامل مؤثر فيها . وهذا التأثير يمكن ان يكون تقدميا او رجعيا حسب الطبقة التي ينتمي اليها الفن .

ان علم الجمال البورجوازي يدعي ان الجمال وحده هو موضوع الفن ، في حين ان التفسيرات الحديثة للمادية التاريخية تقول بأن الفن الواقعي خلال جميع العصور لم يكتف بالجمال وحده موضوعا له ، بل تناول القبح ايضا . والبورجوازية عندما تستبعد القبح من ان يكون ايضا موضوعا للفن، انما تقصد من وراء ذلك ابطال المفعول التقدمي للفن تجاه مجتمع الاستغلال .

وفي المجتمع الطبقي تمارس السياسة تأثيرا على الفن وكذلك الدين والاخلاق والعلم والفلسفة . لذلك يجب ان نقدر عند تحليل أثر فني طبيعة المجتمع الذي انبثق عنه . وما تدعيه النظريات البورجوازية من ان الفن مستقل عن المجتمع والسياسة ليس الا تخرصا . لان مثل هذا الفن لم يوجد ولن يوجد . حتى الاتجاه الشكلي للفن المحض ، ومبدأ الفن للفن لهما غرض اجتماعي هو تحويل الجماهير عن النضال السياسي لمصلحة الطبقات المستغلة .

ان التفسيرات الحديثة للمادية التاريخية تعتبر ايضا ان الفن والآثار الفنية تنطوي بالاضافة الى طابعها الاجتماعي على قيمة جمالية لا تزول . فأشعار غوته وبوشكين ، وموسيقى بيتهوفن وتشايكوفسكي ، ولوحات رافائيل وتيتيان، تستطيع ان تقدم لمختلف الاجيال وفي مختلف العصور متعا جمالية دائمة ، ذلك لان التصور الفني يحتوي كالعلم على عناصر من الحقيقة الموضوعية وعلى حكمة عملية خالدة . فالآثار الفنية التي تغوص الى اعماق الواقع وتترجمها الى عمل فني لا تفقد قيمتها ابدا . لان صراع القوى التقدمية ضد القوى الرجعية يحمل الى جانب المحتوى الخاص عناصر مشتركة بين كل العصور . ثم ان خلود الآثار الفنية الكبرى يرجع الى مظهرها الشعبي الذي يترجم رغبات الشعب وآماله واحلامه وتطلعاته الى العدالة ويخدم قضية تحرره من الظلم الاجتماعي . واخيرا فان المادية التاريخية تذهب الى حدود اعتبار الآثار الفنية الكبرى ممثلة لشيء انساني كوني بكف النظر عن الطبقة التي يمثل مفهومها للعالم . فالحب ، وحزن الام ، والصداقة ، والرفقة العقائدية ، والنضال ضد الظلم ، والبطولة والشجاعة .. الخ تمثل خطوطا عامة انسانية شاملة في كل أثر فني مبدع خالد .

ان تطور الفن حسب النظرية الماركسية ليس ملكا للصدفة ، بل على العكس يتم وفق قواعد محددة ترتبط بالتطور المعقد للمجتمع ، وان كانت عصور الازدهار الفني لا تتفق دوما ولا تتطابق مع مراحل التطور الكبرى للقاعدة المادية للمجتمع ، كما اشار الى ذلك كارل ماركس عندما اشار بصورة خاصة الى العصر اليوناني والى عصر شكسبير .

الا ان الآثار العظيمة لا تخلو من صلة وثيقة بالصراع الاجتماعي فآثار رافائيل وليوناردو دوفنشي وميكيل انجلو وشكسبير وسرفانتس وغوته وغوغول وبوشكين

وتولستوي كانت تعبر عن احتجاج على نظام الرق وعلى البورجوازية المستقلة .

وكما ان للبورجوازية فنها المعبر عن مصالحها الطبقية ، فان الفن الاشتراكي يعبر عن مصلحة الطبقة العاملة التي هي مصلحة الشعب ، لذلك اطلق ستالين على الكتّاب السوفييت اسم (صانعي النفوس) لان مهمتهم تربوية بالدرجة الاولى . ان طريقة الفن الاشتراكي هي (الواقعية الاشتراكية) التي هي امتداد وتطوير لافضل التقاليد الفنية الواقعية في الماضي التي تشجع التصورات الفنية للواقع المطابقة للحقيقة ، والمستندة الى التاريخ المشخص الحي في تطوره الثوري .

الاخلاق :

تعرف المادية التاريخية الاخلاق بانها مجموعة القواعد التي تحدد سلوك الافراد فيما بينهم وتجاه المجتمع . ان الحقوق تحتوي بدورها على قواعد تنظم الحياة المشتركة للافراد . الا ان الفرق بين الاخلاق والحقوق يرجع الى كون الحقوق تستند الى سلطة الدولة في القمع . في حين ان الاخلاق لا تعتمد الا على سلطة الرأي العام والقناعة العميقة للافراد والعادات .

لقد نشأت الاخلاق في عرف المادية التاريخية من حاجة المجتمع الى قواعد تنظم سلوك الافراد فيما بينهم . فالقواعد الاخلاقية اذن هي حاجات اجتماعية تتعلق بسلوك كل فرد من الافراد . وفي المجتمع الطبقي تأخذ الاخلاق طابعا طبقيا ، اي انها تعبر عن مصالح طبقية محددة . فأخلاق الطبقة المسيطرة تكون الاخلاق المهيمنة على المجتمع عن طريق المعبد والمدرسة والصحافة . الا ان الطبقة المضطهَدة تكوّن بدورها لنفسها مبادئها الاخلاقية الخاصة بها . فالاخلاق كبنية فوقية تعكس الشروط المادية لوجود المجتمع في الوجدان الاجتماعي . وكل تحول في القاعدة يؤدي الى تبدل في المبادىء الخلقية للبشر .

ان المجتمع الحالي يشتمل على وجود نظامين اخلاقيين : الاخلاق البورجوازية والاخلاق البروليتارية ، والماركسية تجد ان الفردية والانانية هما طابعا الاخلاق البورجوازية . ففي ظل البورجوازية ينظر كل فرد الى اقرانه نظرته الى الوسائل التي تساعده على تحقيق غاياته فهم موضوع للاستغلال . لذلك فان الانسان في الاخلاق البورجوازية يكون ذئبا للانسان .

ومصدر ذلك كامن في ان المجتمع البورجوازي مؤسس على الملكية الفردية . حتى الاخلاق الدينية لا تستطيع في رأي الماركسية ان تتغلب على انانية الاخلاق البورجوازية ، فهي تحاول ان تروضها وان تخضعها دون ان تنجح في ذلك لسبب بسيط وهو ان الخلاص الفردي الذي ينادي به الدين هو نفسه مصلحة فردية .

اما الاخلاق البروليتارية فهي في عرف المادية التاريخية الاخلاق التي تقضي على الانانية ، لانها اخلاق طبقة وليست اخلاقا فردية ، وهي تلغي الملكية الفردية وتحل محلها ملكية جماعية تكون اساسا للاخلاق الجماعية ، اخلاق التعاون والتضامن

المتبادل التي تربط المصالح الفردية بالمصلحة العامة . وهذه الاخلاق تتكون من خلال النضال ضد الاستغلال ومن خلال بناء المجتمع الجديد .

اما معيار الخير والشر فهو في راي لينين مرتبط بمصلحة النضال الطبقي للبروليتاريا . لذلك فان التفسيرات الحديثة للمادية التاريخية تعتبر الالتزامات والواجبات المترتبة على اعضاء المجتمع نابعة من متطلبات هذا النضال . فالشعور بالمسؤولية الاخلاقية سواء في السلوك الفردي او تجاه الاخرين وتجاه الوطن والانسانية ، هو جزء من الضمير الاجتماعي الذي يتشكل عبر النضال لمحو الاستغلال الطبقي في جميع مظاهره .

وقد عبر المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي عن مضمون الاخلاق الماركسية في (الدليل الاخلاقي لبناة الشيوعية) الذي اقره عام ١٩٦١ . ويتضمن هذا الدليل الاخلاقي المبادىء الرئيسية التالية :

١ ـ الاخلاص للقضية الشيوعية وحب الوطن الاشتراكي والبلدان الاشتراكية.
٢ ـ العمل المخلص لخير المجتمع : فمن لا يعمل لا يملك الحق في ان يأكل .
٣ ـ اهتمام الفرد بدعم الثروة الاجتماعية وتنميتها.
٤ ـ الشعور الكامل بالواجبات الاجتماعية وعدم التساهل تجاه التعدي على المصلحة العامة .
٥ ـ الروح الرفاقية الجماعية القائمة على اعتبار الفرد للمجموع والمجموع للفرد.
٦ ـ التصرف الانساني والاحترام المتبادل بين الافراد : فالانسان هو الصديق او الرفيق او اخ للانسان الاخر .
٧ ـ حب للحقيقة واخلاص لها ، استقامة في السلوك ، نقاوة في العادات وتواضع في الحياة الخاصة والعامة .
٨ ـ احترام متبادل داخل العائلة واهتمام بتربية الاطفال .
٩ ـ الصمود في وجه اعداء السلم واعداء حرية الشعوب واعداء الشيوعية .
١٠ ـ مقاومة الانتهازية والوصولية ودعاة التشويش والانقسام والخيانة .
١١ ـ التضامن الاخوي مع جميع عمال العالم ومع جميع الشعوب .

هكذا تعتبر المادية التاريخية الاخلاق الماركسية قمة التطور الاخلاقي ، لانها تقوم على قيم ذات مضمون انساني شامل .

الديـن :

ان العلم والفلسفة والفن والاخلاق ، كمظاهر للوعي الاجتماعي لا تاخذ شكلها الصحيح الا في ظل المجتمع الاشتراكي الشيوعي حسب النظرية الماركسية . ففي ظل المجتمع الطبقي لا بد ان يعتريها التزييف والانحراف والتشويه . اما الدين فليس له مكان في المجتمع الشيوعي . ذلك لان الدين في نظر الماركسية يستمد اصوله من شعور الانسان بالعجز امام قوى الطبيعة . ان هذا الشعور لا يعود له وجود في المجتمع الاشتراكي الشيوعي ، لذلك فان الدين لا يشكل بنية فوقية الا بالنسبة

لقاعدة الهرم الطبقي . اما في المجتمع اللاطبقي فان القاعدة الاقتصادية الاشتراكية لا تطرح اية مشكلة من طراز ديني . لذلك فان ما يتبقى في المجتمع الاشتراكي من آثار المعتقدات الدينية ومن المؤسسات الدينية انما هو في نظر الماركسية من متبقيات المجتمع الراسمالي .

ان الدين يلعب في نظر الماركسية دورا رجعيا ، والايمان بعالم آخر يعطي للطبقات المستغِلة سلاحا لاخضاع الجماهير الشعبية المضطهَدة عن طريق وعدهم بعالم افضل خارج هذا العالم .

لقد اقتبس كارل ماركس من الفيلسوف فيورباخ فكرته بأن الانسان هو الذي خلق الإله على صورته ومثاله وليس العكس . فالتصورات الدينية هي في راي الماركسية انعكاس للشروط المادية للمجتمع ولتطورها . فالانتقال من تعدد الآلهة في المجتمعات البدائية الى فكرة الاله الواحد قد تم مع نشوء الامبراطوريات التي تحرص على تحقيق الوحدة بين رعاياها . والمسيحية التي بدات ديانة للمضطهدين انتهت بتعاليمها عند الصبر والخضوع وحمل صليب الآلام الى ان اصبحت ديانة الطبقة المستغِلة المضطهدة في العهود الاقطاعية .

وما يزال الدين في العهود الراسمالية يلعب دوره في نظر المادية التاريخية في حجب الانظار عن قوانين التطور وفي تعطيل حركة الجماهير الثورية . لذلك فان الحرب على الدين يعتبر في نظر لينين (الف باء الماركسية وكل نظرية مادية) الا ان هذه الحرب يجب ان تستهدف بالدرجة الاولى في راي لينين القضاء على الاستغلال، اي على الاسباب الاجتماعية لوجود الدين .

ان انجلز يعتبر الدين مسألة شخصية ، ولينين يوافقه على هذا الراي من حيث علاقة (الدولة) بالمواطن ، هذه العلاقة التي تقتضي فصل الدولة عن الدين ، واعطاء كل مواطن حرية ممارسة الدين او الالحاد . الا ان لينين يخالف انجلز من ناحية علاقة (الحزب) بالمواطن ، هذه العلاقة التي لا تمنع ان يفرض الحزب على اعضائه القيام بحملة ضد الدين لتصفية آثاره عن طريق الدعاية العلمية .

القانون :

ان القانون ، كباقي اشكال الوعي الاجتماعي ، قد ظهر مع ظهور الطبقات والدولة . انه يمثل ارادة الطبقة المسيطرة مصوغة بتشريع يدافع عن مصالحها السياسية والاقتصادية. لقد عرف تاريخ المجتمع الطبقي المتناحر قانون ملاك العبيد والقانون الاقطاعيوالقانون الراسمالي واخيرا القانونالاشتراكي الذي يعبر عن مصالح الجماهير العاملة .

ومع ازدياد وعي (الشغيلة) ورفاهها ، تنضج الظروف من اجل ان يزول نهائيا خرق القوانين ، ويجري استبدال التدابير العقابية الجنائية بتدابير التأثير الاجتماعي والتربية . وبانتصار الشيوعية تندمج الحقوق بالواجبات وتسقط ضرورة القانون والدولة .

الفصل الرابع

نظرية الاقتصاد السياسي

بعد ان انتهينا من عرض نظريتي المادية الجدلية والمادية التاريخية ، ننتقل الى عرض نظرية الاقتصاد السياسي (١) .

حسب النظرية الماركسية يمكن تعريف الاقتصاد السياسي بانه (العلم الذي يبحث في تطور العلاقات الاجتماعية للانتاج ، ويحلل القوانين التي تتحكم في الانتاج وفي توزيع الخيرات المادية في المجتمع البشري خلال المراحل المتعددة لتطوره) . وعلى هذا الاساس ، فان ما يأخذه كارل ماركس على الاقتصاد السياسي البورجوازي

---

١ ــ ونعتمد في هذا العرض بالاضافة الى كتاب (راس المال) على ثلاثة مراجع رئيسية . اولها مؤلف (الاقتصاد السياسي) الذي استغرق تأليفه خمسة عشر عاما ، وخضع قبل ظهوره لمناقشة واسعة على مستوى عال اشترك فيها ستالين نفسه عندما ألف كتابه الاخير تحت عنوان (القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٢) وقد صدر هذا المؤلف بعد وفاة ستالين حاملا آراء القادة الموجهين بعد ستالين ، ثم اعيد طبعه عام ١٩٥٥ . واخيرا صدرت الطبعة الثالثة في نهاية عام ١٩٥٩ . يقع هذا المؤلف في سبعمائة صفحة ، خصص القسم الاول منه للاقتصاد السياسي للراسمالية والامبريالية ، في حين ان القسم الثاني يعرض للاقتصاد السياسي الاشتراكي .

اما المرجع الثاني (اسس الماركسية اللينينية) فهو يقع في ٧٧٤ صفحة ، الا ان البحث في الاقتصاد السياسي للراسمالية لا يشغل فيه اكثر من ٩٤ صفحة فقط . ان هذا القسم رغم ايجازه يعرض عرضا مركزا لنقد كارل ماركس للنظام الراسمالي ولنقد لينين للامبريالية . وهو مع المؤلف الاول يعتبران من أحدث المصادر في هذا الموضوع .

اما المرجع الثالث ، فهو الجزء الثاني من كتاب (الايديولوجية السوفياتية المعاصرة) لولفكان ليونار. الترجمة الفرنسية ، ١٩٦٥ .

هو جموده وسطحيته . فهو لا يعرف اي قانون عن تطور النظام الاقتصادي الاجمالي ولا يتمكن من معرفة ذلك طالما انه يعتبر النظام القائم كنظام طبيعي لا يمكن تصور امكانية وجود نظام آخر غيره . ثم ان الاقتصاديين البورجوازيين لم يدرسوا من الظاهرة الاقتصادية سوى قشرتها السطحية . اي سوى المرحلة الحالية من العلاقات الاقتصادية ويعتبرونها ثابتة . اما الحركة التاريخية الكائنة في باطن النظام الاقتصادي التي تقود الى دماره وتحوله ، فقد بقيت خارج ساحة ادراكهم .

فالاقتصاد السياسي يقوم اذن على تحليل الانتاج في أشكاله الاجتماعية المحددة تحديدا تاريخيا . وعرضه الكشف عن القوانين الاقتصادية الخاصة بكل نمط من انماط الانتاج . لان المفهوم الماركسي يعتبر ان لكل نظام اجتماعي قوانينه الاقتصادية التي حددتها شروط مستقلة عن ارادة البشر ، فهي ليست من ابداع احد ، كما لا يمكن تعديلها او ابطالها بصورة كيفية تحكمية .

ان التفكير الماركسي يعتبر الاقتصاد السياسي الماركسي متميزا تميزا كاملا عن كل النظريات الاقتصادية التي سبقته . فالاكتشافات الهامة التي تمت في هذا المجال على أيدي وليام بت (١٦٢٣ ــ ١٦٨٧) ، وآدم سمث (١٧٢٣ ــ ١٧٩٠) ودافيد ريكاردو (١٧٧٢ ــ ١٨٢٣) ، لم تكتشف تناقضات النظام الراسمالي بسبب ضيق نظرتها الطبقية ، فكان الاقتصاد السياسي الماركسي هو الكاشف عن تهافت الاقتصاد السياسي البورجوازي وعن تداعي الاساس الذي تقوم عليه الراسمالية ، وعن جذور الضياع الاجتماعي الكامن في الضياع الاقتصادي . فالاقتصاد السياسي الماركسي يعني الاشتراكية العلمية التي تبني الاشتراكية على معرفة يقينية صارمة ، تتيح التنبؤ والعمل العقليين ، وتنقذ الانسان من ضياعه وتجعله يعيش في ظل شروط خارجية انسانية تجعل مظهر الانسان مطابقا لماهيته .

وفي عرضنا للاقتصاد السياسي الراسمالي من وجهة النظر الماركسية يجدر ان نميز بين مرحلتين : المرحلة الاولى المعاصرة لماركس التي تتناول الراسمالية قبل ظهور الامبريالية . ونقد هذه المرحلة وتحليلها يعتمد بالدرجة الاولى على الجزء الاول من كتاب راس المال ، وبالدرجة الثانية على الجزئين الثاني والثالث من هذا الكتاب اللذين تولى انجلز نشرهما بعد وفاة ماركس ، وعلى نقد الاقتصاد السياسي الذي الفه ماركس عام ١٨٥٩ ، وعلى القسم الاقتصادي من كتاب انجلز **L'Anti - Duhring** .

والمرحلة الثانية تتناول النظام الراسمالي بعد ظهور الامبريالية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وتحليل هذه الفترة يعتمد بصورة اساسية على كتاب لينين عام ١٩١٦ (الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية) وغيره من الكتابات الاخرى ، كالاشتراكية والحرب . وشعار الولايات المتحدة الاوروبية . . .

١ ـ مرحلة الرأسمالية السابقة للاحتكارية

تحليل النظام الراسمالي :

بين عام ١٨١٥ و١٨٧١ ، تتحدد نقطتا الانطلاق والوصول لصعود الرأسمالية الحديثة . وقد كانت حركة التحول العامة للحياة الاقتصادية في أوروبا خلال السنوات الخمس والستين ، موضوع معايشة ودراسة وتحليل من كارل ماركس ، وخاصة ما يتعلق بالبؤس العمالي والرخاء الراسمالي الذي يعتبر الطابع الرئيسي لعصر مؤسس الماركسية .

ان الاقتصاد السياسي الماركسي يتناول في هذه المرحلة تحليل أسلوب الانتاج الرأسمالي ونظرية قيمة العمل والقيمة الفائضة ونظام الاجور والمعدل الوسطي للربح وتحديد الانتاج والازمات الاقتصادية ونظرية الافقار .

ان الرأسمالية في نظر الماركسية (نظام اجتماعي) يملك فيه عدد من الرأسماليين او التجمعات الراسمالية وسائل الانتاج الاساسية في حين ان العمال الذين يشكلون العدد الكبير لا يملكون فيه شيئا ويخضعون لاستغلال الراسماليين فيزدادون فقرا كلما ازداد انتاجهم حجما لان انتاجهم ينتزع منهم كما لو كان النتاج قوة مستقلة عن المنتج . ثم يتحول منتوج العامل الى قوة معادية له ، لانه يتحول الى راسمال يشكل اداة لاستغلال قوة عمله . فالعمل في ظل الراسمالية يصنع القصور للاغنياء والاكواخ للعمال .

في هذا النظام يقوم أسلوب الانتاج كما يرى كارل ماركس على المبدأ التالي : ان الشروط الموضوعية للانتاج موكولة لاولئك الذين لا يعملون ويتمتعون بملكية لرأس المال وبملكية للاشياء . اما الجماهير العاملة فهي لا تملك سوى الشرط الفردي للانتاج، اي ايديها العاملة . وهكذا فان النظام الاجتماعي الراسمالي في هذه المرحلة يرتبط بشرطين أوليين :

١ ـ بوجود كتل بشرية لا تملك وسائل الانتاج ولا وسائل البقاء ، مضطرة اقتصاديا لكي تكسب حياتها ، ان تبيع نفسها كأيدي عاملة مأجورة في معامل الرأسماليين . ففي هذا النظام لا ينتج العامل سلعا فقط ، بل ينتج ذاته كسلعة ايضا . فالعامل كإنسان يضيع ويصبح شيئا في الفعل الاقتصادي للانتاج .

٢ ـ بوجود مجموعة من الافراد يتمتعون برساميل ضخمة (وسائل انتاج وملكيات)

وهذان الشرطان هما محصلة (للتراكم الاصلي) في القرنين السادس عشر والثامن عشر ، حيث تم في ظل النظام الاقطاعي القديم نشوء طبقة من التجار نجحت في تجميع ثروات ضخمة ، واستطاعت خلال الثورات البورجوازية (في القرون السابع والثامن والتاسع عشر) ان تشكل في اوروبا الغربية الطبقة البورجوازية الموجهة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي .

ان نمط الانتاج الراسمالي يقوم على اساس (انتاج السوق) . اي ان السلع فيه

تنتج لتباع لا للاستعمال الفردي . فكل تحليل للراسمالية يبدأ بالبضاعة . تلك هي نقطة الانطلاق التي تبدأ منها مقدمة الجزء الاول من كتاب (راس المال) .

ان المنتجات ليست كلها بضائع . فالمنتوج لا يصبح بضاعة الا اذا كان انتاجه لغرض المبادلة او البيع ، لا للاستعمال الفردي او العائلي . فتعريف البضاعة اذن هو (الشيء الذي يلبي حاجة انسانية ما دون ان يكون انتاجه لغرض الاستهلاك الفردي ، بل للبيع) .

ويمكن ان نميز خاصتين تميز بهما البضاعة : (القيمة الاستعمالية) اي كونها تلبي حاجة بشرية محددة كالخبز للتغذية والقماش لتفصيل الملابس . و(القيمة التبادلية) اي قابليتها للتبادل مع بضاعة اخرى . فالبضائع مهما اختلفت تملك خاصية مشتركة وهي كونها من انتاج العمل البشري . لذلك فهي قيمة . والقيمة التبادلية التي تعبر عن العلاقات الكمية لتبادل البضائع ، ليست سوى المظهر الخارجي للقيمة الكامنة في البضاعة .

فالسلعة تمثل اذن الوحدة المباشرة بين القيمة الاستعمالية (الانتفاعية) وبين القيمة التبادلية التي هي في حد ذاتها عمل بشري اجتماعي . و(التبادل) هو الذي يبرز الميزة الاجتماعية للعمل . لان فيه تكمن العلاقة الحقيقية بين السلع .

وتتحدد قيمةالبضاعة بساعاتالعمل اللازمةاجتماعيا لانتاجها. ويقصد بذلك ساعات العمل التي تتوقف على المستوى الوسطي للتقنية والمهارة وشدة العمل . وبحكم التطور العام للتكنيك وزيادة انتاجية العمل وشدته ، فان كمية العمل الضرورية اجتماعيا لا بد ان تنقص وبالتالي ان تصبح البضائع ارخص من ذي قبل .

ان هذه الخاصية المزدوجة للبضاعة تعود الى كون العمل الضروري لانتاج البضائع هو نفسه ذو طابع مزدوج .

فالقيمة الاستعمالية الاستهلاكية الانتفاعية للبضاعة يخلقها عمل مهنة محددة ، فالطاولة يصنعها النجار ، والبزة يصنعها الخياط ، والاحذية الحذّاء (او صناعات النجارة والخياطة والاحذية في الاقتصاد الحديث) . ان هذا العمل يطلق عليه اسم العمل المشخص Travail Concret (العيني) .

الا انه بكف النظر عن طبيعة الشيء المصنوع ، فان العمل يتضمن دوما صرف طاقة جسدية او فكرية . فالعمل يخلق قيمة البضاعة بصورة مستقلة عن شكل انفاق اليد العاملة البشرية . وهذا العمل يطلق عليه اسم العمل المجرد Travail Abstrait

فالعمل المجرد والعمل المشخص هما مظهران للعمل الكامن في كلّ بضاعة . فالعمل المجرد يخلق القيمة ، والعمل المشخص يخلق القيمة الاستعمالية . والقيمة الاستعمالية تحتوي دائما على قوام طبيعي . اما القيمة التبادلية ، فانها لا تحتوي ابدا اي عنصر طبيعي ، وقوة العمل هي مصدرها الوحيد .

ان هذا الطابع المزدوج لقوة العمل في المجتمع البورجوازي يعكس في نظر الماركسية التناقض القائم بين العمل الفردي والعمل الجمعي لمنتجي البضائع . فقوة العمل العيانية المفردة تنتج القيمة الاستعمالية بينما تنتج قوة العمل الاجتماعية قيمة تبادلية .

فكلما اتسع تبادل مختلف البضائع، كلما اصبح من الضروري ايجاد معادل عام كلي équivalent universel لجميع البضائع ، اي ايجاد بضاعة يمكن مبادلتها بجميع البضائع الاخرى . ففي البدء استعملت الماشية وجلود الحيوانات والملح والنحاس والحديد ، واخيرا اقتصرت هذه الوظيفة على الفضة والذهب . (فالعملة) اذن هي بضاعة تشغل وظيفة المعادل العام لجميع البضائع الاخرى .

وبالاعتماد على كتابات كارل ماركس يميز الاقتصاد السياسي الماركسي وظائف خمس لهذا المعادل العام :

١ ــ فهو اداة لتحديد قيم البضائع اي اسعارها .

٢ ــ وهو وسيلة للتداول . فتبادل البضائع لا يتم ضمن مبدأ : بضاعة ببضاعة ، بل حسب مبدأ : بضاعة ــ دراهم ــ بضاعة .

٣ ــ وهو وسيلة للتراكم اي لتكوين الرساميل .

٤ ــ وهو وسيلة للدفع في حالة بيع البضائع بالاعتماد .

٥ ــ واخيرا هو عملة يمكن تداولها في مختلف البلدان .

ففي الاقتصاد الراسمالي التجاري القائم على الملكية الفردية وعلى المزاحمة ، لا يراعي الانتاج حالة السوق ، فالعرض والطلب في مثل هذه الحالة الفوضوية التي تفتقد الى منهاج ، لا يتوازنان الا بحكم الصدفة . واسعار البضائع تكون خاضعة للتبدل المستمر ، فهي اعلى او ادنى من القيمة النوعية لهذه البضائع . الا ان (قانون القيمة) الذي يتم بموجبه انتاج البضائع وتبادلها على اساس كمية العمل الضروري من الناحية الاجتماعية ، يقوم في ظل الراسمالية التجارية بالوظائف الثلاث الآتية :

١ ــ فهو ينظم نسب الانتاج الاجتماعي بين مختلف فروع الاقتصاد . فعندما يزيد العرض على الطلب ينخفض السعر بالنسبة لقيمة البضاعة ، واذا زاد الطلب على العرض بيعت بسعر اعلى من قيمتها . فتحت تأثير هذه التموجات في الاسعار ، يندفع منتجو هذه البضائع نحو فروع الاقتصاد التي تبدو لهم في فترة ما انها اكثر رواجا حيث اسعار البضائع تتجاوز قيمتها . مما يؤدي الى زيادة الانتاج وبالتالي زيادة العرض فتعود اسعار البضائع الى الهبوط عن مستوى قيمتها . ومن ناحية ثانية ينسحب منتجو البضائع من فروع الاقتصاد التي تكون فيها الاسعار دون قيمة البضائع مما يؤدي الى قيام ازمة في هذه الفروع وبالتالي الى ارتفاع اسعار بضائعها. فهذا الصعود والهبوط للاسعار ، ينظم قانون القيمة نسبة الانتاج في مختلف فروع الاقتصاد .

٢ ــ ان قانون القيمة يسوق الى تطور قوى الانتاج ويشجع على التقدم التكنيكي. ذلك ان المنتجين الذين يستخدمون تكنيكا متطورا في انتاجهم هم الذين ينتجون البضائع بكلفة اقل . الامر الذي يضطر المنتجين الآخرين لتحسين مصانعهم ايضا .

٣ ــ ان قانون القيمة يؤدي الى ازدياد خطورة التناقضات في الاقتصاد الراسمالي . فالهبوط السريع في اسعار البضائع بسبب ازدياد العرض ازديادا كبيرا، كثيرا ما يؤدي بالمنتجين الصغار الى الافلاس ، ويقوي الانتاج الى التمركز اكثر فاكثر

في يد قلة من الراسماليين .

وخلاصة القول فان نظرية ماركس في القيم ليست (نظرية في الاسعار) وليس هدفها تفسير الاسعار ، بل هي محاولة لتفسير كيفية استغلال العمل في ظل النظام الرأسمالي . وهذا ما يتجلى بشكل رائع في نظرية القيمة الفائضة .

نظرية القيمة الفائضة :

ان علم الاقتصاد ، البورجوازي ، يحترز من ان يترك مرض العلاقات الاقتصادية البشرية المميت يتراءى امام العيون . ولكن ماركس يكشف جميع جوانب هذا المرض عن طريق نظرية القيمة الفائضة. لذلك تعتبر نظرية القيمة الفائضة حجر الزاوية في الاقتصاد السياسي الماركسي ، كما ينظر اليها على انها تمثل القانـــون الاقتصادي الاساسي للراسمالية . ولعل الغرض الرئيسي للجزء الاول من (رأس المال) هو كشف ابعاد الاستغلال الذي يتعرض له العامل في النظام الرأسمالي ، والذي ينتج عن شراء قوة العمل كسلعة وقبض فضل القيمة المولدة من العمل ، وتكديس رأس المال .

ان نظرية القيمة الفائضة تنطلق من المبدأ التالي : وهو ان الراسمالي يبيـــــع منتجات معمله بمبالغ تتجاوز تكاليف المنتجات . ففي النظـــام الاقتصادي التجاري البسيط تباع بضاعة لشراء بضاعة اخرى . لان هدف هذا النظام ارضاء الحاجات ، وصيغته تتلخص في المعادلة التالية : بضاعة ـ عملة ـ بضاعة (بعب) . اما في ظل الراسمالية التجارية فالامر يختلف اختلافا كليا . فالبضاعة (او السلعة) لا تشترى لسد حاجة ما ، بل لكي يمتلك الرأسمالي عن طريق بيعها مبلغا يفوق المبلغ الـــذي صرفه لانتاجها . لذلك فان صيغة النظام التجاري الراسمالي تختلف ايضا . فمعادلته هي : عملة ـ بضاعة ـ عملة (عبع) . فالرأسمالي يشتري وسائل الانتاج واليـــد العاملة ، وينتج سلعا يبيعها ليحصل مبالغ لم يصرفها في بدء عملية الانتاج .

قد يطرح السؤال التالي : اذا كان تداول البضائع يتم بالنسبة الى قيمتها، فكيف تستطيع الراسمالية ان تربح قيمة اكبر ، طالما انها تشتري البضائع وتبيعها بقيمتها؟ الا ان الماركسية تجيب على هذا السؤال بان الرأسمالي قد وجد في السوق بضاعة من نوع خاص تملك خاصية انتاج قيمة اضافية ، وهذه البضاعة هي اليد العاملة التي تشكل مصدرا لقيمة جديدة . ان انتاج السلع وتداولها المتطور (اي التجارة) تشكل الظروف التاريخية لنشوء رأس المال . والامر المهم بالنسبة لرأس المال ليس عملية الانتاج للقيم الاستعمالية ، بل الاستثمار ، اي انتاج القيم التبادلية التي يستطيع ان ينترع منها قيمة اكبر من تلك التي يضعها فيها . فالطلب على القيمة الفائضة لا يعرف شبعا .

ان اليد العاملة تعني في الاقتصاد السياسي الماركسي (مجموعة القابليـــات البدنية والفكرية التي يحتاج اليها الانسان في عمليات انتاج الخيرات المادية) . وككل بضاعة تملك اليد العاملة بدورها قيمة . وقيمة اليد العاملة تتحدد بمجموع الحاجات

الحيوية الضرورية لتعويض القوى التي يصرفها العامل (كالتغذية واللباس والسكن والتدفئة ...) وبالحاجات الحيوية الضرورية للعناية بأسرة العامل وتربية ابنائه وتعليمهم لضمان تجديد اليد العاملة في المجتمع تجديدا دائما مستمرا . فالبضاعة التي يطلق عليها اسم اليد العاملة تتميز اذن عن البضائع الاخرى في كونها ينبوعا لانتاج قيم جديدة لا يدفع عنها الراسمالي المستغل اي مقابل ويستغلها على شكل ارباح . ان هذا الفرق الذي يكدسه الراسمالي في جيوبه هو القيمة الفائضة . فكما ان السلعة تركيب (او اتحاد مباشر) للقيم الاستعمالية والقيم التبادلية ، كذلك فان عملية انتاج السلع تركيب لعملية العمل وعملية خلق القيمة . وتتوقف عملية انتاج القيمة عند النقطة التي تستبدل فيها قوة العمل المدفوعة على شكل اجور بقدر مساو من القيمة . وبعد هذه النقطة ، تتحول هذه العملية الى عملية انتاج للقيمة الفائضة اي الى عملية استثمار .

فالقيمة الفائضة تعرف اذن بأنها (القيمة التي يبدعها العامل المأجور بالاضافة الى قيمة يده العاملة والتي يمتلكها الراسمالي مجانا دون تعويض) . فالقيمة الفائضة تتألف من الفرق بين القيمة التي يستطيع العمل ان يخلقها والقيمة التي يسميها ماركس (قيمة قوة العمل) والتي على الراسمالي ان يدفعها الى العامل لقاء خدماته. فالقيمة الفائضة هي الفرق القائم بين قيمة قوة العمل المبذولة في صناعة المنتوج وبين قيمة منتوج العمل .

ان انتاج القيمة الفائضة هو في نظر الاقتصاد السياسي الماركسي الهدف الرئيسي للانتاج الراسمالي . فالجشع والنهم الى الربح هو قانون هذا النمط من الانتاج . وظهور القيمة الفائضة مرتبط بظهور راس المال . وراس المال لا يقصد به كل كمية من وسائل الانتاج او كل كمية من الدراهم . فتلك لا تصبح رساميل الا اذا استخدمت في مرحلة معينة من مراحل التطور التاريخي كوسائل لاستغلال العمل المأجور . فتعريف راس المال اذن هو (القيمة التي تحصل القيمة الفائضة بواسطة استغلال العمال المأجورين) . فراس المال ليس بحد ذاته وسيلة للانتاج ، بل هو علاقة اجتماعية بين الطبقات الرئيسية في المجتمع البورجوازي انه علاقة استغلال بين مالكي وسائل الانتاج وبين العمال المأجورين .

ويجب التمييز بين مظهرين يتجلى فيهما راس المال : (راس المال الثابت) الذي يتكون من الاموال المنفقة على وسائل الانتاج (ابنية ، ماكنات ، مواد اولية ، محروقات) و(راس المال المتحول) الذي يقابل تكاليف اليد العاملة ، وبه يتم شراء قوة العمل .

ان هذا التمييز بين مظهري راس المال ضروري لان راس المال المتحول وحده هو الذي ينتج القيمة الفائضة . والعلاقة بين القيمة الفائضة وراس المال المتحول تشير الى درجة استغلال العمال من قبل الراسماليين ، وتدعى معدل القيمة الفائضة Taux de la plus - Value .

ويمكن زيادة القيمة الفائضة بطريقتين : اولاهما باطالة يوم العمل او بزيادة شدة العمل (صرف الطاقة أثناء العمل) . وهذا ما يطلق عليه كارل ماركس اسم

(فضل القيمة المطلقة) اما الطريقة الثانية فتكون بتقليص (العمل اللازم) اي ساعات العمل اللازمة لتجديد انتاج اليد العاملة . وهذا ما يسمى (فضل القيمة النسبية) .

ان ماركس يميز بين (ساعات العمل الضرورية) و(ساعات العمل الاضافية) ، اي بين العمل اللازم والعمل الاضافي . فساعات العمل الضرورية تعني الساعات التي يخلق فيها العامل القيم التي يحتاج اليها لتجديد انتاج يده العاملة ويتلقى عليها اجرا. اما ساعات العمل الاضافية فهي التي ينتج العامل خلالها القيمة الفائضة .

فتقليص ساعات العمل الضرورية يمكن ان يتم بصورة خاصة في فروع الصناعة التي تنتج السلع الاستهلاكية ، حيث يرافق ارتفاع الانتاجية في هذه الفروع من الصناعة تدني في اسعار المواد الاستهلاكية واسعار تجديد اليد العاملة ، وحيث يرافق قصر ساعات العمل الضرورية طول ساعات العمل الاضافية .

الاجور :

ان البحث في انتاج القيمة الفائضة ، المطلق والنسبي ، قد كان اساسا لتطوير اول نظرة عقلانية في الاجور في تاريخ الاقتصاد السياسي .

ان اليد العاملة شأن كل بضاعة اخرى تباع بسعر محدد يعادل قيمة هذه البضاعة . وسعر اليد العاملة هو الاجرة Le salaire . ان الاجرة في نظر الاقتصاد السياسي الماركسي ليست ثمن العمل المنجز ، بل هي مجرد (سعر اليد العاملة) ، فهي شكل مقنع لقيمة هذه اليد العاملة ، وليست ابدا كما تبدو للوهلة الاولى انها سعر (قوة العمل) . ان العمل هو جوهر كل القيم ، ولكنه لا قيمة له بحد ذاته في النظام الراسمالي القائم على مواصلة صناعة (فائض القيمة) .

لذلك يمكن ان نميز داخل الاجرة بين عنصرين : عنصر يشمل (ثمن تجديد انتاج اليد العاملة وتعهد اسرة العامل) ، وعنصر آخر تاريخي او اجتماعي يتعلق بالمستوى الثقافي وبالعادات وبشروط وجود العمال في بلد وعصر محددين . وهذا العنصر الاخير يرتبط بنجاح الحركة العمالية في نضالها من اجل تحسين الاجور وشروط العمل .

ان الاجرة تبدو في شكلين : الشكل الاول هو (الاجرة على الساعة) وهو يتوقف على الزمن الذي يصرفه العامل لانجاز العمل . والشكل الثاني هو (الاجرة على القطعة) وهو يقوم على كمية البضائع المنتجة . وفي كلا الحالين ينتج العامل قيمة تزيد عما ينال من اجر ، ويبيع قوة عمله للراسمالي بمقابل (سد الرمق) .

فالعامل الذي يشتغل بالقطعة يجد من مصلحته ان يزيد شدة العمل لكي يزيد في اجرته . الا انه لا يحصل على هذه الزيادة الا خلال فترة قصيرة، ذلك ان المزاحمة بين العمال انفسهم وخطر البطالة ، يسمحان للراسمالي ان يعيد النظر في تعرفة الاجور عن القطعة .

اما العامل الذي يشتغل بالساعة ، فيجد نفسه خاضعا لايقاع محدد في العمل يفرضه الراسمالي بواسطة الآلة ، ويزيد بواسطته شدة العمل الى حدوده القصوى.

ان زيادة شدة العمل تتطلب زيادة في اليد العاملة وبالتالي زيادة في الاجور . الا ان زيادة الاجور كما يقول ماركس هي بشكل مألوف دون زيادة شدة العمل . لذلك فان زيادة الاجور في النظام الراسمالي لا يمكن ان تكون الا ثمرة للنضال العمالي . لانها عملية تكيف تأتي متأخرة دوما عن الزيادة في قيمة اليد العاملة .

ان نضال الطبقة العاملة من اجل زيادة الاجور عمل هام في نظر الماركسية ، ويمكن ان ينجح حتى في حالات معزولة. الا ان هذا النضال لا يتصدى الا لآثار النظام الراسمالي ولا يصيب اسباب الاستغلال نفسها ولا يقضي عليها . فلا بد اذن من قلب النظام الراسمالي حتى تزول تلك الاسباب .

الربح الوسطي :

ان الراسمالي يحسب ربحه على مجمل راس المال . لكن القيمة الفائضة والتي هي مصدر الربح ، لا ترتفع الا نتيجة لاستغلال العمل المنتج وحده ، اي راس المال في شكله (المتغير) . لذلك يميز الاقتصاد السياسي الماركسي بين (معدل فضل القيمة) وبين (معدل الربح) . فمعدل فضل القيمة يعني العلاقة بين فضل القيمة وراس المال المتحول معبرا عنها بالنسبة المئوية . فاذا كان هناك معمل يدفع مليون ليرة في السنة اجورا ويحقق في نفس المدة فضل قيمة يعادل /١٫٢/ مليون ليرة . فان معدل فضل القيمة يكون ١٢٠٪ .

اما معدل الربح فهو العلاقة بين فضل القيمة وبين الراسمال الاجمالي Capital global معبرا عنها بنسبة مئوية . فاذا كان راس المال الاجمالي خمسة ملايين ، وكان راس المال الثابت ٤٫١ مليون ، وراس المال المتحول ٩٠٠،٠٠٠ والقيمة الفائضة ٥٠٠،٠٠٠ ، يكون معدل الربح :

$$\frac{\text{فضل القيمة}}{\text{راس المال الاجمالي}} = \frac{٥٠٠٠٠٠}{٥٠٠٠٠٠٠} = ١٠٪$$

ان معدل الربح يكشف لنا عن مدى الارباح التي يجنيها المشروع الراسمالي .

وبما ان تحقيق الربح يعتبر المحرك والهدف الرئيسي لكل راسمالي . وغاية الانتاج الراسمالي تحقيق الربح لا سد حاجات السكان . وبالتالي فان انظار

الراسماليين واهتماماتهم تتركز بالدرجة الاولى على زيادة الربح ، لذلك كان معدل الربح بمثابة القوة المحركة للانتاج الراسمالي الذي لا ينتج الا المنتوجات التي تدر الربح .

وبما ان معدل الانتاج لا يتوقف فقط على راس المال المتحول (اي المبالغ التي تدفع لشراء اليد العاملة) بل على راس الملل الثابت ايضا (الابنية والآلات) ، فان الرساميل، تبعا لاختلاف العلاقة بين راس المال الثابت وراس المال المتحول يمكن ان تعطي بالنسبة لمعدلات (فضل قيمة) متساوية ، (معدلات ربح) مختلفة ، فمثلا في المعامل التي تملك معدات تكنيكية من الطراز الاول ، ويشكل فيها (راس المال الثابت) حجما كبيرا ، يكون معدل الربح دون معدل الربح في المعامل الاخرى التي يكون فيها راس المال الثابت صغيرا و(راس المال المتحول) كبيرا .

الا ان قانون المعدل الوسطي للربح يتدخل ويفرض نفسه عن طريق المزاحمة التي تقوم بين الراسماليين سواء في بيع البضائع او استثمار رؤوس الاموال . فالراسماليون يضعون رؤوس اموالهم حيث يكون الربح اكبر ، ويسحبون رؤوس اموالهم من المشاريع ذات الربح البسيط ، ويحولونها الى مشاريع اخرى . ان هذه الحركة وهذا التموج للرساميل يؤدي الى تعادل معدلات الربح والى نشوء المعدل الوسطي للربح .

ان المعدل الوسطي للربح يتغير مع الزمن ، الا انه يشكل خلال حقبة طويلة خطا عريضا ثابتا داخل كل قطاع اقتصادي . وهو يرمز الى تضامن الراسماليين في عملية استغلالهم للطبقة العاملة . بيد ان الطموح الى حذف ميل (معدل الربح) الى الانخفاض لا بد ان يصطدم بالرغبة في ايجاد اسواق للانتاج المتزايد للسلع . اي ان التناقض بين رغبة الراسماليين في الحصول على أرباح عن طريق ابقاء الاجور منخفضة ، وبين رغبتهم في بيع انتاج الصناعة المتزايد ، هو في نظر ماركس اشد التناقضات الملازمة للانتاج الراسمالي اهمية . وهو السبب الجذري للانهيار المتوقع للنظام الراسمالي حين لا تبقى امامه فرصة لايجاد اسواق جديدة ويعجز عن التغلب على ازماته .

قانون التراكم :

ان الابحاث التي قام بها ماركس في الجزئين الثاني والثالث من (راس المال) تكشف عن النتيجة الحتمية لحركة راس المال ، الذي يندفع بسرعة ، بفعل نهمه وتوقه الى التراكم والنمو ، مخترقا حدود الاستهلاك نحو ازمته الدائمة . فالازمات هي النتيجة الطبيعية الملازمة للانتاج الراسمالي .

ان تكرار عمليات الانتاج لسد حاجات المجتمع المتجددة هو ما يطلق عليه اسم تكرار الانتاج او تجديده **La Reproduction** . وهذا التكرار يتحقق داخل نطاق

المشروع الصناعي الضيق ، كما يمكن ان يتحقق على صعيد المجتمع ككل. لذلك يمكن التمييز بين التكرار البسيط Reproduction Simple وبين التكرار الموسع Elargie ففي البسيط تسد المنتجات الجديدة مسد السلع المستهلكة . اما في التكرار الموسع، فان الامر يتعدى حدود تعويض السلع المستهلكة الى انتاج سلع انتاجية وسلع استهلاكية . وهذا التكرار الموسع هو طابع الانتاج الراسمالي . ففي نهاية عملية الانتاج لا يملك العامل سوى يده العاملة ، في حين ان الراسمالي يملك راس المال ، كما يملك القدرة على استخدام عمال بالاجرة .

على هذا الاساس يمكن تقسيم الانتاج الاجتماعي بمجموعه الى زمرتين :

١ — انتاج وسائل الانتاج .

٢ — انتاج وسائل الاستهلاك .

بين هاتين الزمرتين يجب ان تقوم علاقة محددة بين الرساميل وبين معدل فضل القيمة حتى يكون التطور الاقتصادي في منجاة من الاضطرابات .

ففي عملية التكرار البسيط للانتاج في النظام الراسمالي يجب ان يعادل مجموع راس المال المتغير وفضل القيمة في الزمرة الاولى ، راس المال الثابت في الزمرة الثانية .

اما في عملية التكرار الموسع ، فان مجموع راس المال المتحول وفضل القيمة في الزمرة الاولى يجب ان يكون اكثر من راس المال الثابت في الزمرة الثانية . وهذه الزيادة تستخدم من اجل التراكم ، اي من اجل توسيع حجم الانتاج للحصول على وسائل انتاج اضافية ، بحيث ينمو راس المال الثابت بسرعة اكبر من راس المال المتحول . وهكذا فان القانون العام للتراكم الراسمالي يعني ان الجزء المتغير من راس المال ، اي الجزء الذي يتحول الى قوة عمل ، هو الذي ينمو ، وينمو معه عدد الراسماليين وتزداد البروليتاريا .

ان التوازن الضروري للتكرار الموسع لا يمكن ان يتحقق الا في ظل الازمات الاقتصادية وخلال فترة محددة قصيرة. ذلك ان هدف الانتاج الراسمالي هو تحصيل اكبر قدر ممكن من الربح بواسطة وسيلة معاكسة لهذا الهدف وهي توسيع الانتاج . فهذا التوسيع يؤدي الى زيادة راس المال الثابت الذي لا ينتج فضل القيمة بالنسبة الى راس المال المتحول الذي ينتجها ، وبالتالي الى انخفاض معدل الربح ، وعندما يحاول الراسماليون ان يتلافوا هذه النتيجة بزيادة الانتاج يصطدمون بحاجز لا مفر منه : وهو عدم امكانية التوازي بين حاجات الاستهلاك المحدودة وبين توسيع الانتاج. فالكمية الهائلة من البضائع التي تطرح في السوق تزيد عن حاجة الاستهلاك وعندئذ تبدأ الازمة .

ان الازمات حسب المفهوم الماركسي ظواهر مرافقة لنمط الانتاج الراسمالي . فهي تتكرر خلال فترات محدودة تتراوح بين ٨ سنوات و١٢ سنة . كما حصل في سلسلة الازمات التي بدات في انجلترا عام ١٨٢٥ ثم تتابعت في جميع البلدان المتطورة صناعيا : ١٨٢٥ ، ١٨٣٦ ، ١٨٤٧ — ١٨٤٨ ، ١٨٥٧ ، ١٨٦٦ ، ١٨٧٣ ،

١٨٨٢ ، ١٨٩٠ ، ١٩٠٠ ــ ١٩٠٣ ، ١٩٠٧ ، ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ ، ثم الازمة العالميــة (١٩٢٩ ــ ١٩٣٣) و (١٩٣٧ ــ ١٩٣٨) . وبعد الحرب العالمية الثانية نقف ايضا على ازمات : ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ ، ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ و ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ .

فالازمات الاقتصادية هي في نظر الماركسية عنصر من عناصر الدورة الاقتصادية في النظام الراسمالي . وهي تتالف من اربع مراحل :

١ ــ في هذه المرحلة يظهر التناقض بين توسع الانتاج وتقهقر الطلب ، فيتراكم فائض الانتاج من البضائع ، ويحدث انخفاض عنيف في الاسعار ، وازمة حادة في المدفوعات ، وتضطرب الاعتمادات ، وينهار وضع المنتجين الصغار والمتوسطين ، وتنتشر موجة من الافلاسات ، وتعظم البطالة ، ثم تنخفض اجور العمال الذين ما زالوا مستخدمين ، وعندئذ تدفع الازمة ، بعد ان تكون قد هدمت بعض الراسماليين الى التوفيق بين حجم الانتاج وبين الطلب دفعا قسريا ، فالازمات كما يقــول كارل ماركس في الجزء الثالث من راس المال «ليست سوى حلول عنيفة مؤقتة للتناقضات القائمة مهمتها اعادة التوازن المفقود ، لفترة زمنية قصيرة» .

٢ ــ ان المرحلة الثانية للازمة ، هي المرحلة التي تزداد خلالها شدة العمل وتعمد فيها بعض المعامل الى اصلاح جهازها التكنيكي مما يؤدي الى تحسين احــوال المشروعات الصناعية التي تنتج هذه الاجهزة والمعدات الآلية والماكنات اللازمة للمعامل الاخرى ، والى بدء توفر شروط الترميم .

٣ ــ ان المرحلة الثالثة هي مرحلة الترميم . ففيها تستعيد المشروعات الصناعية من حيث الانتاج المستوى الذي كانت عليه قبل الازمة ، ويبدأ معدل الربح بالارتفاع.

٤ ــ في هذه المرحلة الاخيرة التي هي مرحلة النهوض من الازمة ، تبدأ الشروط المهيئة للازمة الجديدة مع بداية النهوض من الازمة السابقة، فتنشأ مشروعات صناعية جديدة وترتفع الاسعار ويتسع الانتاج . فكل ازمة اذن تحمل معها بذور ازمة لاحقة.

ان تراكم راس المال اي اضافة قسم من فضل القيمة الى راس المال ، او تحول قسم من فضل القيمة الى راس مال ، هو الشرط الممهد للتكرار الموســع للانتاج . وهذه الظاهرة (ظاهرة التراكم) تكون مصحوبة بانخفاض نسبي في الطلب على اليد العاملة على الرغم من التكاثر العددي للبروليتاريا الذي يزداد مع نمو الراسمالية ، فلا تجد اليد العاملة فرصة لكي تعمل ، وينشأ جيش احتياطي للصناعة ، جيش العاطلين الذين يتركهم النظام الراسمالي بانتظار فترات النهوض من الازمات لكي تتوفر لهم أمكانية العمل المؤقت .

هكذا يؤدي تراكم راس المال الى تجميع الثروات وحصرها في ايد قليلة ، كما يؤدي الى استفحال الاستغلال والبطالة والبؤس من جهة ثانية لدى العدد الاكبر من ابناء المجتمع . ويتجلى هذا الوضع الخطير الذي تصل اليه شروط حياة الطبقــة العاملة في عمليات الافقار Appauvrissement النسبي والمطلق ، التي سبق ان اشرنا اليه اشارة عابرة .

ان الافقار النسبي يأتي من كون ارباح الراسماليين تصعد بسرعة اكبر من اجور

العمال . فمشاركة الاجور في الدخل القومي تتناقص شيئا فشيئا في حين ان ارباح الرأسماليين تتزايد بشكل دائم ، مما يؤدي الى اتساع الهوة بين رفاه الرأسمالية وشقاء الطبقة العاملة .

وقد اشار لينين عدة مرات الى نظرية الافقار النسبي فالثروة الاجتماعية في رايه تزيد في التفاوت الاجتماعي وتعمق الهوة بين طبقة المالكين (البورجوازية) وبين البروليتاريا . وقد كشفت الاحصائيات عن ان أجور العمال في الولايات المتحدة الامريكية قد انخفضت من ٦٩ بالمئة عام ١٨٩٩ الى ٦١ بالمئة عام ١٩١٩ ، الى ٤٨بالمئة عام ١٩٢٩ والى ٤٥ بالمئة عام ١٩٣٩ .

وهذا الافقار النسبي يبقى قائما حتى عندما يحصل العمال بنضالهم على زيادة في الاجور او على مزيد من التأمينات والضمانات الاجتماعية .

اما الافقار المطلق فيتجلى في انخفاض مستوى معيشة الطبقات العاملة انخفاضا مطلقا . فالعامل كما يقول لينين هو دوما أفقر من ذي قبل ومضطر لان يعيش دوما في ظروف اسوأ وان يتغذى ويسكن ضمن شروط تزداد سوءا . فالثروة الاجتماعية تزيد في افقار الجماهير الكادحة . فأجور العمال في انجلترا وفي الولايات المتحدة وفي فرنسا وفي ايطاليا وفي بلدان رأسمالية اخرى خلال القرن العشرين هي اقل مما كانت عليه في منتصف القرن التاسع عشر .

الا اننا نلاحظ عبر الطبعات الثلاث لكتاب الاقتصاد السياسي الذي صدر في الاتحاد السوفياتي (١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ ــ ١٩٥٨) تطورا في نظرية الافقار المطلق فلم يعد ينظر الى هذه الظاهرة كقانون ، ولم يعد ينظر الى أجور العمال وحدها كمقياس لمستوى المعيشة ، وانما يكتفي بالاشارة الى ان تكاثر شدة العمل وخطورة شروط العمل هي التي تجعل انفاق الطاقة البدنية والعصبية فوق مستوى زيادة الاجر .

حتى ان كتاب أسس الماركسية اللينينية الذي صدر عام ١٩٥٩ لا يعطي أمثلة من الافقار المطلق ويسخر من الادعاء القائل بأن أجور العمال حاليا هي منخفضة عنها في مطلع القرن العشرين .

من خلال هذا العرض للرأسمالية في المرحلة قبل الاحتكارية، يتبين ان الاقتصاد السياسي الماركسي يعتبر ان هناك اتجاها تاريخيا تسير فيه الرأسمالية . فالقانون الداخلي لهذا النظام هو الذي يسوقه الى مرحلة التمركز في رؤوس الاموال داخل شركات مغفلة . فالمشاريع الصناعية الكبرى تمتص المشاريع الصغرى ، ويخلق قانون تركز رؤوس الاموال وتمركزها الشروط التي تؤول الى قلب هذا النظام والى الانتقال الى النظام الاشتراكي . فالتطور التكنيكي ينعكس على الانتاج وتصل وسائل الانتاج الى درجة من التطور يصبح معها من المستحيل على مجموعة او على مجموعات من الافراد ان تستخدمها وتقودها ، لان هذه الوظيفة تجعل عملية تحويل ملكيتها الى ملكية اجتماعية ضرورة اساسية من ضرورات التطور الاجتماعي .

ان قانون تمركز رأس المال لا يخلق الشروط الموضوعية للانتقال من النظام الرأسمالي الى النظام الاشتراكي فحسب ، بل ويخلق الشروط الذاتية الاولية لعملية

الانتقال هذه ، لانه يؤدي ايضا الى تركز العمال في المعامل والى انتظام الطبقة العاملة والى اندلاع الثورة الاجتماعية .

فالقانون العام للتمركز الراسمالي يشكل الاساس الاقتصادي لجعل ثـــورة البروليتاريا ضرورة لا مفر منها .

وهكذا فان كارل ماركس يكشف من خلال تحليلاته لظواهر (عملية انتاج راس المال) في الجزء الاول من كتاب راس المال ، و(عملية تداول راس المال) في الجـــزء الثاني ، و(السير الاجمالي لعملية الانتاج الراسمالي) في الجزء الثالث عن طبيعة هذا النظام القائم على استغلال الطبقة العاملة والذي ينطوي على مقومات انهياره وقيام النظام الاشتراكي .

٢ ـ المرحلة الاحتكارية

Le Capitalisme Monopoliste

بعد ان انتهينا من عرض القسم الاول من نظرية الاقتصاد السياسي الماركســي الخاص بالمرحلة السابقة للمرحلة الاحتكارية من النظام الراسمالي ، ننتقل الى المرحلة الثانية . فقد بلغت المرحلة الاولى الاوج في السنوات السبعين من القرن التاسع‌عشر، وبدأت الراسمالية مع اواخر هذا القرن وبداية القرن العشرين تدخل مرحلة جديدة هي المرحلة الاحتكارية او الامبريالية التي تشكل موضوع القسم الثاني من نظريـــة الاقتصاد السياسي الماركسي .

نظرية الامبريالية :

ان نظرية الاقتصاد السياسي الماركسي الخاصة بهذه المرحلة تعتمد بالدرجـــة الاولى على كتاب لينين (الامبريالية، اعلى مراحل الراسمالية) الذي صدر عام١٩١٦ . والقسم الهام من هذا المؤلف مخصص لدراسة التبدلات التي طرات على النظـــام الراسمالي منذ عهد كارل ماركس . واهم هذه التبـدلات يتلخص في سيطــــرة الاحتكارات الراسمالية على الاسواق محل المزاحمة الحرة ، وتجاوز هذه الاحتكارات للاطارات القومية لتاخذ طابعا عالميا يشمل العالم كله . وقد رافق ذلك كله الغزوات الاستعمارية وعمليات تصدير الرساميل بشكل متزايد الى البلدان المتخلفة اقتصاديا، والاندماج على نطاق واسع بين الراسمال الصناعي والراسمال المصرفي . ويكمــل لينين هذا التعداد لخصائص هذه المرحلة الجديـدة ، فيصف الامبريالية بأنهـــا راسمالية طفيلية في حالة تفسخ وتفكك واحتضار .

وما تزال نظرية لينين بعناصرها الرئيسية التي عددناها والتي سنتناولهـا بالتفصيل ، تعتمد اساسا في التحليل الماركسي للامبريالية رغم التطورات التـي طرات على الامبريالية في المرحلة الحالية .

ان الانتقال من مرحلة الراسمالية السابقة للمرحلة الاحتكارية الى مرحلـة الامبريالية قد كان مسبوقا بتهيئة لعب فيها عامل تركيز الانتاج وعامل التطور السريع في قوى الانتاج الدور الرئيسي . فالطرق الجديدة في الانتاج ، والآلات الجديـدة ذات المردود العالي ، وتطور المعارف العلمية ، والتكنيكية ، بالاضافة الى النهضـة التي عرفتها الصناعات الالكتروتكنيكية والكيماوية ، ساهمت جميعها في ظهـور الراسمالية الاحتكارية مع بداية القرن العشرين في جميع البلدان المتقدمة صناعيا .

وهذه المرحلة الاحتكارية الجديدة تتميز عن المرحلة السابقة حسب مفهوم لينين، بالخصائص الخمس الآتية :

١ ـ تمركز الانتاج وراس المال :

ـ «ان تمركز الانتاج وراس المال قد بلغ درجة عالية من التطور ادى الى خلـق احتكارات تلعب دورا حاسما في الحياة الاقتصادية» .

ويمكن تعريف الاحتكارات بانها مشروعات راسمالية ضخمة تركز في ايديها قسما هاما من الانتاج او من الاسواق لتصريف نوع معين من الانتاج ، وهذا التركيز يسمح لها بالحد من المزاحمة وفرض اسعار احتكارية عالية ، وتحصيل ارباح احتكاريـة فاحشة . ومن اشكال هذه الاحتكارات : الكارتل والتروست والكونسورتيوم . وهي قد لا تقتصر على احتكار فرع واحد من فروع الصناعة ، بل تتعدى ذلك الى احتكار عدة فروع يكون انتاجها قابلا للتبادل كالفحم والبترول والكهرباء .

ان المزاحمة لا تتوقف داخل الاحتكارات ، بل تظهر على شكل صراع داخلـي للحصول على المراكز الحساسة داخل ادارة المشاريع ، ولامتلاك اكثرية الاسهم وكذلك في توزيع الارباح .

كما ان سيطرة الاحتكارات وتفوقها تؤول الى ازدياد التناقضات في النظـام الراسمالي فالتناقض بين الشكل الجماعي للانتاج والشكل الفردي لملكية وسائـل الانتاج يصل الى حافة الانفجار .

٢ ـ راس المال المالي :

تكون ظاهرة تمركز الانتاج مصحوبة بظاهرة اخرى مماثلة وهي تمركز راس المال المصرفي ، وحلول المؤسسات المصرفية الاحتكارية محل العديد من المصارف الصغيرة.

فيدخل راس المال المصرفي كشريك في ملكية المشاريع الصناعية ، كما ينفذ راس المال الصناعي الاحتكاري الى البنوك ، وتتبدل العلاقة بين المصارف والصناعة ، فيتحد راس المال المصرفي براس المال الصناعي ويؤلفان راس المال المالي . وتصبح مفاتيح الاقتصاد في يد قلة ضئيلة من كبار الصناعيين والمصرفيين يطلق عليها اسم (الاوليغارشية المالية) (١) .

٣ ـ تصدير رؤوس الاموال :

ان تصدير رؤوس الاموال يكتسب اهمية خاصة في هذه المرحلة . ففي حين كان (تصدير البضائع) خاصة مميزة للمرحلة السابقة ، يصبح (تصدير رؤوس الاموال) هو طابع المرحلة الاحتكارية . وهي تصدر بالدرجة الاولى الى البلدان المتخلفةاقتصاديا حيث أجور اليد العاملة واسعار المواد الاولية ووسائل النقل منخفضة ، الامر الذي يسمح للراسمال الاحتكاري ان يحقق أرباحا اضافية ضخمة ، ويجري تصدير رؤوس الاموال بطريقتين : اما عن طريق الاستثمار المباشر ، اي بانشاء المشروعات الصناعية والمصرفية والتجارية أو عن طريق القروض الرسمية او الاعتمادات الفردية.

ان تصدير رؤوس الاموال لا يشكل في نظر الاقتصاد السياسي الماركسي مساعدة للبلدان المتخلفة بل هو (احد اعمدة نظام الاضطهاد الامبريالي الذي يسمح لحفنة من الدول الغنية المتسلطة ان تستغل قسما كبيرا من العالم) كما يقول كتاب (الاقتصاد السياسي) السوفياتي (٢) . فقبل الحرب العالمية الاولى ، كانت انجلترا وفرنسا والمانيا أهم الدول في تصدير رؤوس الاموال . الا ان الخارطة السياسية تبدلت بعد الحرب العالمية الاولى وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، فاصبحت الولايات المتحدة على رأس الدول المصدرة للرساميل .

ان تصدير رؤوس الاموال يسوق حسب نظرية الاقتصاد السياسي الماركسي الى منافسة حادة بين القوى الدولية الكبرى من اجل الحصول على الاستثمارات الهامة للرساميل المصدرة . ومن الظواهر الخاصة بالمرحلة الراهنة هي ان راس المال الاحتكاري في الولايات المتحدة لا يصدر للبلدان المتخلفة فحسب ، بل حتى للبلدان التي هي تقليديا بلدان راسمالية كانجلترا وفرنسا والمانيا الغربية .

٤ ـ تدويل الاحتكارات :

ان الخاصة الرابعة للمرحلة الاحتكارية في رأي لينين هي «تشكيل الراسماليين

---

١ ـ (الاوليغارشية) تعبير يوناني يقصد به حكم الاقلية .

٢ ـ راجع الهامش في اول الفصل . ص ٦٨ .

الاحتكاريين للمؤسسات الاحتكارية ذات الطابع العالمي الهادفة لاقتسام العالم» .

فتزايد تصدير رؤوس الاموال مع تطور وسائل المواصلات الدولية ، يخلق الشروط الملائمة للاتفاقات بين الاحتكارات الكبرى في مختلف البلدان ، لرسم سياسة للاسعار ولحجم الانتاج ولتوزيع الاسواق . وقد كان عدد هذه الاحتكارات الدولية لا يتجاوز الاربعين في نهاية القرن التاسع عشر ، الا ان هذا العدد بلغ المائة قبيل الحرب العالمية الاولى ، ووصل الى ثلاثمائة قبيل الحرب العالمية الثانية .

ان الاحتكارات الدولية تعبر حسب المفهوم الماركسي عن التناقضات التي تقوم بين مجموعات الاحتكاريين وبين الدول التي تدعمهم ، وعن موازين القوى المتبدلة بشكل مستمر . لذلك فهي تحمل طابع القلق وعدم الاستقرار لانها تنطوي دوما على احتمالات الصدام .

٥ ـ مناطق النفوذ :

في هذه المرحلة يتم تقسيم العالم كله الى مناطق نفوذ بين الدول الرأسمالية ، حسب راي لينين .

فالى جانب اقتسام الاتحادات الاحتكارية العالمية للسيطرة الاقتصادية على العالم تتم السيطرة السياسية عليه واقتسام مناطق النفوذ . وهذا ما حصل فعلا في الثلث الاخير من القرن الماضي . فبين أعوام ١٨٧٦ و١٩١٤ ، اصبحت القارة الافريقية بمجموعها ومعظم القارة الآسيوية ، مستعمرات خاضعة للدول الامبريالية .

الا ان ما يميز السيطرة الامبريالية ليس وجود المستعمرات بحد ذاتها فحسب ، بل وجود اشكال اخرى من السيطرة شبه الاستعمارية ووجود التبعية الاقتصادية والسياسية الكاملة داخل اطار الاستقلال الشكلي . ففي هذه المرحلة تصبح الراسمالية نظاما عالميا تستغل فيه حفنة من الدول المتقدمة الغالبية العظمى من شعوب الكرة الارضية .

في مطلع القرن العشرين تم اقتسام العالم ولم يعد ثمة مجال للحصول على مناطق اخرى ، وهكذا تحول الصراع على اقتسام مناطق النفوذ الى صراع من اجل تقسيم جديد للعالم .

(تناقضات الامبريالية)

الامبريالية رأسمالية طفيلية في حالة التفكك (او التفسخ)

حاول لينين ان يبرهن ايضا على ان الامبريالية (راسمالية طفيلية في حالة التفكك) . فالظواهر الطفيلية تظهر بوضوح شيئا فشيئا عندما يصطدم التطور الاقتصادي بعقبة الاحتكارات وعندما تحل الرجعية السياسية محل الديموقراطية

البورجوازية والبرلمانية ، وتعمل الاحتكارات على خلق طبقة عمالية ارستوقراطية تعمل لحسابها .

في ظل المرحلة السابقة للاحتكارية كان الراسمالي لا يستطيع التغلب على منافسيه الا بتحسين شروط انتاجه . اما في المرحلة الاحتكارية فيتبدد هذا العامل المحرض على التقدم التكنيكي . فالاحتكاريون يستطيعون ان يوطدوا مركز احتكاراتهم في الاسواق دون تخفيض للاسعار وأن يقضوا على مزاحميهم بشتى وسائل الضغط المباشر او غير المباشر ، كما انهم يقدمون على الحد من الانتاج بشكل مصطنع ورفع الاسعار والارباح وبالتالي اعاقة التطور التكنيكي .

الا ان هذه النظرية قد طرأ عليها بعض التعديل ، فالمراجع الماركسية الحديثة التي أشرنا اليها، لم تعد تربط بين الجمود والتفكك **Stagnation et decomposition** وبين التقهقر العام في قوى الانتاج ، لان قوى الانتاج استمرت في التطور حتى في ظل الامبريالية . ثم لان ظاهرة التفكك التي تعتري الراسمالية في هذه المرحلة لا تنفي النمو السريع للراسمالية . فخاصة التفكك تتجلى في صفة الطفيلية المتنامية التي تطبع الراسمالية في هذه المرحلة . اذ تنمو طبقة مالكي الاسهم بشكل محسوس ، ويصبح احتكاك الراسماليين بالانتاج غير مباشر ، وتسلم ادارة المشاريع الصناعية للمدراء المختصين وللجهاز الفني .

اما على الصعيد السياسي ، فالامبريالية تتصف بانها عملية انتقال من الديموقراطية البورجوازية الى الرجعية السياسية . فكما ان الديموقراطية البورجوازية تتفق ومرحلة الرأسمالية الاولى التي تقوم على المزاحمة الحرة ، كذلك فان نظام السيطرة والتبعية الرجعي يتفق والمرحلة الثانية الاحتكارية للراسمالية . فالاحتكارات المسيطرة على الحياة الاقتصادية تضع نفسها تحت تصرف السلطات السياسية التي تلتزم الخط السياسي الرجعي الذي تفرضه هذه الاحتكارات .

ان الرجعية السياسية تجد التعبير الكامل عن اتجاهها في النزعة الفاشية باعتبارها «دكتاتورية البورجوازية الاحتكارية الارهابية» ، هذه النزعة التي بدأت تظهر بعد الحرب العالمية الثانية في كل من الولايات المتحدة والمانيا الغربية وفرنسا وفي بلدان اخرى ، وتحمل من بين مظاهرها بروز الطابع العسكري في السياسة وتعاظم تأثير التيارات الفاشية التخريبية والصهيونية والاضطهادات العرقية . وهذه الرجعية السياسية تأتي من كون الاقتصاد الراسمالي لا يتطور في خط صاعد . فالاتجاهات الرجعية هي نتيجة لتعاظم التناقضات الراسمالية في المرحلة الامبريالية.

يضاف الى ذلك كله ان خاصة التفكك في عصر الامبريالية تتجلى ايضا حسب المفهوم الماركسي في محاولة الراسماليين المرسومة لافساد قسم من العمال الفنيين عن طريق رفع مستوى أجورهم وتعويضاتهم بغية خلق طبقة (ارستوقراطية عمالية) متميزة عن الطبقة العمالية . وهذه الطبقة العمالية الجديدة تشكل الاساس الاجتماعي للانتهازية داخل الحركة العمالية ، هذه الانتهازية التي تحاول في رأي لينين ان تحول الطبقة العاملة عن الصراع الطبقي ، وتدعي وجود مصالح مشتركة بين العمال

والراسماليين ، وتكتفي بالمناداة باصلاح الراسمالية . هكذا يشكل الانتهازيون داخل الحركة العمالية عملاء البورجوازية لتحويل هذه الحركة عن خط سيرها التاريخي الطبيعي .

وهذه الاموال التي تصرف لافساد العمال تؤخذ من الارباح الفاحشة التي يحصلها الراسماليون من المستعمرات ومن شعوب العالم المتخلف الفقير المستغَل المضطهَد .

الامبريالية راسمالية في حالة الاحتضار :

في ظل الامبريالية تستفحل كافة التناقضات الاساسية للنظام الراسمالي ، واهم هذه التناقضات :

١ ــ التناقضات بين العمل وبين راس المال .

٢ ــ التناقضات بين الشعوب المستعمَرة او شبه المستعمرة ، وبين السلطات الامبريالية التي تستغلها .

٣ ــ التناقضات بين القوى الامبريالية نفسها .

ان استفحال هذه المتناقضات لا يعني ان الراسمالية ستتلاشى بشكل عفوي وستنهار بصورة آلية . بل يعني حسب المفهوم الماركسي ان الامبريالية هي المرحلة التي يتطور فيها النظام الراسمالي ويصل الى تخوم الثورة البروليتارية. فالامبريالية تهيء عن طريق جماعية الانتاج ، الشروط المادية التي يتطلبها الانتقال الى الاشتراكية عندما تستولي البروليتاريا على السلطة وتتحول الملكية الفردية لوسائل الانتاج الى ملكية جماعية . وهذا لا يتحقق على شكل تطور عادي ، بل على شكل قفزة ثورية داخل اطار التطور التاريخي .

لقد اوصلت تحليلات كارل ماركس وفريدريك انجلز الراسمالية في مرحلتها السابقة للاحتكارية ، الى النتيجة التالية : وهي ان الثورة سوف تنتصر وتتحقق في آن واحد في جميع البلدان الراسمالية ، او على الاقل في اهمها .

اما الايديولوجية الماركسية المعاصرة فتعتمد على نظرية لينين في الامبريالية لتصل الى النتيجة التالية : وهي أن الثورة تشتعل في بلد ما او في عدد قليل من البلدان ثم تنتشر فتعم باقي البلدان . وهي تعتمد في هذا التقدير على قانون التفاوت وعدم التساوي في التطور الاقتصادي والتطور السياسي . فلا تطور المشروعات الصناعية على مختلف انواعها ، ولا تطور فروع القطاعات الصناعية المختلفة، يخضعان وحدهما لقانون التفاوت هذا ، بل ان تطور البلدان الراسمالية بمجموعها يخضع لهذا القانون ايضا . ففي ظل الراسمالية في مرحلتها الاولى (السابقة للاحتكارية) نجحت الدول الصناعية المتقدمة في السيطرة على معظم المستعمرات . وعندما دخلت الراسمالية مرحلتها الثانية (الامبريالية) وظهرت قوى صناعية جديدة (خاصة المانيا

واليابان) بحاجة هي ايضا الى مواد اولية والى اسواق لتصريف بضائعها ، كان لا بد ان يتفجر صراع على مستوى عالمي تخرج منه هذه القوى وقد ازداد بعضها قوة وازداد الاخر ضعفا . فشبكة البلدان الراسمالية تضم حتى في عصر الامبريالية اعضاء اقوياء وآخرين ضعفاء .

ان تفاوت التطور الاقتصادي بين بلدان العالم هو الذي يجعل وصول بلدان العالم الى مرحلة النضج السياسي الذي تحتاجه الثورة الاشتراكية متفاوتا ايضا . ان البلدان الراسمالية في ظل الامبريالية تنقسم الى قوية وضعيفة ، لذلك فان البروليتاريا المناضلة تستهدف تحطيم السلسلة الاستعمارية عن طريق حلقات الضعف فيها . وهكذا فان الثورة لا يمكن ان تنجح في الوقت نفسه في جميع البلدان ، بل ان مختلف البلدان تتبع بعضها البعض في التزام الخط الاشتراكي .

ان الاقتصاد السياسي الماركسي يعتبر الامبريالية المرحلة التي يصاب فيها النظام الراسمالي بأزمته العامة ، وعلى خلاف الازمات الدورية تتناول هذه الازمة جماع النظام الراسمالي على الصعيد العالمي ، وتشمل الى جانب الناحية الاقتصادية والسياسية ، الناحية الايديولوجية .

لقد بدات هذه الازمة العامة في راي ستالين ، خلال الحرب العالمية الاولى ، وتعاظمت هذه الازمة عندما تحرر الاتحاد السوفياتي من النظام الراسمالي اثر هذه الحرب . وهذه الازمة تظهر من خلال الحروب والثورات وفي الصراع بين الراسمالية المحتضرة وبين الاشتراكية الصاعدة ، ومن خلال انحلال النظام الاستعماري من جراء صراعاته الداخلية ومن خلال البطالة .

ان هذه الازمة العامة تمتد حسب المفهوم الماركسي خلال حقبة تاريخية تعاني فيها الامبريالية ضربات الثورات والانفجارات الاقتصادية والسياسية المستمرة حتى تضمحل وتتلاشى نهائيا بقيام المجتمع الاشتراكي في العالم اجمع .

٣ ـ المرحلة الحاضرة

راسمالية الدولة الاحتكارية :

بعد الحرب العالمية الثانية ، خضعت نظرية الامبريالية ونظرية الازمة العامة للنظام الراسمالي لمحاولات التطوير والتوسيع بحيث يستوعب المفهوم الماركسي مسلمات المرحلة الحاضرة .

فقد تحولت الراسمالية الاحتكارية الى راسمالية الدولة الاحتكارية Capitalisme Monopoliste D'état ودخلت الازمة العامة للنظام الراسمالي في المرحلة الثانية، فكان لا بد للايديولوجية الماركسية ان تأخذ بعين الاعتبار هـــــذه التبدلات ، وان تستوعبها . لذلك نجد مؤلف (أسس الماركسية ــ اللينينية) الذي صدر في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٩ يعمد الى هذه المحاولة ، فيشير الى الدور المتعاظم للدولة في الاقتصاد ، والى دخول النظام الراسمالي في مرحلة جديدة وكذلك ازمته العامة .

نشأت الراسمالية الاحتكارية للدولة من اتحاد القوى الاحتكارية الراسماليـــة بالسلطات العامة . فالراسمال الاحتكاري يستخدم هذه السلطات للسيطرة الكاملة على الحياة الاقتصادية وتحقيق أرباح احتكارية ضخمة ، ولدعم سلطته الاقتصادية والسياسية .

لقد كان في وسع النظام الراسمالي ان يقوم بمهماته دون دعم الدولة ، قبل ان يدخل مرحلة الازمة العامة ، الا ان هذه الحال قد تغيرت مع بدء هذه الازمة على اثر الهزات العنيفة التي سببتها الحروب العالمية . فأصبح استمرار النظام الراسمالـــي وتأمين سير الانتاج وتحويل التجارة ، رهن باتحاد الاحتكارات مع سلطة الدولة .

ان الخصائص التي تطبع راسمالية الدولة الاحتكارية تتلخص في وقـــوع الاحتكارات تحت أسر الازمة وفي بروز الطابع العسكري وفي استفحال البطالـــة وكذلك الظاهرة الطفيلية التي تجعل الراسماليين بعيدين عن العلاقة المباشرة بالانتاج. اما السلطة ، فما هو رئيسي فيها يتجمع في ايدي المحتكرين الكبار ، وتقـــوم ديكتاتورية المائة عائلة الغنية ، سواء كانت هذه الديكتاتورية مباشرة او غير مباشرة .

لقد لاحظ لينين اول بوادر احتكارية الدولة خلال الحرب العالمية الاولى (وخاصة في المانيا) ، ولم يعتبرها ظاهرة عابرة ، بل نظر اليها على انها بدء مرحلة جديدة حقا. فالمؤلفات الكاملة للينين تكشف عن انه منذ عام ١٩١٧ يتكلم عن عصر تحول الراسمالية الاحتكارية الى راسمالية الدولة . وقد عجلت الازمة الاقتصادية العالمية بعد الحرب العالمية الاولى (١٩٢٩ ــ ١٩٣٣) بهذا التحول ، اذ بدات الاجراءات الرسمية لتنظيم الاقتصاد والحيلولة دون تكرر هذه الازمة ، تعلن عن دخول مرحلة تدخل الدولـــة المباشر في توجيه الاقتصاد .

وخلال الحرب العالمية الثانية تآزرت الاحتكارات الدولية مع السلطات العامـــة لتنظيم اقتصاد الحرب ، الامر الذي ادى بعد نهاية هذه الحرب الى نشوء التركيب الاقتصادي الجديد للنظام الراسمالي متمثلا براسمالية الدولة الاحتكارية التي تتميز:

١ ــ بالتحام الدولة بالاحتكارات الى درجة يصعب معها تحديد الحدود الفاصلة بينهما . اما المزاحمة فتأخذ أشكالا جديدة ، حيث تتنازع الاحتكارات الكبرى النفوذ على ميزانية الدولة ومصروفاتها وأموالها ، والاشراف على مختلف قطاعات الحكم .

٢ ــ بتسلم ممثلي الاحتكارات للمراكز الحساسة في الدولة وفي مقاعد الحكـم وفي السفارات .

٣ ــ بمحاولة الدولة توجيه الاقتصاد الراسمالي وجهة جديدة ، وزيادة ميزانية

الدولة لتفادي الهزات الاقتصادية ، كما ان الدولة تسخر السوق الوطنية لتصريف منتجات الاحتكارات .

٤ – بتقديم الدولة المساعدات المالية للاحتكارات (وخاصة الكونسورتيوم) التي تنتج السلع الضرورية للحرب ، والمواد الاولية الضرورية ذات الاهمية الستراتيجية كالمنتجات الكيماوية والطاقة الذرية .

٥ – بتوسيع ملكية الدولة وباستلامها للمشروعات الضخمة التي تتعلق بالصناعات الالكترونية والطاقة الذرية وغيرها من الصناعات الحديثة التي يحتاج انتاجها الى رساميل ضخمة .

٦ – بقيام قطاع مختلط بين ملكية الدولة وملكية الاحتكارات الخاصة .

٧ – بتدخل الدولة في الخلافات بين الراسماليين والعمال تدخلا فعالا ، وحل الاضرابات عن طريق التحكيم الالزامي الذي يدعم مصالح الاحتكاريين .

٨ – بقيام المشروعات الاحتكارية للدولة على اساس عالمي يجعل من الاتفاقات الدولية وسيلة لخدمة الاحتكاريين كما هو الحال في السوق المشتركة وفي الشركة الاوروبية للفحم والفولاذ .

٩ – بتوجيه الاقتصاد لخدمة التسلح وزيادة الضرائب على الشعب والحد من الانتاج ومن الخدمات الاجتماعية والثقافية .

اما التأميمات التي تلجأ اليها الدول الرأسمالية ، فهي في نظر الاقتصاد السياسي الماركسي عملية مالية لا تمس جوهر الاستغلال الرأسمالي بل تكتفي بتبديل شكله . ففي التأميمات الرأسمالية لا تتحول الملكية الى ملكية للشعب ، بل تبقيها في يد الرأسماليين . وهي لا تبدل شيئا في طبيعة النظام الراسمالي لانها تبقي على طبقة الراسمالية وطبقة ذوي الاجور، بل هي على العكس تزيد في تأمين مصالح الاحتكارات وتصل بها الى حدها الاعلى ، ولا تأخذ بعين الاعتبار سوى الحد الادنى من متطلبات الطبقة العاملة .

فالدولة الراسمالية تدير المشاريع المؤممةوفق مصلحة الطبقة المسيطرة بمجموعها وان لم تتفق هذه المصلحة دوما ومن كل النواحي مع جهود واهداف مختلف الاحتكارات والتروستات والكونسورتيومات .

الازمة العامة للنظام الراسمالي :

دخلت الامبريالية في المرحلة الحاضرة – اي بعد الحرب العالمية الثانية – في المرحلة الثانية من الازمة العامة للنظام الراسمالي . فقد الحقت الحرب الاخيرة ضربة كبرى في النظام الرأسمالي في مجموعه .

فقد تحولت موازين القوى بين النظام الاشتراكي والنظام الراسمالي لمصلحة الاشتراكية . ذلك ان النظام الاشتراكي لم يكن له وجود قبل الحرب العالمية الثانية

سوى في بلد واحد ، هو الاتحاد السوفياتي حيث يعيش 1/8 سكان العالم . وكان هذا النظام يشكل جزيرة محاطة من كل جوانبها ببلدان راسمالية معادية . اما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد اصبح النظام الاشتراكي يمتد على مجموعة من الدول في القارة الاوروبية وفي آسيا . ويشكل معسكرا يضم مليارا من البشر ، اي ما يعادل نصف سكان الارض تقريبا . كما ان اكثر من مليار من البشر قد تحرروا في قارتي افريقيا وآسيا من السيطرة الاستعمارية وساهموا عن طريق الحركات القومية الثورية بتهديم النظام الاستعماري .

ان هذا التحول في القوى لا بد ان يكون لصالح الاشتراكية ، ولا مجال للشك في ذلك في رأي لينين طالما ان روسيا والهند والصين تستوعب معظم سكان الكرة الارضية ، وهي تشهد مسرح الصراع الرئيسي من اجل التحرر من النظام الراسمالي.

يضاف الى هذا التحول في موازين القوى ، ظهور التناقضات الجديدة بين البلدان الامبريالية . فقد خرجت المانيا واليابان وايطاليا مهزومة عسكريا بعد الحرب ، وخرج قسم من القوى الراسمالية الظافرة (انجلترا وفرنسا) ضعيفا . في حين ان الولايات المتحدة خرجت من الحرب وهي على حال من القوة وضعتها على راس الدول الراسمالية . لذلك فان الاوساط الاحتكارية في الولايات المتحدة تستغل هذا الوضع في توسيع سيطرتها الاقتصادية والسياسية حتى على حلفائها .

وعلى الرغم من التدابير التي تلجأ اليها الراسمالية الاحتكارية للدولة لتفادي انفجار الازمات عن طريق مراقبة النظام المصرفي وتحديد معدل الفوائد ومساعدة بعض فروع الصناعة على تثبيت اوضاعها وفتح مجالات لتصريف الانتاج لاسيما بواسطة المجهود الحربي ، الى آخر ما هنالك من ابواب النشاط السياسي ـ المالي للدولة ، فانها لا تستطيع ان تفعل اكثر من تغطية الامراض الكامنة التي تنخر في قلب النظام الراسمالي . وهي لا تستطيع ان تستأصل اسباب الازمات وأن تقضي عليها .

فطالما وجد التناقض بين الطابع الجماعي للانتاج وبين الطابع الراسمالي والفردي للملكية ، اي طالما وجدت الراسمالية ، لا بد ان تقوم الازمات ، وقد تتخذ هذه الازمات اشكالا متعددة ، الا انها واقعة لا مفر منها . لذلك فان عدم وقوع ازمات اقتصادية في اوروبا الغربية وفي الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية يرجع الى اسباب عرضية . اذ ما كان يمكن حصول تضخم في الانتاج طالما ان التخريب الذي خلفته الحرب لم يرمم بعد . وما يكاد هذا الترميم يتم حتى تبدأ ملامح الازمة في الظهور . ففي عام ١٩٥٨ سجلت ارقام الانتاج تقهقرا في كل من المانيا الغربية وانجلترا وهولندا والنروج واليابان وفرنسا وايطاليا . هذا من جهة . ومن جهة ثانية فان الماركسية لا تدعي ان الدورات الاقتصادية تشابه بعضها بشكل مطلق ، وان خصائص الازمات لا يعتريها التغيير والتبديل . انما مهمة الماركسية ان تزيل من الاذهان الوهم القائل بان الراسمالية يمكن ان تنمو وان تتطور دون ازمات ، وان تبرهن ان السبيل الوحيد لتجاوز ازمات الراسمالية والانتصار عليها يكمن في الاشتراكية .

التناقضات الطبقية في ظل الراسمالية الاحتكارية للدولة :

ان الانتقال من الراسمالية الاحتكارية الى راسمالية الدولة الاحتكارية ، يعزز في راي الماركسية التناقضات الطبقية . فاستغلال الطبقة العاملة يستشري عن طريق زيادة شدة العمل الذي يؤدي الى تخفيض اليد العاملة .

والزيادة الاسمية للاجور تفقد قيمتها عن طريق زيادة الضرائب والتكاليف . وحتى في حالات ارتفاع الاجور بشكل فعلي فان هذه الزيادة لا تقابل زيادة قيمة اليد العاملة زيادة غير عادية عن طريق زيادة شدة العمل والمصاريف الضخمة الضرورية لتجديد اليد العاملة . كما ان ارتفاع مستوى حياة الطبقة العاملة في بعض البلدان لا ينجم عن عدم وجود اتجاه للافقار ، بل يرجع فقط لشروط ما بعد الحرب الملائمة لنضال الطبقة العاملة من اجل الحفاظ على مصالحها الاقتصادية . وهذا التحسن في شروط حياة العمال لا يعني التقليل من التناقض بين العمل وراس المال ، لان التناقضات السياسية قد تضاعفت بحكم سيطرة الاحتكارات . هذه التناقضات التي تهدد السلم والديمقراطية . يضاف الى ذلك ان التحولات التي طرات على الوضع الاقتصادي للطبقات المتوسطة بفقدانها لاستقلالها الاقتصادي ولامتيازاتها السابقة (طبقة الموظفين المستخدمين والفنيين والعلماء والاختصاصيين ...) تدخل هذه الطبقات حسب النظرية الماركسية ، في المزيد من التناقض مع الاحتكارات ، وتحولها من موقف الدعم للسيطرة الراسمالية الى موقف المحالف للطبقة العاملة .

اما طبقة الراسماليين ، فمع تقدير المؤلفات الماركسية الحديثة لاهمية التدابير التي تتخذ في البلدان الخاضعة لنظام راسمالية الدولة الاحتكارية لزيادة الضرائب على دخول الراسماليين واتخاذ التدابير الاقتصادية التي تقيد من سلطة الطبقات المالكة ، الا ان المراجع الماركسية ترى ان هذه التدابير لم تبدل شيئا في طبيعة المركز الذي يحتله الراسماليون ، لان الاحتكارات من جهة اتقنت الاساليب التي تتمكن بواسطتها من فرض نفسها ، ولان الدولة من جهة ثانية تعوض على الاحتكارات بفتح مجالات لزيادة الارباح الاحتكارية .

اما الحديث عن ثورة الاداريين والفنيين المختصين بادارة المشاريع Révolution des Managers فلا ترى له الماركسية اساسا . ذلك ان تسليم الراسماليين ادارة المشاريع الصناعية لطبقة الاختصاصيين في الادارة لا يبدل شيئا في حقيقة الاوضاع ، لان السيطرة الحقيقية على الانتاج تبقى لمن يملكونه لا للذين يديرونه .

ان التبدل الوحيد الحقيقي الذي طرا على التكوين الطبقي في ظل راسمالية الدولة الاحتكارية خلال السنوات الاخيرة يكمن في نظر الماركسيين في اتساع الفوارق داخل الطبقة الراسمالية نفسها . فالاحتكارات الضخمة التي تسخر الدولة اكتسبت مركزا ممتازا لا على المجتمع بشكل عام فحسب ، بل وعلى باقي الراسماليين ايضا . فقد اصبح من العسير على الراسمالي المتوسط او الكبير ان يرتقي الى ادارة التروستات

trusts والكونسورتيومات Consortiums فعلى راس المجتمع لا توجد زمر متبدلة من الراسماليين ، بل زمرة واحدة احتكارية ليست مسؤولة امام احد ، تعتمد على زمرة ضئيلة من الاداريين ، والبيروقراطيين والعسكريين الذين يرتبطون بهـا ارتباطا وثيقا . ففي مثل هذه الشروط يجد الراسماليون الصغار والمتوسطـون انفسهم امام وضع متناقض : فهم من جهة راسماليون مستغلون ، وهم مـن جهة ثانية خاضعـون لسيطرة واستغلال المؤسسـات الاحتكارية من تروستـات وكونسورتيومات .

وهكذا فان راسمالية الدولة الاحتكارية لا تؤدي الى خلق الفوارق داخل الطبقة الراسمالية فحسب بل والى خلق التصدع في داخلها ايضا .

المرحلة التاريخية الاخيرة للراسمالية :

بالاستناد الى هذا التحليل ، تخرج الماركسية بالنتيجة التالية : وهي ان جميع التدابير التي يلجأ اليها الراسمال الاحتكاري لانقاذ النظام الراسمالي لا تؤدي الى حل تناقضات هذا النظام ، بل الى تعاظمها والى تصدع بنيته الداخلية . فالمعسكـر الراسمالي الامبريالي عاجز عن الحيلولة دون التحول الدائم في موازين القوى لمصلحة المعسكر الاشتراكي فقد فشلت كل الجهود لاضعاف هذا المعسكر ، كما فشلت كـل المحاولات لوقف انهيار النظام الاستعماري . وذهبت عبثا المخططات التي استهدف بها الراسمال الاحتكاري الغاء الصراع الطبقي داخل مناطق نفوذه .

اذن فتحويل الراسمالية الاحتكارية الى راسمالية احتكارية للدولة ، ليس مـن شانه ان ينقذ نظاما لا سبيل الى انقاذه ، اذ لا مجال للوقوف في وجه التطور ، او للتحايل على التاريخ . فلا بد ان تكون مرحلة راسمالية الدولة الاحتكارية نهاية المطاف في حياة النظام الراسمالي ، لانها توفر الشروط المادية للانتقال المباشر الى النظـام الاشتراكي .

وقد نشرت مجلة (الازمنة الحديثة) الفرنسية في العددين الاخيرين من عام ١٩٧٣ والعدد الاول من ١٩٧٤ دراسة لاندره غراند عن الازمة الجديدة للراسمالية كازمـة عامة للمجتمع الراسمالي تتعدى كونها ازمة اقتصادية ماثلة في استفحال ظاهـرة الفوضى النقدية والتضخم والبطالة ... ، الى كونها ازمة ذات ابعاد اجتماعيـة وايديولوجية وسياسية ، تطرح من جديد مسالة تحديد استراتيجية قلب النظـام الراسمالي امام الحركة العمالية . ومن جهة ثانية ، فقد كشفت حرب تشرين ١٩٧٣ الدور الذي يمكن ان تلعبه تجارب التحرر الوطني والقومي ضد الامبريالية والصهيونية حليفتها ، في تعميق الازمة الراهنة للامبريالية ، وخاصة اذا احسنت استخدام سلاح الوحدة القومية ومنابع الطاقة التي تملكها .

القِسمُ الثاني

النظريات السياسية

مقدمـــة

في المؤلف الجامع (اسس الماركسية ـ اللينينية) الذي صدر في الاتحـــاد السوفياتي في تشرين الاول عام ١٩٥٩ ، ٤٨٠ صفحة من اصل ٨٠٠ مخصصة لعرض النظريات السياسية . ومن خلال هذه الصفحات نتبين تطور الفكر السياســي الماركسي منذ كارل ماركس وفريدريك انجلز ولينين ، حتى المرحلة الحاضرة . وقد عني وولف كانج ليونار Wolfgang Léonhard في الجزء الثانــي من كتـــاب الايديولوجية السوفياتية المعاصرة الذي صدر بالفرنسية عام ١٩٦٥ بعرض هـــذه النظريات السياسية معتمدا بالاضافة الى المرجع السوفياتي المذكور على الوثائـــق الصادرة عن مؤتمرات الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي حتى عام ١٩٦١ وعلى اهم المراجع الماركسية التالية المذكورة مع تواريخها :

لماركس وانجلز :

ـ العائلة المقدسة (١٨٤٤ ـ ١٨٤٥) .
ـ الايديولوجية الالمانية (١٨٤٥ ـ ١٨٤٦) .
ـ البيان الشيوعي (١٨٤٨) .

لكارل ماركس :

ـ الصراعات الطبقية في فرنسا (١٨٥٠) .
ـ لويس بونابرت و١٨ برومير (١٨٥١ ـ ١٨٥٢) .
ـ نقد الاقتصاد السياسي (١٨٥٩) .
ـ راس المال (١٨٦٧ ـ ١٨٩٧) الاجزاء الثلاثة .
ـ الحرب الاهلية في فرنسا (١٨٧١) .
ـ نقد برنامج جوته (١٨٧٥) .

لفردريك انجلز :

ـ مبادىء الشيوعية (١٨٤٧) .
ـ مسالة السكن (١٨٧٢ ـ ١٨٧٣) .
ـ حرب الفلاحين الألمان (١٨٧٤) .
ـ المشكلات الاجتماعية في روسيا (١٨٧٥) .
ـ الانتي ـ ديورنج (١٨٧٨) .
ـ اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (١٨٩٤) .
ـ المشكلة الفلاحية في فرنسا والمانيا (١٨٩٤) .

للينين :

ـ ما العمل ؟ (١٩٠٢) .
ـ التكتيك المزدوج للديموقراطية الاجتماعية وللثورة الديموقراطية (١٩٠٥) .
ـ حق الامم في الاستقلال الذاتي (١٩١٤) .
ـ الثورة الاشتراكية وحق الامم في الاستقلال الذاتي (١٩١٦) .
ـ الاقتصاد الامبريالي (١٩١٦) .
ـ البرنامج العسكري للثورة البروليتارية (١٩١٦) .
ـ الدولة والثورة (١٩١٧) .
ـ الثورة البروليتارية وكاوتسكي (١٩١٨) .
ـ الاقتصاد والسياسة في عصر دكتاتورية البروليتاريا (١٩١٩) .
ـ المرض الطفولي للشيوعية (١٩٢٠) .

لذلك فنحن في عرضنا للنظريات السياسية داخل اطار الايديولوجية الماركسية سنعتمد بالدرجة الاولى على كتاب (ليونار) ، فنتعرض للبحث في الرسالة التاريخية للبروليتاريا ، ولنظرية الحزب الماركسي ـ اللينيني ، ولنظرية الستراتيجية والتاكتيك ، ونظرية الثورة الاشتراكية ونظرية الثورة العالمية ونظرة الماركسية لتجارب التحرر القومية ، واخيرا لنظريات التحول من النظام الاشتراكي الى الشيوعية .

ان تسلسل هذا العرض يعتمد على تصنيف النظريات السياسية الماركسية في ست زمر تتولى عرضها الفصول الستة التالية .

الفصل الاول

رسالة البروليتاريا ـ ديكتاتورية البروليتاريا

ا ـ رسالة البروليتاريا

يتطلب البحث في النظريات السياسية الماركسية البدء بنظرية (رسالة الطبقة العاملة في التاريخ العام) اي بالطبقة التي تعتبرها الماركسية مدعوة تاريخيا لاحداث التحول الاجتماعي في حياة العالم .

مفهوم البروليتاريا :

تظهر البروليتاريا كطبقة مع ظهور الراسمالية . وهي الطبقة التي تكسب قوتها من طريق بيع قوة عملها للطبقة الراسمالية .

أن مفهوم الطبقة العاملة ورسالتها في الايديولوجية الماركسية ، يعتمد اعتمادا كبيرا على كتابات ماركس وانجلز . فمنذ الاربعينات في القرن التاسع عشر ، كان ماركس وانجلز يقولان بانهيار النظام الراسمالي لسببين : اولهما التناقضات الكامنة في هذا النظام ، وثانيهما النمو المستمر للطبقة العاملة المرافق لتطور الصناعة ونموها، هذا النمو الذي لا يقتصر على الناحية العددية فحسب بل يتناول التنظيم السياسي والقوة التاريخية لهذه الطبقة ايضا . «فالمجتمع الراسمالي يخلق عوامل هدمه بنفسه» ، كما يقول البيان الشيوعي ، «والتاريخ هو الذي يحكم عليه بالموت ، والكادحون هم الذين يتولون تنفيذ حكم التاريخ» ، كما يقول ماركس في خطابه بلندن

في ١٤ نيسان ١٨٥٦ .

ان كلمة بروليتاريا تشمل في نظر ماركس وانجلز «عمال المعامل» وحدهم ، فلا الفلاحون ولا العمال الزراعيون الفقراء ولا طبقة العمال المؤقتون ، يندرجون تحت هذه الكلمة . فلماذا خص ماركس وانجلز الطبقة العاملة حسب هذا التحديد بهذا الدور التاريخي ، وحملاها رسالة هدم النظام الراسمالي وبناء الاشتراكية ؟

ان جواب مؤسسي الماركسية يتلخص في ان الطبقة العاملة هي اكثر الطبقات خضوعا لاستغلال الطبقة البورجوازية ، وبالتالي هي اكثر الطبقات ثورية . انها الطبقة الثورية حقا ، وهي الطبقة التي سيؤدي تطور الصناعة الى جعلها تشكل غالبية الشعب ، فهي التي تمثل حقا المصلحة العامة .

ان هدف الحركة العمالية كما صوّره كارل ماركس هو القضاء على الضياع والاغتراب والانحراف عن جوهر الحياة الانسانية . فالاقتصاد الراسمالي جعل من العمل وسيلة لتشويه هذه الحياة الانسانية لانه جعل العامل غريبا :

١ ـ عن نتاج عمله ، لانه لا يملك فيهذا المجال اية قدرة على تقرير شيء ما .

٢ ـ عن العمل ، لان النظامالراسمالي جعل منه جحيما للعامل . فهو اقرب الى السخرة .

٣ ـ عن طبيعته الصميمية ، اي عن ذاته .

٤ ـ عن اقرانه من البشر .

هكذا يصل الضياع بالانسان في ظل النظام الراسمالي الى درجة يصبح فيها غريبا عن الجنس البشري . فالبروليتاريا والطبقة الراسمالية البورجوازية ، يمثلان نفس الانحراف . الا ان الطبقة المسيطرة تجد في هذا الانحراف مادة لسيطرتها فتتمتع في ظله وتلتمس منخلاله مظهرا خادعا لحياة انسانية. اما طبقة البروليتاريا، فتجد في هذا الانحراف صورة فنائها وحياة لا انسانية ظالمة .

وليس في كتاب (العائلة المقدسة) ما يشير الى ان ماركس وانجلز ينسبان الى العمال (قابليات خاصة) عندما يتكلمان عن الرسالة التاريخية للطبقة العاملة . كل ما هنالك انهما يعتبران العمل في ظل النظام الراسمالي مدرسة شاقة لا يمر بها العامل الكادح عبثا ، وان الطبقة العاملة مضطرة بحكم طبيعتها الخاصة ان تقوم بدورها التاريخي . لقد اعتبر مؤسسا الماركسية حركة البروليتاريا (حركة الغالبية العظمى)، لذلك لم يشغلا انفسهما بالبحث عن الطريقة التي يجب ان تلتزمها الطبقة العاملة لكي تكسب حلفاء لها في نضالها ، أو عن الوسائل الكفيلة بتحقيق تلك الرسالة التاريخية. ففي البيان الشيوعي ، تنبأ المفكران الكبيران بانهيار الطبقة الوسطى وطبقة صغار الصناعيين وصغار التجار والحرفيين والفلاحين خلال التطور الشامل للصناعة . واعتبرا هذه القوى جميعها قوى رجعية ، لانها تحاول ان تدير عجلة التاريخ في الاتجاه المعاكس . فهي لا تكون ثورية الا اذا تخلت عن منظارها الخاص والتزمت خط البروليتاريا .

بقيت هذه النظرة مسيطرة خلال الاربعينات من القرن التاسع عشر ، لذلك فان

فكرة تحالف العمال والفلاحين لا تطرح نفسها الا خلال الخمسينات (كتاب ماركس : لويس بونابرت و١٨ برومير عام ١٨٥١ ، ورسائل ماركس لانجلز عام ١٨٥٦) ، حيث اعتبرا طبقة الفلاحين طبقة حليفة للبروليتاريا ، ونظرا اليها كمجال لنشاط الحزب السياسي المؤهل لقيادة نضال الطبقة العاملة .

بقيت آراء ماركس وانجلز الخاصة برسالة البروليتاريا اي في القضاء على الشروط اللاانسانية في المجتمع الراهن وتحريره من الصراع الطبقي عن طريق هدم النظام الراسمالي وبناء الاشتراكية ، تشكل في نظر لينين العنصر الاساسي في النظرية الماركسية .

الا ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تذهب الى ابعد من ذلك فتحدد ست خصائص تتميز بها الطبقة العاملة عن سائر الطبقات الاخرى في المجتمع الراسمالي.

الخصائص المميزة للطبقة العاملة :

١ ــ ان الخاصة المميزة الاولى للطبقة العاملة هي كونها الطبقة الثورية الوحيدة، لانها الطبقة التي تتحمل اكبر قسط من الاستغلال، وتواجه خصما لا مجال لاصلاحه.

٢ ــ انها تمثل طبقة المستقبل ، لانها نتاج العصر الصناعي ، ولانها تزداد اهمية وتعظم شأنا ، كلما نمت قوى الانتاج ، ولان مصالحها تتفق والاتجاه الرئيسي لخط التطور الاجتماعي .

٣ ــ انها الطبقة الوحيدة التي لا تتمتع بملكية خاصة لوسائل الانتاج ، والتي تهتم مباشرة بالغاء الملكية الخاصة ، لان زوال هذه الملكية واستبدالها بملكية جماعية ، هو السبيل الوحيد لتحررها .

٤ ــ انها تشكل الطبقة الاقوى عدديا في المجتمع الرأسمالي ، والتي تنمو وتزداد بسرعة اكبر من غيرها . ففي القرن التاسع عشر ، كانت الولايات المتحدة تضم حوالي مليون عامل ، اي ما يعادل ٥ الى ٦ بالمئة من مجموع السكان . في حين ان هذا العدد بلغ ٢٠ مليونا عام ١٩٥٧ . وفي المانيا، كانت الطبقة العاملة تشكل ٣ بالمئة من مجموع الشعب الالماني في منتصف القرن التاسع عشر ، فأصبحت تشكل اكثر من نصف الشعب الالماني في منتصف القرن العشرين . وفي انجلترا يشكل العمال الاكثرية المطلقة من الشعب . واذا اخذنا مجموع بلدان العالم وجدنا ان هناك ٢٠٠ مليونا يعملون في الصناعة ، يشكلون مع عائلاتهم نصف مليار من البشر ، وهذا العدد سيتضاعف بسرعة مع انتشار الصناعة في قارتي آسيا وافريقيا .

٥ ــ وهي الطبقة الاكثر استعدادا لان تنتظم . فالعمال في معاملهم يكتسبون صفات النظام والروح الجماعية والعمل المشترك بوعيهم المتطور وبتبنيهم لمفهوم تقدمي وعلمي عن الحياة .

فالصناعة تحتاج اكثر من الفروع الاقتصادية الاخرى الى عمال فنيين

اختصاصيين .. وشروط النضال الطبقي تخلق الظروف المناسبة لتنمية الوعي السياسي لدى العمال .

حلفاء الطبقة العاملة :

تتميز الطبقة العاملة بالاضافة الى ما ذكرنا من خصائص ، بأن هناك رابطة مشتركة بين مصالحها كطبقة وبين مصلحة كافة الطبقات العاملة الكادحة الاخرى . فالفلاحون والمثقفون والبورجوازية الصغيرة ، يخضعون بدورهم لاستغلال الراسمالية واضطهادها . وهذا الاضطهاد يزيد عند انتقال الراسمالية الى المرحلة الاحتكارية . لذلك تجد الطبقة العاملة في تلك الطبقات حليفا طبيعيا في نضالها ضد الامبريالية .

من بين هذه المصالح المشتركة بين الطبقة العاملة وحلفائها ، تقوم مسالة الحفاظ على المكتسبات والمصالح الاقتصادية المباشرة امام الاعيب الاحتكارات وهجماتها . ومسألة المحافظة على السلم والاستقلال الوطني والدفاع عن الديموقراطية ، وما تستلزمه هذه المهمات السياسية من نضال مشترك يشكل الاساس الموضوعي لتحالف العمال والفلاحين والمثقفين والبورجوازيين الصغار .

وتعرف الايديولوجية الماركسية هذه الطبقات الحليفة كما يلي :

١ ــ الفلاحون : وهم طبقة صغار المالكين الزراعيين حيث يقوم الاقتصاد على اساس الملكية الخاصة . ان هذه الطبقة تنقسم في ظل النظام الراسمالي الى عدة مراتب ، فهي تضم العمال الزراعيين وصغار الفلاحين الى جانب الفلاحين المتوسطين وكبار الفلاحين (الكولاك) **Koulaks** وهي طبقة ذات طبيعتين متعارضتين : فهي قريبة الى الطبقة العاملة بحكم كونها تضم عمالا ، وهي قريبة الى الطبقة البورجوازية بسبب كونها تتألف من مالكين **Propriétaires** هذا على الرغم من ان المصالح الاساسية لطبقة الفلاحين تتفق ومصلحة الطبقة العاملة باعتبارها طبقة مضطهَدة .

٢ ــ البورجوازيون الصغار : ان طبقة صغار بورجوازيي المدن تتألف ايضا من صغار المالكين لوسائل الانتاج ، فهي طبقة صغار المنتجين الذين يستخدمون طرقا أولية بسيطة في الانتاج ويبيعون في الاسواق نتاج عملهم . لذلك فان الصناع والتجار يشكلون جزءا من البورجوازيين الصغار في المدن . ولهذه الطبقة ايضا طابع مزدوج . فالبورجوازي الصغير يجهد كمالك في توسيع ملكيته ، وبالتالي في ان يتسلل الى صفوف طبقة البورجوازية الكبيرة . اما باعتباره عاملا ، فهو يشكو من الضغط الذي يمارسه المستغلون الراسماليون عليه ، وهذا ما يقربه من الطبقة العاملة . وهذا السبب الاخير هو الذي يدفع شطرا هاما من البورجوازية الصغيرة الى قناعة نهائية بأن الامل الوحيد في الخلاص من الاستغلال والقلق والبؤس الاجتماعي يكمن في القضاء على النظام الراسمالي وبناء المجتمع الاشتراكي .

٣ ــ المثقفون : ان الموظفين والفنيين والمهندسين والاساتذة والاطباء والعلماء

والفنانين ، والمهن المشابهة ، يشكلون العناصر الاساسية لهذه الزمرة . وهم في ظل المجتمع الراهن محرومون تقريبا من كل الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها من قبل . فالتردي الاجتماعي الذي يعانونه ، ووقوعهم ضحايا للاستغلال الراسمالي وجميع الشروط المناسبة تتوفر لجعلهم من انصار الصراع الطبقي ، والماركسية المعاصرة تعتبر تحالف الطبقة العاملة مع الطبقات الحليفة المذكورة عملية هامة في وجه القوى الرجعية والاحتكارية الامبريالية ، لانها جميعها تلتقي في خضوعها لاستغلال هذه القوى ، وفي الرغبة في التخلص من مصدر هذا الاستغلال وهو النظام الراسمالي الاحتكاري ، وفي التطلع الى بناء الاشتراكية .

الدور القائد للطبقة العاملة :

في كل تحالف يمكن ان تكون الطبقة العاملة طرفا فيه ، يجب ان يكون لها دور الموجه والقائد لهذا التحالف . وهذا الدور القيادي في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة انما تمليه مواقع الطبقة العاملة باعتبارها تتصدى لاكثر اشكال الصراع جذرية في وجه الراسمالية ، وباعتبارها الطبقة الوحيدة المؤهلة لخلق حزب سياسي متميز قائم على اساس ايديولوجية علمية . ثم انها نظرا لكونها الطبقة الوحيدة ذات الطابع الثوري المحض في المجتمع الحديث ، يجب ان تكون كما يقول لينين «الطبقة القائدة التي تعبىء قوى الشعب بكامله لاحداث التحول الديموقراطي الكامل ، وتجمع قوى العمال وقوى الكادحين والخاضعين للاضطهاد والاستغلال لتقف جميعها في وجه المستغِلين الراسماليين» .

وهذا الدور القيادي للطبقة العاملة هو في نظر الماركسية لصالح الطبقات المتحالفة معها ، لان ذلك هو السبيل الوحيد للتحرر من سيطرة الراسمالية الاحتكارية . فالطبقة العاملة لا تستطيع ان تحرر ذاتها الا اذا حررت جميع المستغَلين والمضطهَدين ، وهي في دعم حلفائها تلتمس عاملا اساسيا من عوامل نجاحها في معركة الصراع الطبقي وفي بناء مجتمع لا يعرف الاستغلال ولا الاضطهاد .

ان الدور القيادي الذي يقع على عاتق الطبقة العاملة لا يشكل بصورة ما امتيازا لهذه الطبقة ، بل يملي عليها تحمل مسئوليات اكبر والتزامات وواجبات جديدة في المحافظة على المصالح الخاصة لبعض الطبقات الكادحة ودعم مصالح جميع الشغيلة كما لو كانت مصالحها الذاتية .

اهمية الطبقة العاملة :

حسب النظرية الماركسية ، لا تشعر الطبقة العاملة بتأييد العمال داخل الوطن فحسب بل بتضامن العمال من جميع البلدان ايضا . فهي الطبقة الاولى ذات الاتجاه

والطابع الاممي . فالبروليتاريون كما يقول كارل ماركس «لهم في جميع البلدان مصلحة واحدة ، وعدو واحد ، ومعركة واحدة ، فجماهير الطبقة العاملة بريئة من الافكار الثابتة والسابقة ذات الطابع القومي» . لقد كان ظهور الطبقة العاملة على مسرح التاريخ في عصر امتدت فيه العلاقات الاقتصادية والثقافية على مجموع الكرة الارضية ، وبدأ فيه تشكل الاقتصاد العالمي . وهذه الشروط الخارجية الملائمة للصفة الاممية ، تلتقي بمصلحة الطبقة العاملة ذات الاتجاه الاممي . فالعمال لا يملكون ما يفرق الناس ويفصلهم بعضهم عن بعض في مختلف البلدان . فليس لديهم ملكية خاصة لوسائل الانتاج ، وليس لهم مصالح موجهة ضد غيرهم من العمال من بلدان وقوميات اخرى . بل على العكس فان المصلحة الرئيسية الواحدة – وهي اسقاط النظام الراسمالي – توحدهم وتجعل من الاممية البروليتارية في راي الماركسية ليس مجرد عملية ممكنة ، بل وضرورية ايضا . ومفهوم الاممية هذا يتضمن :

١ – ايديولوجية مرتكزة على اساس علمي ، تطالب بتحقيق المصالح المشتركة للعمال من جميع البلدان .

٢ – شعورا بالتضامن والروابط الاخوية بين عمال العالم .

٣ – علاقات من طراز خاص بين الحركات العمالية في شتى البلدان ، قائمة على اساس وحدة العمل والتساند المتبادل . فهي علاقات صميمية حرة تمليها المصلحة المشتركة وليست علاقات قسرية . فالروح المشبعة بالاحترام المتبادل التي تكمن خلفها هي التي تعزز جو الثقة والرغبة في التعاون بين العمال في جميع انحاء العالم .

وقد تجلى هذا الجو الاممي في عدة مناسبات : في مواجهة الحروب والمواقف العدائية من روسيا خلال اعوام ١٩١٨ – ١٩٢٠ ، وفي مواجهة الفاشية خلال الثلاثينات ، وفي دعم اسبانيا الجمهورية ١٩٣٦ – ١٩٣٩ ، وفي حركة المقاومة ضد الفاشية خلال الحرب العالمية الثانية ، وفي حركات التحرر من الامبريالية بعد الحرب العالمية الثانية .

ولكن رغم الصفات الخاصة بالطبقة العمالية ، ورغم التضامن العالمي ، ورغم تحالف هذه الطبقة مع الطبقات الحليفة فانها لم تحقق بعد اهدافها في كل مكان . ومرد ذلك في رأي الماركسية المعاصرة الى وجود عقبات وصعوبات تواجه الطبقة العاملة يجب التغلب عليها . وهي صعوبات تزرعها الطبقات المسيطرة في البلدان الراسمالية في طريق الطبقة العاملة . فما هي تلك الصعوبات ؟

اشكال صراع الطبقة العاملة :

تتلخص تلك العقبات والصعوبات في رأي الماركسية المعاصرة في النواحي التالية:

١ – القمع المباشر : عن طريق ملاحقة وتوقيف العمال واعضاء الحركة العمالية ومنع النشاط المشروع والقمع الدموي والاعدامات واستعمال السلاح والعنف المباشر

ضد كل تحرك عمالي سياسي .

٢ ــ وسائل الصراع الاقتصادي : تسريح العمال لاسباب سياسية او نقابية ، والتهديد والمساومة وتنظيم اللوائح السوداء .

٣ ــ الديماغوجية الاجتماعية : محاولة افساد الطبقة العاملة ، واللجوء الى الاذاعة والصحافة والتلفزيون والسينما والى الطرق البسيكولوجية المختلفة لخلق أوهام عن الانسجام الطبقي . وخلق ارستوقراطية عمالية تساعد على خلق تيارات بورجوازية داخل الحركة العمالية . واشاعة اجواء مساعدة على انتشار الانتهازية والنزعة الاصلاحية التي تهدف الى تحويل الصراع الطبقي عن غايته الاساسية وهي تحقيق الثورة الاجتماعية ودكتاتورية البروليتاريا .

وهكذا كلما اشتد ساعد الحركة العمالية ، كلما استشرت مقاومة الاعداء واصبحت اكثر ضراوة . فلا بد للطبقة العاملة اذن ان تأخذ بعين الاعتبار ان الصراع مع الطبقة البورجوازية في مثل هذه الشروط ، يجب ان يأخذ أشكالا متعددة . فقد ابدى فريدريك انجلز في الماضي اعجابه بالحركة العمالية الالمانية عندما شعبت نضالها في اتجاهات ثلاثة شملت الصعيد الفكري والاقتصادي والسياسي . على هذا الاساس تشير الايديولوجية الماركسية المعاصرة الى عدة اشكال يمكن ان يتجلى بها صراع الطبقة العاملة .

ويمكن تلخيص هذه الاشكال في ثلاثة : الصراع الاقتصادي ــ الصراع السياسي ــ الصراع الايديولوجي .

١ ــ الصراع الاقتصادي : وهو تاريخيا الشكل الاول من اشكال الصراع الطبقي. والسلاح الاساسي في هذا الصراع هو الاضراب . وقد ادى هذا النوع من الصراع الى تنازلات هامة من قبل المشاريع الراسمالية فيما يتعلق بالمطالب اليومية للعمال التي تدور حول زيادة الاجور وتخفيض ساعات العمل وتحسين شروطه . ومن خلال هذا الصراع ينمو الوعي العمالي وتتعاظم كما يقول لينين «القوى المعنوية والروحية والسياسية للطبقة العاملة وتصبح اكثر استعدادا لتحقيق اهدافها الكبرى التحررية » .

ان هذا الصراع له في نظر الماركسية اهميته . وليس صحيحا ما يقال عن الشيوعيين من انهم لا يهتمون بتحسين شروط العمال المادية والاجتماعية ، ومن انهم يرون بان شقاء العامل يدفعه للنضال بهمة أكبر . فالماركسية تدعم كل التدابير التي تساعد على تحسين شروط حياة العمال . الا انها في الوقت نفسه ترى انه من المستحيل ان يتم قلب النظام الراسمالي بمجرد النضال الاقتصادي وحده . فالمصالح الطبقية الاساسية لا يمكن ان تتحقق عن طريق النضال النقابي والنضال الاقتصادي، بل «عن طريق التحولات السياسية الجذرية» ، كما يقول لينين .

٢ ــ الصراع السياسي : ان هذا الشكل من اشكال الصراع له وجوه متعددة : من المشاركة في الانتخابات ، الى التظاهرات الجماهيرية ، الى العمل البرلماني السلمي، الى العمل الثوري الهادف الى الاستيلاء على السلطة .

والصراع السياسي يعتبر في نظر الماركسية المعاصرة اعلى مراحل الصراع لعدة اسباب اهمها :

أ ـ كون الصراع السياسي على خلاف الاشكال الاخرى ، يدخل في المعركة جميع قوى الطبقة العاملة وجها لوجه امام الطبقة الراسمالية ، فلا تكون المواجهة جزئية على شكل زمرة معزولة ومتضررة كما هو الامر في الصراع الاقتصادي .

ب ـ في الصراع السياسي تكون المصالح الاساسية للطبقة العاملة هي محور النضال . لا المصالح اليومية المبعثرة لكل رهط من ارهاط الكادحين .

ج ـ ان الوعي الطبقي للبروليتاريا هو الذي ينمو خلال الصراع السياسي وليس مجرد الوعي النقابي .

د ـ ان الصراع السياسي يشجع على قيام الحزب السياسي كأعلى شكل من اشكال التنظيم الطبقي ، في حين ان الصراع الاقتصادي يشجع على قيام النقابات فقط .

٣ ـ الصراع الايديولوجي : ان هذا الصراع له اهمية في نظر الماركسية ، لانه يحرر الطبقة العاملة من رواسب العقلية البورجوازية ويؤلف ما بينها وبين النظرية الماركسية . فعن طريق الصراع الايديولوجي يدرك العمال مصالحهم الحقيقية الاساسية ، وتعي الطبقة العاملة دورها وواجباتها واهدافها ، ويتحول النضال العفوي الى نضال واع منظم تتحقق من خلاله وحدة النظرية والستراتيجية والتاكتيك .

والنضال العمالي لا يأخذ شكله الكامل ولا يتكلل بالظفر في راي الماركسية الا باجتماع هذه الاشكال الثلاثة من اشكال الصراع : الاقتصادي والسياسي والايديولوجي. ان وحدة هذه الاشكال تتجسد في الحزب الماركسي ـ اللينيني ، الحزب الذي يعكس نموذجا جديدا بين الاحزاب .

ب ـ نظرية ديكتاتورية البروليتاريا

ان دولة ديكتاتورية البروليتاريا هي دولة المرحلة الانتقالية من الراسمالية الى الاشتراكية . ذلك ان تحويل المجتمع الراسمالي الى مجتمع اشتراكي لا يمكن ان يتم حسب الايديولوجية السوفياتية الا بواسطة «دكتاتورية البروليتاريا» (١) اي عن طريق الثورة الهادفة الى تدمير الدولة الراسمالية تدميرا كاملا ، والاستعاضة عنها بدولة تقود عملية تحقيق الاشتراكية ثم الشيوعية ، حيث يقوم المجتمع الخالي من الطبقات المتعادية ومن الاستغلال . ان هذه الدكتاتورية التي تمثل سلطة العمال

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني ، ص ١٥٩ .

وتقودها الطبقة العاملة وتهدف الى بناء الاشتراكية ، تطرح حاليا عدة اسئلة :
- لماذا تعتبر الايديولوجية الماركسية «دكتاتورية البروليتاريا» مرحلة ضرورية ؟
- ضمن اية حدود يمكن ان تلجأ هذه الدكتاتورية الى العنف ؟
- كيف تأتلف «دكتاتورية البروليتاريا» مع «ديموقراطية البروليتاريا» ؟
- ما هي الاشكال التي يمكن ان تأخذها دكتاتورية البروليتاريا في الحاضر وفي المستقبل ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة من زاوية تطور الفكر الماركسي تتطلب البدء بالينابيع والمصادر الاولى ، اي بوجهة نظر ماركس وانجلز .

دكتاتورية البروليتاريا في نظر ماركس وانجلز :

ان ماركس وانجلز لم يستعملا تعبير «دكتاتورية البروليتاريا» الا نادرا في مؤلفاتهما . وقد كان انجلز هو البادىء بالاشارة الى ان «الثورة الاشتراكية تؤدي الى وضع دستور ديموقراطي والى سيطرة البروليتاريا سيطرة سياسية مباشرة او غير مباشرة» . وكان ذلك في كتابه عام ١٨٤٧ (١) .

في عام ١٨٤٨ صدر (البيان الشيوعي) الذي اشترك في وضعه ماركس وانجلز، وفيه تأكيد على ان استلام البروليتاريا للسلطة السياسية هو احد «الاهداف القريبة للشيوعيين» . كما ان الطبقة العاملة الباريسية خلال ثورة حزيران في نفس العام، قد رفعت رايات كتب عليها شعار «دكتاتورية الطبقة العاملة».

وفي عام ١٨٥٠ يكتب ماركس قائلا بأن «دكتاتورية طبقة البروليتاريا مرحلة ضرورية للقضاء النهائي على الفروق الطبقية» (٢) ، وفي نفس العام يصدر مقال في المجلة الانجليزية (المجلة الديموقراطية) بتوقيع انجلز يحلل فيه الوضع في انجلترا ويقول : «ان على الطبقة العاملة ان تعمد في سبيل تحسين وضعها الاجتماعي ، الى استلام السلطة اولا عن طريق الاقتراع العام والحصول على اكثرية عمالية في مجلس العموم » .

وفي ربيع ١٨٥٢ يذكر ماركس في رسالته الى (وايدمير) بأنه ليس له فضل في اكتشاف وجود الطبقات والصراع الطبقي ، وانما في اكتشاف حقيقة اخرى وهي «ان الصراع الطبقي يؤدي بالضرورة الى دكتاتورية البروليتاريا» ، وان «هذه الدكتاتورية تشكل فقط مرحلة الانتقال الى تصفية جميع الطبقات ، والى المجتمع

---

١ - نفس المصدر . ص ١٦٠ .
٢ - نفس المصدر . ص ١٦٠ .

اللاطبقي » (١) .

بعد ذلك توقف ماركس وانجلز فترة طويلة عن استعمال مفهوم دكتاتورية البروليتاريا ، دامت عشرين سنة .

ففي أواخر عام ١٨٧٢ يتكلم انجلز ثانية عن «ضرورة دكتاتورية البروليتاريا من اجل الغاء الطبقات والغاء الدولة معها» (٢) .

وفي أوائل عام ١٨٧٥ يعود ماركس الى هذا الموضوع فيقول : «بين المجتمع الراسمالي والمجتمع الشيوعي تقوم مرحلة انتقال من احدهما الى الاخر . ان مرحلة التحول هذه ترافقها مرحلة انتقال سياسي هـي مرحلة الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا » (٣) .

ولكن ما هو مفهوم «دكتاتورية البروليتاريا» الذي يمكن ان نستخلصه من كتابات ماركس وانجلز ؟ وما هو التعبير العملي التطبيقي عنها ؟

تجربة كومونة باريس :

لقد جاءت التجربة العملية بمثال مشخص في تلك الفترة كجواب على هـذا السؤال . فقد كانت تجربة «كومونة باريس» التي قامت على اثر انتفاضة ١٨ اذار ١٨٧١ ولم تدم طويلا ، لان القوى المعادية للثورة قد تألبت عليها وطوقتها وقضت عليها في ٢٨ ايار ١٨٧١ ، مثالا حيا تعلق به كل من ماركس وانجلز . فقد نظر اليها ماركس على انها «الشكل السياسي الذي يمكن ان يتحقق في ظله التحرر الاقتصادي للعمال» . فكومونة باريس هي بالنسبة الى ماركس «حكومة الطبقة العاملة» . وانجلز بدوره يقول : «تريدون ان تعرفوا كيف تكون دكتاتورية البروليتاريا ؟ انظروا اذن الى كومونة باريس ، فهي دكتاتورية البروليتاريا !». فقد تم بعد اسبوع من قيام تلـك الانتفاضة انتخاب «مجلس الكومونة» عن طريق الاقتراع العام السري القائم على مبدأ المساواة . وكان هذا المجلس يتألف من ٨٥ عضوا بينهم ٣٠ عاملا .

وكان ٦٤ عضوا الى جانب الخط الاشتراكي ، اما الاعضاء الباقون وعددهم ٢١ فقد كانوا يشكلون المعارضة ، وكان الاتجاه الاشتراكي ممثلا بكتلتين رئيسيتين هما: البلانكيون والبرودونيون . وقد قام مجلس الكومونة باستبدال الجيش بالحرس الوطني ، وانشأ عشر لجان لتزويد الكومونة باخبار نشاط هذا الحـرس وكانت الكومونة تجمع السلطات التشريعية والتنفيذية . وكان النواب وجميـع الموظفين

---

١ ـ نفس المصدر . ص ١٦٠ .
٢ ـ نفس المصدر . ص ١٦٠ .
٣ ـ نفس المصدر . ص ٢٥ .

الرسميين يتقاضون اجرا يعادل الاجرة الوسطية للعامل . كما ان المنشآت الصناعية التي غادرها مالكوها قد حولت الى جمعيات عمالية وأصبح لها مجالس عمالية ، والغيت العقوبات عن العمال ، واعطيت مهلة للمستأجرين لدفع أجور المساكن ، ونقل سكان الاقبية من ألعائلات العمالية الى منازل الاغنياء الذين هربوا من باريس ، وفرضت الكومونة مبدأ الزامية التعليم ومجانيته وزادت أجور الاساتذة .

ان ما يميز كومونة باريس في راي ماركس هو اولا «كونها من صنع المجالس البلدية المنتخبة بالاقتراع العام وفي مختلف دوائر باريس ، وكون المثلين خاضعين فيها لمبدأ العزل أذا تخلوا عن القيام بمسؤولياتهم امام الشعب ، وكون اكثريتهم تمثل اهداف الطبقة العاملة وتتألف من عمال . وتجريد الجيش من كل صلاحية سياسية وتحويله الى اداة مسؤولة امام الكومونة وقابلة للعزل ، وجعل مرتبات الوظائف العامة من عضو الكومونة حتى الموظف في ادنى قاعدة من قواعد الادارة العامة ، معادلة لاجرة العامل» .

كذلك فان انجلز يجد ان «سقوط السلطة القمعية المركزية للحكومة وللجيش وللبوليس السياسي وللبيروقراطية» هي اهم ما يميز كومونة باريس .

الا ان انجلز لا يكتفي بتسجيل تلك المزايا ، لانه لا يكفي في رايه ان تلغى ادوات التسلط في النظام القديم ، بل يجب ان ننتبه الى ضرورة عدم السماح لبيروقراطية جديدة «اشتراكية» ان تتشكل بعد التحويل الاشتراكي . ففي المختارات (١) نقرأ ما يلي :

«لكي نحول في جميع البلدان دون انقلاب الدولة واجهزتها من ادوات في خدمة المجتمع الى اسياد له ، فان على الكومونة ان تلجأ الى طريقتين حاذقتين : اولاهما بأن تملأ المراكز الشاغرة (سواء كانت ادارية ام قضائية ام تربوية) بالانتخاب على اساس الاقتراع العام ، وان يخضع تجديد ألعمل لارادة الناخبين انفسهم . اما الطريقة الثانية فهي في تحديد مرتبات جميع الوظائف تحديدا يساوي اجرة العامل البسيط ، الامر الذي يكبح جماح الاندفاع نحو الوظائف والنزعة الوصولية» .

من خلال ذلك كله يتبين لنا أن ماركس وانجلز كانا يقصدان بدكتاتورية البروليتاريا ، نموذجا للدولة من نوع جديد يختلف جذريا ، عن جميع انواع الدول السابقة ، من حيث جوهرها الطبقي ومن حيث الشكل التنظيمي ومن حيث الدور الذي يتوجب عليها القيام به . نموذج تتوفر فيه الخصائص التالية :

أ – ان يكون على رأس المجتمع الجديد جهاز منتخب بالاقتراع العام يقوم بالمهام التشريعية والتنفيذية معا .

ب – تلغى السلطة القمعية للحكومة والجيش والبيروقراطية المركزية .

ج – تنزع عن البوليس السياسي مهامه السياسية .

---

١ – نفس المصدر . ص ١٦٢ .

د ـ النواب والموظفون في جميع فروع الادارة يتقاضون مرتبا لا يتجاوز اجرة العامل .

هـ ـ اما هدف دكتاتورية البروليتاريا ، فقد حدده ماركس وانجلز في تحويل جهاز الدولة من سيد الى خادم للمجتمع ، ومنع نشوء بيروقراطية جديدة او طبقة موجهة جديدة بعد الثورة الاشتراكية ، وتحقيق التحويل الثوري من الراسمالية الى الاشتراكية .

مفهوم دكتاتورية البروليتاريا عند لينين :

في كتابه «الدولة والثورة» يقول لينين : «ان الماركسي هو الذي يسلم ليس بالصراع الطبقي فحسب ، بل وبدكتاتورية البروليتاريا ايضا» وقد كان مفهومه عن دكتاتورية البروليتاريا في البدء هو مفهوم ماركس وانجلز الذي ينص على الغاء المؤسسات القمعية وبناء دولة لا مكان فيها لوجود جيش دائم او جهاز بوليس موجه ضد الشعب وموظفين متعالين على الشعب .

الا ان نظريات لينين بدات بعد ثورة ١٩١٧ تأخذ اتجاها مختلفا عن الخط العام الذي رسمه مؤسسا الماركسية . ففي عام ١٩١٨ يقول بصدد الكلام عن الثورة وعن كاوتسكي (المرتد) : «ان الدكتاتورية البروليتارية الثورية سلطة تم الحصول عليها بالعنف وبالثورة ، فهي سلطة تفرض نفسها وهي لا ترتبط بأي قانون» . وفي عام ١٩١٩ خلال مخاطبته للعمال المجريين يقول : «ما من سلطة مدعومة من العمال توجد في العالم اليوم يمكن ان تكون غير السلطة السوفياتية اي دكتاتورية البروليتاريا . ان هذه الدكتاتورية تتطلب استخدام العنف بشكل سريع وحاسم ودون شفقة لتحطيم مقاومة المستغلين والراسماليين واصحاب الاملاك . فالذي لم يفهم هذا لا يمكن ان يكون ثوريا ويجب ان تنزع عنه صفة القائد والموجه للبروليتاريا» (١) .

وفي بحثه عن «المرض الطفولي للشيوعية» عام ١٩٢٠ يقول : «ان دكتاتورية البروليتاريا هي الصراع العنيف ، الصراع الدموي دون اراقة دماء . فهو في نفس الوقت عنيف وسلمي ، عسكري واقتصادي ، تربوي واداري ، ضد سلطات المجتمع القديم وتقاليده» . وفي نهاية عام ١٩٢٠ نقرا له في الجزء الواحد والثلاثين من المؤلفات الكاملة قوله : «ان المفهوم العلمي للدكتاتورية ليس شيئا آخر غير السلطة التي لا تحدها قيود شرعية ولا تعترضها مبادىء والتي تقوم مباشرة على العنف» . كما نقرا له ايضا قوله : «ان دكتاتورية البروليتاريا لا تخشى ان تلجأ الى العنف والى القسر وان تمارس ذلك من خلال الدولة، لان الطبقة الاكثر تقدمية والتي كانت اكثرها

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني . ص ١٦٤ .

تعرضا للاضطهاد من قبل الرأسمالية ، تملك الحق في استعمال القسر ، لانها تستخدمه لمصلحة جميع العمال وجميع الخاضعين للاستغلال» .

وفي المؤلفات الكاملة ايضا ، نقرأ له تعريفه القائل (١) : « ان دكتاتورية البروليتاريا، اذا فسرنا هذا التعبير اللاتيني ، العلمي ، التاريخي ، الفلسفي ، بلغة اسهل انما تعني ان طبقة العمال الصناعيين هي وحدها القادرة على خلق نظام اجتماعي جديد اشتراكي» .

طابع الضرورة في دكتاتورية البروليتاريا :

اما عن ضرورة «دكتاتورية البروليتاريا» ، فالايديولوجية الماركسية المعاصرة تؤكد هذه الضرورة لان استلام الطبقة العاملة للسلطة لا يعني اكثر من انتصارها السياسي على القوى الراسمالية . فهذا الانتصار لا يعني ان الطبقات المسيطرة لم تعد موجودة طالما ان الشروط الاقتصادية لوجودها ما تزال قائمة . وهذا يعني ايضا ان خطر عودة النظام القديم الراسمالي يبقى ماثلا . والايديولوجية الماركسية المعاصرة في تقريرها لضرورة دكتاتورية البروليتاريا انما تعتمد على ما قاله لينين عندما تكلم عن «الثورة وعن كاوتسكي المرتد» مرحلة الانتقال لا تنتهي بمجرد استلام السلطة السياسية «فالمستغِلون يبقون محتفظين بأمل الانقلاب» لذلك فهم «يندفعون بنشاط غريب الشكل ومحموم ، وبحماس منقطع النظير يبلغ حد الهذيان ، الى المقاومة لاسترجاع الفردوس المفقود» . وهذا الامل في عودة الماضي لدى البورجوازية الرجعية انما مرده الى كونها ما زالت تملك مراكز اقتصادية هامة على الرغم من فقدانها للسلطة السياسية ، وهي تعتمد على هذه المراكز لكي تقوم بدورها التخريبي في مجال الاقتصاد لخلق المتاعب امام السلطة الجديدة والانتقام لسلطتها السياسية المفقودة . كما انها تحاول ان تستفيد من تردد الفلاحين وان تحمل تاثيرها الايديولوجي الى فئات واسعة من الشعب . والذي ييسر امامها ذلك كله ، كون ممثلي الطبقات المسيطرة السابقة يتمتعون بحظ وافر من الثقافة والخبرة في تنظيم الانتاج والادارة، كما انهم على علاقة طيبة بالمهندسين والاختصاصيين وبكبار الضباط في الجيش . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان العمال لا يستطيعون ان يتحرروا مباشرة من عاداتهم الموروثة من النظام الاستغلالي الراسمالي . ان هذا كله مضافا اليه كون البورجوازية تتمتع اولا بالقدرة على تشكيل جيش من المرتزقة ومن اعداء الثورة معتمدة على مساعدة البورجوازية الصغيرة المنهارة وعلى العناصر المنبوذة المجرمة ، وتتمتع ثانيا بدعم الراسمالية العالمية ، الامر الذي يجعل دكتاتورية البروليتاريا

---

١ – اسس الفلسفة الماركسية . ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

مهددة ليس من الاعداء الداخليين فحسب ، بل والاعداء الخارجيين ايضا ، كما حصل فعليا في روسيا بعد الثورة ، ويجعل احتمال التدخل العسكري ضد النظام الثوري واردا يمكن توقعه ويجب ان يحسب حسابه .

لذلك فان كتاب «أسس الماركسية اللينينية» ينتهي الى النتيجة التالية : «وهي ان الصراع الطبقي لا يتوقف بعد قيام الثورة بل ياخذ شكلا جديدا . فالكادحون الذين استلموا السلطة السياسية يجدون في دكتاتورية البروليتاريا ضرورة لمواجهة التحديات الجديدة ولمتابعة الصراع الطبقي واللجوء الى العنف اذا اقتضى الامر لقطع الطريق على التآمر الرجعي» .

مقياس استخدام العنف :

البروليتاريا هي الطبقة الاكثر رحمة وانسانية وحرصا على اختيار الطريق الاقل ايلاما ، كما يقول لينين .

ان ضرورة اللجوء الى العنف خلال مرحلة دكتاتورية البروليتاريا امر مشروط بمقاومة الطبقات المسيطرة التي أزيحت عن السلطة . ودرجة استخدام العنف مرهونة ايضا بموقف الطبقات الرجعية التي استهدفها الانقلاب . فاذا شهرت السلاح في وجه دكتاتورية البروليتاريا لقيت جوابا حاسما يحطم مقاومتها . اما اذا رضخت الى الواقع الجديد والى سلطة البروليتاريا ، فان وسائل العنف غير جائزة والتحول الاقتصادي يحدث عندئذ بشكل تدريجي ، ويمكن الاستفادة من الخبرات والمواهب التنظيمية الموالية .

اذن تتوقف الاشكال التي تاخذها دكتاتورية البروليتاريا والطرق التي تنهجها ، على الظروف القائمة وان السمة العامة لها هي سمة تصفية الطبقات القديمة المسيطرة ونفوذها في المجتمع وتأثيرها الاجتماعي بالاضافة الى القضاء على نفوذها السياسي والاقتصادي .

بيد ان الجانب العنفي في دكتاتورية البروليتاريا لا يمكن ان ينظر اليه في معزل عن الجانبين الرئيسيين الآخرين لها ، وهما بناء الاشتراكية ، ثم الجانب التربوي المتمثل بتربية الاجيال الجديدة واعادة تربية الاجيال القديمة وخلق المجتمع الجديد.

الديموقراطية البروليتارية :

ان دكتاتورية البروليتاريا هي التي تحقق في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة «الديموقراطية البروليتارية» . وهذه الديموقراطية حسب التعريف الذي يشير اليه كتاب «أسس الماركسية ـ اللينينية» نموذج جديد ، وشكل اعلى من الديموقراطية البورجوازية . فبفضل هذه الديموقراطية يشارك العمال في ادارة الشؤون العامة ويخلقون الشروط الملائمة لتطور الفعالية الاقتصادية والسياسية للجماهير باتجاه بناء الاشتراكية . وينقلون المجتمع من مرحلة الى مرحلة جديدة اعلى تاريخيا من سابقتها .

ان هذه الصيغة تعتمد اعتمادا اساسيا على راي لينين الذي عبر عنه في الذكرى الرابعة لثورة اوكتوبر اذ يقول (٣) : «ان نظاما يقوم بعد ثورة اشتراكية ، يشكل بالنسبة للعمال والفلاحين قمة الديموقراطية وأعلى درجة من درجاتها ، لانه يتضمن بالاضافة الى قطع الصلة بالديموقراطية البورجوازية ، ظهور نمط جديد من

---

٣ ـ نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

الديموقراطية في التاريخ المعاصر يطلق عليه اسم (الديموقراطية البروليتارية) .

فمن الخطأ في رأي الايديولوجية الماركسية المعاصرة اعتبار الدكتاتورية والديموقراطية مفهومين متناقضين ينفي احدهما الاخر بصورة متبادلة . فالتاريخ يبرهن على العكس انهما لا يتنافيان ، بل يأتلفان معا بشكل كامل . فالدولة يمكن ان تكون في الوقت نفسه «دكتاتورية» بالنسبة لطبقة اخرى. فالمهم ان نعرف دكتاتورية من ؟ وديموقراطية اية طبقة نقصد عندما نكون بصدد هذين التعبيرين .

وبهذا المقياس فان دكتاتورية البروليتاريا هي ديموقراطية الغالبية الساحقة من الشعب وهي طراز جديد من الديموقراطية ترسي القاعدة المادية اللازمة لممارسة الحقوق الديموقراطية ممارسة جوهرية لا شكلية .

ان مقياس الديموقراطية والدكتاتورية في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة ليس هو فيما اذا كانت هناك انتخابات ، ومعارضة برلمانية ، واحزاب متعددة ، وبيانات تقدمها الحكومة عن اعمالها للبرلمان ، بل ان المقياس يكمن في الجواب على السؤال الآتي : «عن مصلحة اية طبقة تدافع سلطة الدولة ، واية سياسة تتبع» ؟

في الولايات المتحدة الاميركية ، توجد احزاب مختلفة ، كما توجد معارضة داخل الكونغرس ، الا ان كل سياسة الحكومة مسخرة لخدمة مصالح عدد او زمرة صغيرة من اصحاب المليارات . لذلك فان النظام المهيمن في الولايات المتحدة ليس ديموقراطيا بل دكتاتوريا ، وبتعبير ادق هو نظام دكتاتورية الاحتكارات الراسمالية .

اما بالنسبة لدكتاتورية البروليتاريا ، فان الامر يختلف . لان هذه الدكتاتورية هي في أعماقها ديموقراطية . لانها تمثل مصالح العمال اي مصلحة غالبية الشعب . فدكتاتورية البروليتاريا تتبع سياسة موجهة نحو الغاء الاستقلال ، ورفع مستوى المعيشة ومستوى الثقافة ، والدفاع عن السلم العالمي ، وتعزيز أواصر الصداقة بين الشعوب . لذلك فهي ديموقراطية . وقد سبق للينين في كتابه «الدولة والثورة» ان اكد هذه الحقيقة بقوله : «ان دكتاتورية البروليتاريا هي (ديموقراطية جديدة) بالنسبة للكادحين و(دكتاتورية جديدة) بالنسبة الى الطبقة البورجوازية» . فهي ديموقراطية لانها تمثل سيطرة الاكثرية على الاقلية ، في حين ان دكتاتورية راس المال الاحتكاري هي على العكس ، دكتاتورية رغم غلافها الديموقراطي ، لانها سيطرة الاقلية على الاكثرية .

وبالتالي فانه لا يوجد تناقض ابدا في القول بأن دكتاتورية البروليتاريا هي في الوقت ذاته ديموقراطية من نوع جديد ، او شكل جديد من اشكال الديموقراطية .

انها «دكتاتورية» تجاه اعداء الطبقة العاملة لانها تلجأ الى اساليب دكتاتورية في قمع مقاومتهم . اما بالنسبة للعمال فهي «ديموقراطية الشرعية الحقيقية» التي تصدر عنها القرارات والتدابير الديموقراطية تجاههم .

وهكذا فان دكتاتورية البروليتاريا والديموقراطية البروليتارية هما وجهان لحقيقة واحدة . فهي بحكم كونها تمثل مصالح غالبية الشعب ، لا يمكن ان تسمح لاعداء الشعب ان يعملوا على ارجاع النظام الراسمالي وان يعارضوا ارادة الاكثرية

الساحقة من ابناء الشعب . فحل الاحزاب والتجمعات البورجوازية المضادة للثورة، والحيلولة دون نشر الافكار الفاشية او المعادية للشعب ليست في نظر الايديولوجية الماركسية تقييدا للديموقراطية ، بل هي على العكس تدابير ديموقراطية لانها في مصلحة العمال .

ان الاسس التي تقوم عليها الديموقراطية البروليتارية تتلخص في النقاط التالية:

١ ــ الغاء جميع القيود التي كانت تستند الى الامتيازات العرقية او القومية او الدينية او الجنس او مستوى التعليم .

٢ ــ عدم الاكتفاء بضمان الحقوق الديموقراطية كحرية الصحافة والمنظمات ، بل خلق الشروط التي تساعد على تمتع العمال بهذه الحقوق .

٣ ــ عدم حصر المشاركة السياسية (بحق الانتخاب) كما في الديموقراطية البورجوازية ، بل اعطاء الفرصة لطبقات واسعة من الشعب للمشاركة اليومية في الشؤون العامة ، سواء بشكل مباشر داخل المؤسسات العامة ، ام بشكل غير مباشر عن طريق اللجان او المنظمات الاجتماعية .

٤ ــ توسيع نطاق الديموقراطية حتى يشمل مجالي الاقتصاد والثقافة ، فلا يقتصر على المؤسسات السياسية كما هي الحال في الديموقراطية البورجوازية . فتاميم وسائل الانتاج ونقل المؤسسات الثقافية والتربوية وجهاز الصحافة الى ايدي الشعب جزء من مفهوم الديموقراطية البروليتارية .

دور الحزب خلال مرحلة دكتاتورية البروليتاريا :

ان قيام دكتاتورية البروليتاريا يبدل تبديلا اساسيا في وضع الحزب . فهو ينتقل من حزب يناضل من اجل استلام السلطة الى حزب الطبقة المسيطرة ، ودوره لا يتقلص في المرحلة الجديدة ، بل على العكس يزداد اهمية . فالمرجع الماركسي الحديث (أسس الماركسية ــ اللينينية) يؤكد ذلك بوضوح اذ يعتبر الحزب في المرحلة الجديدة مسؤولا عن «جميع ما ينتجه المجتمع ، وعن كل ما يحصل على صعيد سياسة دكتاتورية البروليتاريا التي تمارسها الدولة ، او على صعيد اقتصادها وتطور قوى الانتاج فيها ، او على صعيد ثقافتها او مستوى المعيشة فيها» . لان الحزب هو رمز وحدة ارادة الطبقة العاملة ، وبدونه كما يقول لينين لا يمكن ان تضمن الطبقة العاملة نجاح المرحلة الجديدة (١) «من دون حزب متماسك كالحديد عركه النضال ، من دون حزب يتمتع بثقة جميع الشرفاء من طبقة معينة ، من دون حزب يعرف كيف يستلهم خط الجماهير وكيف يؤثر فيها ، لا يمكن ان يضمن لهذا

---

١ ــ لينين : المرض الطفولي للشيوعية . المختارات ، الجزء الثاني ، ص ٦٩١ .

النضال نجاح كامل» .

ان دور الحزب في مرحلة دكتاتورية البروليتاريا تحدده الرسالة التاريخية للطبقة العاملة في خلق المجتمع الاشتراكي الشيوعي ، وليس مستمدا كما هو الحال في الاحزاب التقليدية داخل الانظمة البرلمانية، من قبل الانتخابات التي تتم بين الحين والآخر (١) .

اما مهمة الحزب فهي في تحديد الاتجاه الرئيسي لمختلف اوجه نشاط الدولة وعملها ، وفي تحديد سياستها ، وفي رسم الخط السياسي لجميع ميادين البناء الاشتراكي ، سواء على صعيد الاقتصاد او الادارة او الجيش ، او التربية ، او السياسة الخارجية ، وان يوجه عملية تحقيق هذا الاتجاه وتطبيق اسسه تطبيقا عمليا (٢) . لذلك فان الحزب يعتمد على قوتين رئيسيتين للقيام بدوره :

١ ـ الجهاز الاداري للدولة .

٢ ـ المنظمات الاجتماعية الجماهيرية .

وفي كلا الحالين ، تؤكد «مجموعة وثائق الحزب الشيوعي السوفياتي» (٣) ، على ان دور الحزب هو ان يقود تلك المنظمات لا ان يحل محلها . وان دور الحزب القائد يجب أن يشبه دور قائد الفرقة الموسيقية الذي يحقق الانسجام والتناغم بين العديد من العازفين بفضل مهارته ، ولكنه لا يحاول هو نفسه ان يعزف على عدة آلات موسيقية .

ان هذه النظرية التي تنطلق منها الايديولوجية الماركسية المعاصرة والتي تقول بأن على الحزب ان يقود منظمات الدولة لا أن يحل محلها ، تعتمد في الحقيقة على ما يقوله لينين (٤) : «لا يجوز بأي حال من الاحوال ان نخلط بين وظائف الحزب وبين وظائف الدولة . فمهمة الحزب ان يقود فعالية السوفيتات لا ان يحل محلها».

---

١ ـ اسس الماركسية ـ اللينينية . ص ٦١٠ .

٢ ـ نفس المصدر ، ص ٦١١ .

٣ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني ، ص ١٧١ .

٤ ـ نفس المصدر .

ثم ان الحزب يقود بالاضافة الى منظمات الدولة التنظيمات الاجتماعية ايضا . ودور هذه المنظمات يختلف ويتبدل في هذه المرحلة . فبعد ان كانت رصيدا قويا في معركة الصراع ضد الراسمالية ، تصبح في المرحلة الجديدة الاداة المساعدة للسلطات العامة مهمتها تربية الجماهير تربية اشتراكية ، كما تشكل الاحتياطي الذي يؤخذ منه موظفو الحزب والدولة في المستقبل .

بين التنظيمات الاجتماعية تحتل النقابات مكانا رئيسيا ، فهي تساهم في تخطيط ومراقبة الاجهزة الاقتصادية وتسهر على حماية المصالح الاقتصادية للشغيلة من الانحرافات البيروقراطية لسلطة الدولة الجديدة . الا ان ذلك لا يجوز ان يقود النقابات الى ان تعتبر نفسها البديل لاجهزة الدولة او ان تلغي الدور القيادي للحزب . فلكي تقوم اجهزة الدولة والتنظيمات الاجتماعية بمهامها على الوجه الصحيح ، يجب ان يسود نظام حديدي داخل الحزب . وكل اضعاف لوحدة الحزب يمكن ان يؤدي الى اضعاف دكتاتورية البروليتاريا وبالتالي يشكل خيانة للبروليتاريا وخدمة للبورجوازية كما يقول لينين في بحثه عن المرض الطفولي للشيوعية .

الاشكال المختلفة لدكتاتورية البروليتاريا :

ان دكتاتورية البروليتاريا ، او كما يطلق عليها ايضا «سلطة الطبقة العاملة» تشكل مرحلة عامة تنطبق في راي الايديولوجية الماركسية على جميع البلاد ، الا انها في الوقت نفسه يمكن ان تأخذ اشكالا مختلفة تبعا للشروط النوعية للمرحلة الانتقالية في بلد معين . يقول لينين (١) : «ان كل الامم سوف تصل الى الاشتراكية حتما . غير انها لن تصل بصورة واحدة تماما» . فلكي نحدد هذه الاشكال ، يجدر بنا ان نحيط بالامور التالية :

١ ـ فيما اذا كانت دكتاتورية البروليتاريا تقوم في بلد متخلف اقتصاديا حيث الطبقة العاملة تشكل نسبة عددية ضعيفة من السكان وحيث الاكثرية هي من الفلاحين . او فيما اذا كان البلد الذي تقوم فيه بلدا صناعيا متطورا ومتقدما تشكل فيه الطبقة العاملة اكثرية السكان ؟

٢ ـ فيما اذا كان نظام الحكم السابق لدكتاتورية البروليتاريا نظاما ملكيا ام نظاما تسوده التقاليد الديمقراطية البرلمانية ؟.

٣ ـ فيما اذا كانت مقاومة القوى المضادة للثورة مقاومة ضعيفة ام قوية ؟

ويمكننا ان نميز حتى الان بين شكلين من اشكال دكتاتورية البروليتاريا : الاول اخذ شكل سلطة سوفياتية في روسيا بعد ثورة ١٩١٧ . والثاني اخذ شكل

---

١ ـ اسس الفلسفة الماركسية . ص ٢٧٠ .

ديمقراطيات شعبية في شرقي وجنوب شرقي اوروبا ، بعد الحرب العالمية الثانية . ان الشكل الاول ، اي السلطة السوفياتية ، قد ولد في بلد متخلف اقتصاديا بقي طيلة قرون خاضعا لسلالة اقطاعية ، وحيث كانت مقاومة الطبقات التي ضربتها الثورة مقاومة شرسة ضارية . لذلك اخذت دكتاتورية البروليتاريا فيها شكلا قاسيا.

اما الديمقراطيات الشعبية في اوروبا فقد كانت ظروف نشأتها اكثر ملاءمة باعتبار أنها جاءت نتيجة لجبهة موحدة من القوى الديمقراطية المعادية للفاشية كما ان الطبقة العاملة فيها كانت قد كسبت لنفسها حلفاء داخل قطاعات واسعة من الشعب فقدمت بذلك للثورة دعامة اساسية . كما ان هذه الديمقراطيات الشعبية لم تأخذ منذ البداية شكل دكتاتورية بروليتارية ، بل جاء ذلك مع تطور تجربتها .

ويمكننا اذا قارنا بين دكتاتورية البروليتاريا في روسيا وبين بلاد الديمقراطية الشعبية في اوروبا ، ان نلاحظ الفروق الاتية :

١ ـ ان نظام الحزب الوحيد هو الذي طبق في روسيا السوفياتية ، الاتحاد السوفياتي فيما بعد ، عدا الفترة التي انقضت بين كانون الاول ١٩١٧ وتموز ١٩١٨ حيث كانت الاحزاب اليسارية ممثلة في (كوموسيارية الشعب) وهي فترة قصيرة لا تشكل حيزا كبيرا من التجربة الروسية . اما في بلاد الديموقراطيات الشعبية ، ففيما عدا رومانيا والبانيا حيث التقاليد التاريخية الخاصة قد ساهمت في قيام نظام الحزب الواحد ، نجد ان مبدأ تعدد الاحزاب داخل اطار مفهوم الحزب القائد هو السائد في كل من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وآلمانيا الديموقراطية والمجر والصين.

٢ ـ خلافا عن الاتحاد السوفياتي حيث الحزب يعتمد على مساعدة التنظيمات الاجتماعية وعلى اجهزة الدولة ، فقد قامت في بلاد الديمقراطية الشعبية اشكال جديدة من التنظيمات خلال الصراع من اجل الوصول الى السلطة ، واخذت شكلها ايضا حتى بعد الوصول الى السلطة ، كالجبهة القومية بين التشيك والسلوفاك في تشيكوسلوفاكيا ، والجبهة الوطنية في بلغاريا ، والجبهة الديموقراطية في البانيا ، والجبهة القومية في المانيا الشرقية .

٣ ـ ثم ان بلاد الديموقراطية الشعبية على خلاف الاتحاد السوفياتي استطاعت خلال بنائها لصرح الدولة الجديد ، ان تستفيد من المؤسسات الحكومية التقليدية كالمجلس الوطني في تشيكوسلوفاكيا وفي بولونيا .

الاشكال المقبلة لدكتاتورية البروليتاريا :

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تستنتج من التجارب التي تمت حتى اليوم، ان أشكالا جديدة سوف تنشأ ايضا في المستقبل ،

ان حركات التحرر القومي في آسيا وافريقيا وامريكا الجنوبية ، نظـــرا لتقاليدها القومية الخاصة ، تستطيع ان تعطي لسيطرة الشغيلة أشكالا جديدة ايضا.

ان هذه الاستنتاجات لا تخلو من اساس . فمنذ عام ١٩٢٣ قال لينين عندما كان يتكلم عن الثورة الروسية : «ان الثورات اللاحقة ستأخذ دون شك في بلاد الشرق التي تفوقنا بكثير من حيث عدد السكان والتي تتميز بتنوع الروابط الاجتماعيـــة وتعددها ، طابعا خاصا اكثر من الثورة الروسية» (١) .

وعلى الرغم من تعدد الاشكال التي يمكن ان تاخذها دكتاتورية البروليتاريا ، فان ثمة قواعد مشتركة عامة تقوم عليها في جميع البلاد وهي :

١ ـ الدور المتعاظم للطبقة العاملة وللحزب .

٢ ـ التحالف بين الطبقة العاملة وبين الفلاحين والطبقات الكادحة الاخرى .

٣ ـ حماية المنجزات التي حققتها دكتاتورية البروليتاريا من هجمات الاعـــداء الداخليين والخارجيين .

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني ، ص ١٧٤ .

الفصل الثاني

نظرية الحزب ـ نظرية الاستراتيجية والتكتيك

ان النتيجة المنطقية لنظرية (رسالة البروليتاريا في التاريخ) هي ان الطبقة العاملة ، التي تتميز عن سائر الطبقات الاخرى ، تحتاج الى حزب سياسي من نوع جديد يتميز هو أيضا بتكوينه وبأهدافه عن باقي الاحزاب . لان رسالة الطبقة العاملة في احداث التحول الثوري في المجتمع عن طريق استلام السلطة لا يمكن أن يحققها الا نوع معين من الاحزاب . فما هي خصائص هذا الحزب ؟ في الجواب على هذا السؤال تنتقل الايديولوجية الماركسية الى نظرية الحزب الماركسي ـ اللينيني .

ا ـ نظرية الحزب

نظرة ماركس وانجلز :

كان اهتمام كارل ماركس وفريدريك انجلز بالطبقة العاملة اكثر من اهتمامهما بالحزب ، لذلك فهما في البيان الشيوعي يقولان بان (الشيوعيين لا يؤلفون حزبا خاصا معارضا بالنسبة لباقي الاحزاب العمالية . وليس لهم مصالح واهداف متميزة عن مصالح البروليتاريا واهدافها) . صحيح أن ماركس بعد ١٨ سنة من اعلان البيان الشيوعي ، يذكر في رسائله بان (الطبقة العاملة لا تستطيع ان تعبر عن نفسها كطبقة الا اذا شكلت حزبا سياسيا متميزا) الا انه كان في الوقت نفسه يعتبر الحزب تنظيما للطبقة العاملة في مجموعها وليس مجرد (نخبة) . فهو يذكر في عبارة اخرى ضرورة (توحيد البروليتاريا في حزب سياسي) . وفي رسالة كارل ماركس الى Bolte في ٢٣ تشرين ثاني ١٨٧١ اشارة الى «ضرورة الابتعاد عن التنظيم

القاسي الشديد وعن كل ما يشجع صنمية السلطة في تكوين الحزب» . ويؤيد انجلز فكرة ماركس فيقول في رسالته الى بيكر Becker في اول نيسان ١٨٨٠ «كلما كان التنظيم متراخيا في ظاهره ، كلما كان قويا متينا في حقيقته» . وفي عام ١٨٨٥ يكتب انجلز مؤكدا بان «الحركة الالمانية العمالية لا تحتاج الى (منظمة رسمية) . فالالتحام البديهي بين مختلف اعضاء الطبقة العاملة التي تحمل نفس الافكار ، والشعور العضوي بالتضامن القائم على الوعي المشترك لوضع الطبقة العاملة الواحد، يكفي لخلق حزب البروليتاريا وتدعيمه» .

وفي ردهما على اتهامات الآخرين عام ١٨٥١ ، نجد ماركس وانجلز يذهبان حتى الى حدود النظرة السلبية لمفهوم الحزب احيانا . فهما يقولان : «أمامنا فرصة جديدة لنؤكد ونبرهن بأننا لا نحتاج الى اية شعبية ولا الى دعم حزب ما او بلد ما . فنحن بعيدون عن هذه السفاسف . وكيف يمكن لاشخاص مثلنا يكرهون المراكز الرسمية كراهيتهم للطاعون ، ان ينضموا الى «حزب» ؟ وما الذي يهمنا من الحزب نحن الذين لا نأبه الى الشعبية ونشك في انفسنا منذ ان نبدأ ونصبح ذوي شعبية» (١) .

الا اننا بالرغم من ذلك ، نستطيع ان نتبين ملامح مفهوم جديد للحزب لدى ماركس وانجلز من خلال تشديدهما على اهمية النظرية الثورية وانتقادهما لعفوية النزعة الفوضوية وتأكيدهما على ضرورة تنظيم الطبقة العاملة وتوعيتها وتعبئتها ضمن اطار حزب مناضل مستقل مرتبط مع الاحزاب العمالية برباط أممي .

نظرة لينين الى الحزب :

على خلاف ماركس وانجلز اللذين كانا يعتبران الطبقة العاملة القوة الرئيسية ، يعلق لينين آماله على الحزب كطليعة مناضلة قائدة ، وبشكل ادق على حزب الطليعة الذي يتكون من ثوريين محترفين منظمين ويتميز بطبقة دائمة من القادة الموجهين . فطيلة حياته ، وعلى وجه الدقة منذ ١٩٠٢ (وكان لينين في الثانية والثلاثين من العمر) حتى وفاته عام ١٩٢٤ ، لم يتوقف لينين عن دعم نظرية (حزب الطليعة) القائد ففي عام ١٩٠٢ يؤكد لينين في مؤلفه (ما العمل) :

١ ــ ان ما من حركة ثورية يمكن ان تعيش من دون منظمة قائدة مستقرة تكفل استمرار الحركة الثورية وديمومتها .

٢ ــ كلما اتسع نطاق العمل الجماهيري العفوي ، كلما اصبحت الحاجة الى مثل تلك المنظمة ضرورية وملحة ، وكلما اصبح من الواجب ان تكون المنظمة حازمة وقوية التنظيم .

---

١ ــ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني ، ص ٣٣ .

٣ ـ ان هذه المنظمة يجب ان تتشكل بصورة رئيسية من الثوريين المحترفين.

وفي عام ١٩٠٣ يقول في المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي ـ الديموقراطي في روسيا : (ان مهمتنا المحافظة على روح الحزم والصلابة في حزبنا وعلى نظافة هذا الحزب) (١) .

وفي عام ١٩٠٥ يقول رداً على الاحزاب والنزعات الاصلاحية المنحرفة : «ان فكرة الحزب الثوري ، تشكل ظاهرة ملازمة لاعلى مرحلة من مراحل تطور الصراع الطبقي ، ونتيجة من نتائجها» (٢) .

وفي عام ١٩١٧ ، يذكر في كتابه «الدولة والثورة» العبارة التالية : «ان الماركسية عندما تتعهد الحزب العمالي بالتثقيف والتربية ، انما تتعهد طليعة البروليتاريا القادرة على قيادة النظام الجديد بالتربية الكفيلة بجعل هذه الطليعة معلمة وقائدة لجميع العمال والمستقلين» . وفي عام ١٩٢٠ ، يقول في حديثه عن المرض الطفولي للشيوعية : «بدون حزب حديدي عركه النضال ، وبدون حزب يتمتع بثقة جميع الشرفاء من طبقة معينة ، وبدون حزب يعرف كيف يراقب الجماهير ويؤثر فيها ، يستحيل ان يكتب النجاح لنضال من هذا النوع» .

ان المبادىء التي وردت في كتابات لينين تعتبر اساس النظرية الماركسية المعاصرة حول الحزب الماركسي اللينيني فتأكيده على اهمية النظرية في بناء الحزب (لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية) وعلى ضرورة البرنامج الثوري والتربية الثورية والاحتراف الثوري ، وعلى اهمية الخطة التنظيمية ومبادىء المركزية الديمقراطية.. قد ساهم في بلورة مفهوم جديد للحزب الثوري . ويمكن ان نضيف الى ما ذكرنا من مبادىء ، ان لينين رغم تعظيمه للحزب ولتنظيمه الحديدي لم يدعم ابدا فكرة عصمة الحزب ، ولم يقل بأن الحزب لا يخطىء . بل على العكس نجده في مناقشاته في المؤتمر الثاني للدولية الشيوعية يقول بأن «الاخطاء امر لا مفر منه خلال نضال الحزب من اجل تحقيق اهدافه» . كما نجده في حديثه بمناسبة الذكرى الرابعة لثورة اكتوبر في ١٤ تشرين الاول ١٩٢١ يعترف «بالاخطاء الفادحة وبالنكسات التي رافقت عمل الحزب» . ويطالب البولشفيك ان «يأخذوا عبرة من تلك الاخطاء والحماقات وان يتسلحوا ضدها» . كما انه يذهب الى اكثر من ذلك في حديثه في ٦ اذار عام ١٩٢٢ ، عندما يقول : «بأن الاجتماعات والجلسات واللجان والمخططات التي يرسمها القادة ، كثيرا ما تكون عملا اقرب الى التسلية والطرافة منها الى العمل الجدي المثمر» .

ولكن ما هي خصائص هذا الحزب الثوري ؟

---

١ ـ نفس المصدر .

٢ ـ نفس المصدر .

خصائص الحزب :

تعرف الايديولوجية الماركسية المعاصرة الحزب الماركسي ـ اللينيني بأنه «تجمع حر من اشخاص يبشرون جميعهم بنفس الافكار ، ينتظمون لتحقيق المفهوم الماركسي عن العالم ، ولتأدية الرسالة التاريخية للطبقة العاملة» . ان المؤلف الحديث (أسس الماركسية ـ اللينينية) ، الذي يورد هذا التعريف يشير ايضا الى ان اعضاء هـذا الحزب يجب ان يتميزوا عن باقي العمال بوعيهم الاممي وبتمثلهم الدقيق للايديولوجية الماركسية وبروحهم الثورية وباستعدادهم لمواجهة الصعوبات . الا انهم في الوقت نفسه ، يجب ان يعيشوا حياة الشعب وان يشاركوا في تفاصيل هذه الحيـــاة مشاركة عميقة .

على هذا الاساس يمكن ان نميز خصائص ثلاث للحزب الماركسي ـ اللينينـــي حسب الايديولوجية الماركسية :

ا ـ الموقف الحاسم الصلب : اولا ، من النظام الراسمالي ، عن طريق النضال بكل قواه لازالة المجتمع الراسمالي وتحويله باتجـــاه ثوري واقامة دكتاتوريـــة البروليتاريا .

ثانيا ، من جميع المحاولات الرامية الى التكيف مع النظام الراسمالي .

ب ـ العمل بتوجيه النظرية الثورية الماركسية ـ اللينينية ، والتميز بالالتحام الكامل ووحدة العمل وبالتكتيك الفائق المرونة .

جـ ـ تمثيل طليعة الطبقة العاملة ، المعلمة والموجهة لجميع العمال ، والقادرة على تحريك الشعب الكادح باتجاه قلب النظام الراسمالي وبناء الاشتراكية .

وفي الموقف المشار اليه تقسيم للمراحل التي يتم خلالها نمو الاحزاب الشيوعية، وتكتسب من جرائها النضج السياسي والتنظيمي . وهذه المراحل هي الثلاث الآتية:

١ ـ في المرحلة الاولى تتم الوحدة الايديولوجية وينطلق اعضاء الحزب علـــى شكل زمر من الدعاة للتبشير بالفكرة . كما تبدأ الخطوط الاساسية لعملية التنظيم عن طريق تكوين المتفرغين للعمل الحزبي .

٢ ـ في المرحلة الثانية يبدأ تأثير الحزب على الجماهير الشعبية يظهر بوضوح . فهو الذي يقود الاضرابات والمظاهرات والحركات الاخرى . وفي هذه المرحلة تبدأ الاندفاعات العفوية للطبقة العاملة تنتظم وترتبط بالافكار الاشتراكية وتتطور باتجاه تشكيل حركة تتمتع بوعي طبقي .

٣ ـ اما المرحلة الثالثة فتشهد بلوغ الحزب درجة يصبح معها قوة سياسيـــة فعلية قادرة على قيادة غالبية الشعب لا اكثرية الطبقة العاملة فحسب .

ان الانتقال من مرحلة الى اخرى خلال تطور العمل الحزبي ، يتوقف علـــى الشروط الموضوعية ، وعلى صحة السياسة التي ينتهجها القادة وعلى امكانيـــات هؤلاء القادة .

المركزية الديموقراطية :

ان الطابع الخاص الفكري للحزب الجديد المؤهل لتحقيق رسالة البروليتاريا ، يجب ان يقترن ايضا بطابع تنظيمي خاص . ويجد الحزب الثوري الجديد في نظرية التنظيم المسماة المركزية الديموقراطية **Centralisme démocratique** اساسا لتنظيمه الثوري وتتضمن هذه النظرية التنظيمية المبادىء التالية :

١ ـ ان جميع الهيئات القيادية للحزب تنتخب من الادنى الى الاعلى .

٢ ـ على جميع هذه الهيئات القيادية ان تقدم تقارير عن نشاطها للوحدات التنظيمية في الحزب .

٣ ـ على جميع اعضاء الحزب ان يراعوا بدقة الانضباط الحزبي ، وان تخضع الاقلية دون قيد او شرط لراي الاكثرية .

٤ ـ ان لقرارات الهيئات العليا صفة الالزام المطلق بالنسبة للهيئات الدنيا .

اننا نجد في كتابات لينين الخطوط العريضة لنظرية المركزية الديموقراطية . فهو في حديثه عن المرض الطفولي للشيوعية يقول : «ان المركزية المطلقة والتنظيم الدقيق للبروليتاريا هما احد الشروط الاساسية لانتصارها على البورجوازية» . الا ان هذه المركزية يجب ان تطبق بأسلوب ديموقراطي . والمقصود بكلمة (ديموقراطي) هنا ضرورة استباق القرارات بمناقشات عامة تكشف عن مختلف الاقتراحات ووجهات النظر .

وقد وردت عبارة «المركزية الديموقراطية» لاول مرة في مؤتمر الحزب الشيوعي الروسي الذي انعقد في فنلندا في كانون اول ١٩٠٥ . وأدخل هذا المبدأ في النظام الداخلي للحزب لاول مرة في المؤتمر السادس لحزب البولشفيك في آب ١٩١٧ . ومنذ ذلك الحين بدأ يعم هذا المبدأ في النظم الداخلية لسائر الاحزاب الشيوعية ، حتى شمل النظم الداخلية في ٨٧ حزبا شيوعيا هي مجموع الاحزاب الموجودة حاليا.

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتبر المركزية الديموقراطية مبدأ جامعا للتنظيم الحديدي في الحزب ولمبادهة جماهير اعضاء الحزب ، لمركزية القيادة ولديموقراطية القاعدة .

قواعد الانتساب الى الحزب :

ان الاهداف الكبرى تحتاج الى اشخاص في مستواها وفي مستوى القدرة على تحمل تبعاتها ، لذلك كان الدخول الى الحزب عملية تتطلب شروطا معينة . وقد كان الاختلاف بين قادة حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي حول هذه الشروط سببا في انقسامه الى بولشفيك ومانشوفيك عام ١٩٠٥ . فقد سبق ذلك في المؤتمر الثاني للحزب عام ١٩٠٣ الذي حضره ٤٣ مندوبا ، ان قام تعارض بين

وجهتي نظر لينين ومارتوف حول تعريف العضو الحزبي ومن يملك الحق في ان يكون شيوعيا . فمارتوف Martov يقترح ان تكون المادة الاولى من النظام الداخلي ما يلي : «يعتبر عضوا في الحزب كل شخص يقبل منهاج الحزب ويدعم الحزب ماديا» . الا ان لينين اعتبر هذا التحديد ناقصا ، واقترح اضافة الفقرة التالية : «والذي يعمل بصورة منتظمة تحت قيادة احدى منظمات الحزب» . وقد استهدف لينين بهذه الفقرة اعتبار النشاط الفعلي المنظم اساسا في قبول الاعضاء، واحاطة الانتساب الى الحزب بهالة حقيقية من الجدارة النضالية . الا ان اقتراح لينين فشل في مؤتمر ١٩٠٣ ولكنه نال اكثرية الاصوات في مؤتمر ١٩٠٥ . ولم يعد الانتساب الى الحزب عملا مباشرا وسهلا بل اصبح خاضعا لقواعد مشددة تبدأ بصفة النصير ، فالمرشح ، فالعضو . وتستغرق هذه المراحل عدة سنوات تتم خلالها عملية فحص القابليات والمؤهلات النضالية للمتدرب . ان الانتساب حاليا الى الحزب يتطلب الشروط الآتية :

١ – ان يكون نموذجا يحتذى في العمل ، وان يدعم كل ما هو جديد وتقدمي ، وان ينمي مؤهلاته المهنية ويطور اختصاصاته ، وان يحمي الملكية الاجتماعية .

٢ – تنفيذ مقررات الحزب بحزم ودون تردد، وتوثيق الصلة بالشعب، والتعامل اللطيف مع الآخرين والاستجابة لرغبات العمال وحاجاتهم .

٣ – المشاركة الفعالة في الحياة الاقتصادية – والسياسية والثقافية للبلاد ، وان يكون قدوة في تنفيذ واجباته الاجتماعية .

٤ – ان يمتلك النظرية الماركسية – اللينينية امتلاكا عميقا ، وان ينمي وعيه السياسي وان يناضل ضد جميع مظاهر الايديولوجية البورجوازية وضد عقلية الملكية الفردية وسائر مخلفات الماضي السلبية .

٥ – الدفاع عن فكرة الاممية الاشتراكية وعن الوطن السوفياتي بقوة . والنضال ضد التعصب القومي والدعوة الى التضامن والصداقة بين شعوب المعسكر الاشتراكي ، وبين العمال من جميع البلدان .

٦ – المحافظة على الوحدة الايديولوجية والتنظيمية للحزب ، وحماية الحزب من تسرب العناصر المشبوهة ، والاخلاص للحزب والمحافظة على اسراره واسرار الدولة .

٧ – كشف محاولات التخريب في الانتاج والقضاء عليها ، والوقوف في وجه كل ما يسيء الى الحزب والدولة ومحاربة الغرور والانفراد والتقوقع الاقليمي ، وابلاغ المراجع الحزبية عن كل خلل يمكن ان يهدد الحزب والدولة .

٨ – الاعتماد في توظيف الموظفين وفي ترقيتهم على الكفاءة والمؤهلات السياسية والمهنية فقط .

٩ – المحافظة على الانضباط والنظام في الحزب والدولة .

ان هذه الشروط قد لا تراعى جميعها في الانتساب الى الحزب الشيوعي في جميع البلدان ، لان هذه الشروط خاصة بالاتحاد السوفياتي وظروفه وتقاليد حركته

العمالية . الا ان المبدأ اللينيني في الانتساب الى الحزب (الذي يتطلب من العضو ان يعمل بانتظام داخل منظمة من منظمات الحزب) يبقى مبدأ عاما تلتزمه جميع الاحزاب في جميع البلدان .

على كل حال ، فان قواعد الانتساب الى الحزب تتضمن غايتين : احداهما سلبية غرضها الحيلولة دون تسرب العناصر الدخيلة والمشبوهة الى الحزب . والاخرى ايجابية تهدف الى اتاحة الفرصة امام الحزب لاختيار اعضائه من العناصر النضالية ذات الامكانيات والوعي والاخلاص التي تستطيع ان تكون مصدر قوة للحزب ودما جديدا يغذيه . لذلك كان لينين يطالب بان يجدد الحزب أنتسابات اعضائه بين الفترة والاخرى لكي ينقي الحزب من العناصر التي تشكل عبئا عليه او خطرا يتهدده .

الديموقراطية داخل الحزب :

في الاحزاب الماركسية ــ اللينينية ، تمارس الديموقراطية داخل الحزب . وهي ديموقراطية العمل الموحد التي لا تكتفي من الاعضاء بمجرد المناقشة والتصويت ، بل تشركهم في تقرير الاتجاه العام الذي يجب ان يسلكه الحزب . فمقررات الحزب تتخذ بشكل يشارك فيها الجميع . فطالما ان القرار لم يتخذ بعد يتمتع الاعضاء بحرية معارضة المشاريع المطروحة بل والدفاع عن وجهات نظر معاكسة . فالنقد مشروع في الحدود التي تسمح بالكشف عن اخطاء ونواقص المشروعات وعن اسبابها ، وبتقديم اقتراحات تتجاوز تلك الاخطاء وتتلافاها . لان هناك فرقا بين النقد المفيد وبين النقد الصادر عن مجرد لذة النقد ، فهذا النوع الاخير يضعف الحزب . فالذي ينتقد «يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ، كما يقول لينين وضع الحزب، وانه محاط بالاعداء ، وان يضع اقتراحاته على محك العمل بمشاركته المباشرة في عمل السوفييت والحزب وتصحيح اخطائهما» .

اما عندما يتخذ قرار ما ، فان جميع الاعضاء مكلفون بتنفيذه بما فيهم اولئك الذين صوتوا ضده من قبل . فمشاركة الاعضاء لا يجوز ان تحد من صلاحية القيادات . لان الاحزاب الثورية لا تستطيع ان تتصرف بنجاح الا اذا كانت لها قيادات ثابتة لها تجربتها وصلاحياتها وتأثيرها . وهذه القيادات وان كانت خاضعة لمراقبة اعضاء الحزب ، الا انها تملك صلاحيات واسعة لتنفيذ مقررات الحزب والاشراف والتوجيه والمبادرة لتحقيق خطة الحزب العامة .

لذلك يتطلب الانضباط الحزبي شروطا ثلاثة :

١ ــ خضوع جميع اعضاء الحزب لقرارات الحزب وتنفيذها بأمانة حتى لو جاءت هذه القرارات مخالفة لوجهات نظر سبق ان طرحها الاعضاء قبل اتخاذ القرار .

٢ ــ عدم مناقشة القضايا الداخلية للحزب خارج الاجتماعات الحزبية .

٣ ـ الامتناع عن كل تكتل او تجمع خاص داخل الحزب ، لان هذه الانقسامات ذات طابع انتهازي يصح في العمل البرلماني ولا ياتلف مع طبيعة الحزب الثوري ذي الايديولوجية الواحدة .

ان هذا الشرط الاخير مستمد من اقتراح لينين بانزال اقصى العقوبات الحزبية بما فيها الفصل من الحزب لمن يلجأ الى خلق تكتلات داخل الحزب ، هذا الاقتراح الذي اقره المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي السوفياتي في اذار عام ١٩٢١ .

يضاف الى العناصر السابقة في (نظرية الحزب) ، عنصر آخر تتضمنه هذه النظرية ، وهو الخاص بالنضال ضد الانحراف الحزبي وضد النزعات الاصلاحية فيه وضد الجمود العقائدي .

قانون الدفاع عن الحزب :

ان هذا النضال حسب (نظرية الحزب) يعتبر قانون الدفاع عن الحزب ضد الاخطار الداخلية التي تواجهه خلال تطوره . فالانحراف او الخروج عن الخط العام للحزب ورد لاول مرة على لسان لينين في المؤتمر العاشر عام ١٩٢١ اذ يقول بان «الذين بدأوا يضلون عن طريق الحزب وما يزال بالامكان اصلاحهم ، وارجاعهم الى خط الحزب ، هم الذين يشكلون ظاهرة الانحراف . فالانحراف شيء يمكن تصحيحه ، فهو بداية اتجاه سياسي لم يتحدد نهائيا ، ولا يجوز ان يبقى خارج افق الحزب » .

ان مكافحة هذه النزعة تعتبر في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة مبدأ اساسيا للمحافظة على نقاوة الحزب ، ولقطع الطريق على البورجوازية ان تستفيد من التناقضات الداخلية في الحزب لتخريبه ولعدم ترك المجال امام الاعضاء الجدد الذين يأتون من أصول طبقية وسيطة مترددة سياسيا ان يسمموا جو الحياة الحزبية برواسب عقلياتهم البورجوازية او البورجوازية الصغيرة ، ولبتر كل محاولة تهدف الى التكيف مع النظام الراسمالي .

اما النزعة التحريفية Rèvisionisme فتشكل بدورها خطرا لا يقل عن خطر الانحراف Dèviationisme وهي النزعة التي ترمي الى التقليل من قيمة النظرية الماركسية ـ اللينينية ، وتدعي بأنها اصبحت متخلفة وغير قادرة على استيعاب التطورات الاجتماعية الجديدة ، لذلك فهي تطالب بتطوير الماركسية . ومنذ عام ١٩٥٧ ، نجد الاحزاب الشيوعية تجمع على ضرورة مكافحة هذه النزعة والقضاء عليها ، لانها باتت تشكل خطرا جديا .

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تأخذ على النزعة التحريفية المآخذ التالية :

١ ــ انها تعمل بكل قواها على تحطيم الروح الثورية للماركسية ــ اللينينية وعلى زعزعة ايمان الطبقة العاملة بالاشتراكية .

٢ ـ انها تتمرد على الضرورة التاريخية لثورة البروليتاريا وتتنكر لنظريـة دكتاتورية البروليتاريا كمرحلة انتقال بين الراسمالية والاشتراكية .
٣ ـ انها ترفض دور الحزب الماركسي اللينيني القائد .
٤ ـ انها ترفض الطابع الاممي للبروليتاريا .
٥ ـ انها تطالب بالتنكر للمبادىء اللينينية في تنظيم الحزب اي لنظرية المركزية الديموقراطية .

٦ ـ انها تطالب الحزب الشيوعي بالتحول من منظمة مكافحة ثورية الى نـادٍ للحوار والمناقشة .

وفي المؤتمر الذي انعقد في موسكو خلال شهري تشرين الثاني وكانون الاول من عام ١٩٦٠ وضم ممثلين عن ٨١ حزبا شيوعيا ، جدد المؤتمرون القرار الذي سبق ان اتخذوه في مؤتمر عام ١٩٥٧ بضرورة مكافحة هذه النزعة ، وادانوا الافكـار الاصلاحية التي تهيمن على الشيوعيين اليوغوسلافيين المناهضة للافكار اللينينية.

بالاضافة الى مكافحة النزعات التحريفية والاصلاحية ، تتضمن (نظرية الحزب) مكافحة خطر آخر ، هو خطر الجمود العقائدي **Le dogmatisme** وخطر النزعات الانعزالية .

ويقصد بالجمود او التصلب العقائدي التسليم المطلق بالنظرية بما فيها الجوانب التي ثبت تخلفها . كما يقصد بالانعزالية النزعة التي تؤدي الى عزل الاحـزاب الشيوعية عن الجماهير العمالية .

ان المآخذ الرئيسي للايديولوجية الماركسية على هاتين النزعتين هـو كونهما متخلفتين ، وبعيدتين عن خط التطور وعن قابلية التكيف مع الشروط الجديدة . ويذكر كمثل على الانعزالية ، التيارات الداخلية التي كانت تهيمن على الاحـزاب الشيوعية في اوروبا الغربية في العشرينات من هذا القرن وكانت ترفض المشاركة في انتخابات البرلمانات البورجوازية وفي بعض النقابات حيث يتطلب العمل شيئا من المرونة وبعض التنازلات . كما كانت ترفض فكرة الجبهة الموحدة وفكرة الجبهة الشعبية، وتحتقر العمل في المنظمات الجماهيرية وترتاب وبالعمال الذين لا ينتسبون الى احزاب وتنسب الى ظاهرتي الجمود العقائـدي والانعزالية الخصائص التالية :

أ ـ انها تحرم الاحزاب الثورية من امكانية تطوير الماركسية ـ اللينينية علـى اساس التحليل العلمي ومن امكانية تطبيقها تطبيقا مبدعا منسجما مـع الشروط الواقعية المشخصة .

ب ـ انها تعزل الشيوعيين عن جماهير العمال الواسعة وتحكم عليهم بالوقوف موقف المنتظر او بالاندفاعات التي تحمل طابع المغامرة اليسارية المغالية .

ج ـ لا تسمح باصدار حكم مناسب على الاوضاع المتبدلـة وعلى التجارب الجديدة ، وتحول دون استغلال جميع الامكانيات لصالـح الطبقة العاملة وظفرها

وصالح الشعوب الديموقراطية خلال صراعها ضد الامبريالية والرجعية واخطار الحرب .

ان مكافحة هاتين الظاهرتين تشغل حيزا كبيرا من اهتمام الاحزاب الشيوعية بعد ظاهرة النزعة الاصلاحية ، لانها كثيرا ما تؤدي الى نتائج تغذي هذه الظاهرة الاخيرة .

بهذا نكون قد انتهينا من عرض نظرية الحزب ، وننتقل بعدها الى البحث في نظرية (الستراتيجية والتكتيك) في الايديولوجية الماركسية المعاصرة .

ب ـ نظرية الستراتيجية والتكتيك

وجهات نظر ماركس وانجلز ولينين :

تدرس نظرية الستراتيجية والتاكتيك «الطريق الكفيلة بتحقيق الخط العام للحزب بصورة عملية» . لذلك فان النظرية الماركسية في الستراتيجية والتكتيك لم تأخذ شكلها المحدد الا بعد نشوء الحزب الماركسي ـ اللينيني وتبلوره . ففي كتابات ماركس وانجلز لا نعثر على نظرية للستراتيجية والتكتيك . وكل ما نجده لدى مؤسسي الماركسية ايحاءات واقتراحات خاصة بوضع محدد او ببلد معين . واذا عدنا الى البيان الشيوعي ١٨٤٨ لا نجد تحديدا لخط عام يعكس استراتيجية معينة، بل اشارة الى ان الشيوعيين «يدعمون في كل مكان كل حركة ثورية موجهة ضد الوضع الاجتماعي والسياسي القائم» . وفي عام ١٨٥٠ يحدد ماركس العلاقة مع الحزب العمالي الثوري ومع ديموقراطية البورجوازية الصغيرة كما يلي : «ان الخط المشترك لهذه العلاقة هو مقاومة كل عدو مشترك» . وفي عام ١٨٤٧ كان فريدريك انجلز قد صنف الفئات السياسية والاجتماعية والعلاقة معها في ثلاث زمر :

١ ـ اتباع النظام الاقطاعي الذين يجب ان يكونوا موضع هجوم عنيف من قبل الشيوعيين .

٢ ـ انصار المجتمع البورجوازي الذين يجب ان يستمر صراع الشيوعيين معهم دون انقطاع .

٣ ـ الاشتراكيون الديموقراطيون الذين يجب ان تقوم العلاقة بهم على اساس من التفاهم والعمل المشترك ، طالما ان هذه الفئة بعيدة عن الارتماء في أحضان البورجوازية وطالما انها لا تهاجم الشيوعيين .

الا ان قضايا الستراتيجية والتاكتيك بدأت تحتل المكان الاول ، منذ اقترنت الايديولوجية الماركسية بوجود الحزب الذي يحتاج في مواجهته المباشرة للعالم الخارجي الى طرق تكفل له النجاح سواء في الهجوم او الدفاع ، في العمل البرلماني

او في العمل المسلح ، في المناورة على الخصوم وفي سرعة تبديل المواقع . فمن هذا الواقع المشخص بدات بذور نظرية الستراتيجية والتاكتيك تنمو وتنضج .

في عام ١٩٠٥ عرف لينين التاكتيك بما يلي : «يقصد بتاكتيك حزب ما موقفه السياسي ، اي طابع نشاطه السياسي واتجاهه وطرقه . والحلول التاكتيكية تكون متبناة من قبل مؤتمر الحزب لتحديد الموقف السياسي في مجموعه تحديدا دقيقا بالنسبة للمهمات الجديدة او بسبب تحول يطرا على الوضعية السياسية» (١) .

ولم يتوقف لينين عن دفع الشيوعيين الى الاستفادة من تناقضات الخصوم والى نقل تأثيرهم الى جميع الاوساط حتى الى المنظمات المغرقة في رجعيتها ، والى التصرف في مجال العمل السياسي ببراعة وبمرونة كبيرة في التاكتيك ، وان لا يعرفوا فقط كيف يهاجمون في الوقت المناسب ، بل وكيف ينسحبون ويتراجعون ويكسبون في كل ميدان حلفاء لهم حتى ولو كان حلفاؤهم مترددين وكان التحالف قصير الامد . ففي مؤلفه (ما العمل ؟) يقول : «ان الذي لا يملك ذرة من الثقة بنفسه وحده ، هو الذي يرفض التحالفات المؤقتة العابرة مع اشخاص مشكوك في امرهم . لان ما من حزب سياسي يستطيع ان يبقى بعيدا عن مثل هذه التحالفات» .

وفي عام ١٩١٦ يقول لينين في (المؤلفات الكاملة) : «نكون اشباه ثوريين اذا لم نعرف كيف نستفيد خلال نضال البروليتاريا التحرري من اجل الاشتراكية ، من كل حركة شعبية تتمرد على مختلف تناقضات الامبريالية ، بغية توسيع الازمة وتعميقها » .

وفي ١٤ ايلول من عام ١٩١٧ يوضح لينين جانبا آخر من نظرية التاكتيك فيقول: «ان دور الحزب الثوري حقا لا ينحصر في اعلان رفضه لكل شكل من اشكال التسويات ، بل علي العكس فان هذا الدور يقوم على ابقاء الحزب امينا على مبادئه وعلى ارتباطه الطبقي ، وعلى مهمته الثورية رغم كل التسويات التي يجد ان لا مناص منها ، وان تكون مهمته من خلال ذلك كله التهيئة للثورة واعداد الجماهير الشعبية لضمان انتصار الثورة» .

وفي حديث لينين عن الحرب والسلم في المؤتمر السابع للحزب (اذار ١٩١٨) يذهب الى أبعد من ذلك فيقول : «اذا لم نعرف كيف نتكيف ونتلاءم ، واذا لم نكن قادرين أن نزحف على البطون عبر الاقذار . فلن نكون ثوريين ، بل مجرد ثرثارين. انني لا اقترح ان نتكيف على هذا النحو لان ذلك يرضيني ، بل لانه ما من وسيلة اخرى ، ولان التاريخ لا يجري حسب هوانا» (٢) .

وفي عام ١٩٢٠ يقول لينين بصدد البحث عن المرض الطفولي للشيوعية : «يجب أن نوطد انفسنا على بذل كل التضحيات وعلى التغلب على اكبر الصعوبات

---

١ - الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني ، ص ٥٠ .

٢ - الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني ، ص ٥١ .

حتى تصل دعايتنا وتأثيرنا بشكل منظم ودؤوب الى اكثر المؤسسات والمنظمات والتجمعات رجعية ، التي تشترك فيها جماهير كادحة او شبه كادحة» .

وفي نفس العام اي في ايار ١٩٢٠ يقول لينين ايضا في المرجع ذاته : « طالما انتم لم تتوصلوا الى درجة من القوة تمكنكم من الغاء البرلمان البورجوازي وباقي المؤسسات الرجعية الاخرى ، فانتم مطالبون بالعمل داخل تلك المؤسسات» . ويتابع لينين شرح هذه الفكرة فيقول : «لا يمكن الانتصار على خصم اقوى الا اذا استخدمنا اسلحته واستطعنا ان نستغل بمهارة وحذر الانقسامات في صفوف العدو وتضارب المصالح بين البورجوازية في مختلف البلدان ، واستفدنا من كل امكانية مهما كانت بسيطة لكسب حليف لنا . فالذي لا يفهم هذا الشيء لم يفهم حرفا من الماركسية ومن الاشتراكية العلمية» . وينتهي لينين من شرح فكرته الى القول : «يجدر بنا ان نربط بين الاخلاص للافكار الشيوعية وبين الاستعداد لعقد التسويات العملية الضرورية والمراوغة والمهادنة والتقدم بخط لولبي والتراجع الستراتيجي .. الخ» . هكذا يحدد لينين مفهوم التكتيك ، فالتسويات لها حدود : فهي جائزة طالما انها تنسجم مع مصلحة اهداف الحزب ، ولا يجوز السماح بها الا اذا كانت مساعدة على التعجيل بالثورة وعلى دعم مواقع الطبقة العاملة والحزب .

التمييز بين الستراتيجية والتكتيك :

تعريف ستالين يحدد الاستراتيجية على النحو التالي : «هي تحديد اتجاه الاندفاعة الاساسية للبروليتاريا على اساس مرحلة معينة من مراحل الثورة ، وانضاج مشروع مناسب لعمل القوى الثورية (الاحتياطي الرئيسي والاحتياطي المساعد) ، والنضال من اجل تحقيق هذا المخطط خلال المرحلة الثورية المحددة» . اما التكتيك حسب التعريف الستاليني فهو «رسم خط سير البروليتاريا للمرحلة القصيرة نسبيا من مد الثورة او جزرها ومن صعودها او هبوطها . فهو النضال من اجل تحقيق خط السير عن طريق

استبدال الاشكال القديمة للنضال وللمنظمات بأشكال جديدة واستبدال الشعارات القديمة بشعارات جديدة عن طريق التاليف بين هذه الاشكال .. الخ» (١) .

وقد استعان ستالين بالمقارنات المستمدة من الحياة العسكرية للتمييز بين الستراتيجية والتاكتيك ، فهو يقول : «اذا كانت الستراتيجية تهدف الى متابعة الحرب ضد القيصرية او البورجوازية مثلا ، حتى نهايتها . فان التكتيك لا يتطلع الى اهداف دونها اساسية عندما لا يهتم بربح الحرب بمجموعها بل بكسب هذه المعركة او تلك من المعارك ، او بهذا العمل او ذاك مما يأتلف مع الواقع العملي المشخص في مرحلة صعود الثورة او انحدارها» .

ويجب ان تؤخذ بعين الاعتبار

لدى وضع هذه الستراتيجية الاعتبارات الآتية :

أ ـ تحديد الهدف الاساسي لمرحلة طويلة من النضال السياسي والعدو الرئيسي الذي يجب ان يتركز عليه الهجوم .

ب ـ تنظيم العلاقة بشكل صريح وواضح مع الطبقة الوسيطة التي تخضعها مصالحها المزدوجة الى تقلبات سياسية خطيرة تدفعها احيانا الى عقد تسويات مع العدو الاساسي .

جـ ـ تحديد حلفاء الطبقة العاملة وصيغة التعاون مع هؤلاء الحلفاء .

ستالين هؤلاء الحلفاء ،

ينظر اليهم ، مجرد (قوى احتياطية)

لا

يكفي ان يعتمد قادة الحزب على تحليل سليم للاوضاع وان يضعوا خطة صحيحة للعمل السياسي بل لا بد لنجاح سياسة الحزب نجاحا كاملا من ان يظهر القادة فنا في تحقيق خطة الحزب .

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، ص ٥٢ .

ان الدراسات النظرية لا تكفي لامتلاك هذا الفن في القيادة السياسية ، ولا بد من التجربة الفنية ، لان التجربة هي المعلم الرئيسي لهذا الفن . ومع ذلك فان دراسة تجارب الاحزاب الاخرى والحركة الشيوعية العالمية بعمق ، تساعد كثيرا على الحد من الاخطاء والنكسات ، في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة .

ان كتاب لينين حول (تصلب اليسار والمرض الطفولي للشيوعية) يعتبر مصدرا هاما في موضوع نظرية التاكتيك او فن القيادة السياسية . ومن خلاله ومن خلال كتابات لينين الاخرى نتبين ان مفهوم القيادة السياسية يتضمن العناصر الرئيسية التالية :

ا ـ قابلية العمل وسط الجماهير :

فالاحزاب الثورية وقادتها يجب ان يعيشوا مع العمال وان يشاركوهم آمالهم ، كما ان الحزب يجب ان يسهر على الالتحام بين توجيهاته وبين معطيات التجربة العملية فلا تكون بعيدة عن حياة الناس . فكما قال لينين في حديثه عن المشكلة الزراعية (ايار ١٩١٧) : «ان ملايين الناس لا تستمع الى توجيهات الاحزاب الا اذا كانت متفقة مع ما علمتهم اياه تجاربهم الخاصة . فقادة الحزب يجب ان يستعملوا كل الوسائل والطرق التي تستجيب لوعي الشعب الكادح وللتجربة ، والتي تمكن الحزب في الوقت نفسه من قيادة هذا الشعب لتحقيق اهدافه الكبرى» .

ب ـ الاستعداد للتعاون مع الحلفاء السياسيين :

ان من واجب الاحزاب الثورية ان تظهر المزيد من الاستعداد لانتهاج خطة موحدة مع القوى والتجمعات الاخرى الحليفة التي تنادي بآراء تختلف حول القضايا الرئيسية .

ج ـ انتقاء الاشكال الملائمة في صراعها مع الخصوم :

فالاحزاب الثورية مطالبة ايضا بان تختار اشكال الصراع التي تنسجم اكثر مع ضرورات وضع معين ، وان تملك الاستعداد لتغيير هذه الاشكال تبعا لتغيير هذا الوضع سواء كان التغيير سريعا او مفاجئا . كما انها لا يجوز ان تغرق في العطالة وان تنتظر ساعة الخلاص معتمدة على ارادة التاريخ المجردة ، بل يجب ان تكون مبادهة وان تلتمس في احرج الظروف وفي فترات الفشل وحتى في قلب النكسات، امكانيات النضال الفعال واشكال الصراع الجديدة التي تضع اساس الانتصارات المقبلة . فعليها اذن ان تملك فن التراجع كما تملك فن الهجوم .

د ـ القدرة على اكتشاف اللحمة الاساسية بين سلسلة الظواهر :

فعلى الاحزاب الثورية ان تملك الاستعداد للتمييز داخل الظواهر المتراكمة بين القضايا السياسية الاكثر اهمية والاقل اهمية ، وان تركز جهودها حول عمل اساسي يشكل لحمة الظواهر . ان عبارة (اللحمة الاساسية للسلسلة) مستقاة من عبارة لينين التي يقول فيها (الجزء الثاني من منتخبات لينين ١٩٥٣ ، ص ٣٩٠) : «لا يكفي ان تحمل صفة الثوري او الاشتراكي او الشيوعي ، بل يجب ان تعرف كيف تكتشف في كل لحظة اللحمة الخاصة للظواهر التاريخية التي يجب ان تمسك بها بكل قواك حتى تمسك جيدا بالسلسلة كلها ، وتتهيأ للانتقال بيد قوية الى حلقة جديدة من حلقات السلسلة . ذلك ان السلسلة التاريخية للحوادث تختلف في نظامها وشكلها وعلاقاتها عن السلسلة التي يصيغها الحداد ، اختلافا اساسيا» .

سياسة الجبهات والاحلاف :

ان (نظرية الستراتيجية والتاكتيك) تنطوي على توجيهات عامة ، حول ضرورة كسب حلفاء يعملون في صف الحزب لتحقيق اهداف الثورة . بيد ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تذهب الى ابعد من ذلك وتحاول ان تجيب على اسئلة عملية حول كيفية اقامة الجبهات والاحلاف . واذا رافقنا تطور الحركة الماركسية ـ اللينينية وجدنا ان مفهوم الجبهة او مفهوم العمل الموحد بين الاحزاب الشيوعية وحلفائها ، قد اخذ اسماء متعددة : (الجبهة الموحدة) و (الجبهة الشعبية) و (الجبهة القومية) ... الخ . فمنذ عام ١٩٢١ طرحت في المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية فكرة (الجبهة العمالية الموحدة) . ثم استمر النقاش طيلة العشرين سنة التي تلت هذا المؤتمر حول ما اذا كانت الجبهات يجب ان تتم على المستويات العليا (اي من فوق) عن طريق اتفاقات رسمية بين قادة الاحزاب الشيوعية والنقابات الاشتراكية ـ الديموقراطية ، أم انها يجب ان تكون الافضلية للجبهات التي تعقد (من تحت) اي بالعمل مع اعضاء في الاحزاب والمنظمات الاخرى تحت قيادة الحزب الشيوعي ؟

وفي المؤتمر السابع للاممية الشيوعية عام ١٩٣٥ طرحت فكرة (الجبهة الشعبية) التي تجمع الى جانب العمال والفلاحين المثقفين التقدميين والبورجوازية الصغيرة في المدن . وقد اتسعت هذه الجبهة حتى للبورجوازية الوطنية في فرنسا عام ١٩٣٥ وفي اسبانيا خلال الاعوام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ .

وقد استمرت سياسة الجبهات خلال الحرب داخل حركة المقاومة للفاشية كالجبهة الوطنية في بلغاريا عام ١٩٤٢ ، والجبهة (الوطنية ـ الديموقراطية) في رومانيا عام ١٩٤٤ وجبهة (الاستقلال الوطني) في هنغاريا عام ١٩٤٤ والجبهة القومية الفرنسية عام ١٩٤١ ولجنة جبهة التحرير الوطني في ايطاليا عام ١٩٤٣ وهي الى حد ما مستقلة عن توجيه الحزب الشيوعي الروسي) .

تعريف الجبهات وضرورتها :

(جبهة الوحدة العمالية) تعرف بانها «تجمع قوى الطبقة العاملة على الصعيد المحلي والقومي والعالمي ، للنضال ضد الفاشية والرجعية الامبريالية والحرب ، وفي سبيل المصالح الاقتصادية والسياسية للعمال» .

اما (الجبهة الشعبية) فتعرف بانها «تجمع الجماهير الشعبية الواسعة من عمال وفلاحين ومثقفين تقدميين وبورجوازيين صغار وبورجوازيين وطنيين ، للنضال المشترك ضد الفاشستية والحرب ومن اجل الاستقلال الوطني وتحقيق المطالب الملحة للجماهير الشعبية» .

الفصل الثالث

نظريات الثورة الاشتراكية : التجارب القومية التحررية والثورة العالمية

١ ـ نظرية الثورة الاشتراكية

ان نظرية الثورة الاشتراكية تشكل تتمة للسلسلة التي بداناها بالبحث عن نظرية رسالة البروليتاريا ثم عن نظرية الحزب ، فالستراليجية والتاكتيك .

ان مفهوم «الثورة الاشتراكية» يتحدد حسب النظرة الماركسية المعاصرة في التعريف التالي : «مجموعة التبدلات السياسية والاقتصادية التي تؤدي الى القضاء على النظام الراسمالي قضاء نهائيا ، والى بناء الاشتراكية . وهي تبدأ بالانقلاب السياسي ، اي بتحطيم سلطة الراسماليين ، وباقامة سلطة الشغيلة» (١) .

ان النظرية الحالية للثورة الاشتراكية تحدد اولا شروط الثورة وضرورتها والقوى الاجتماعية المحركة للثورة ، واخيرا التوجيهات اللازمة لستراليجية الحزب وتاكتيكه بصدد السير بشعوب البلاد الراسمالية المتقدمة نحو الثورة ، ووسائل الصراع ومراحله . ولكن كيف تطورت هذه النظرية ؟

---

١ ـ اسس الماركسية اللينينية ١٩٦٠ ، طبعة برلين الشرقية ـ ص ٥٢٢ .

الثورة الاشتراكية حسب ماركس وانجلز :

كان ماركس وانجلز متفقين على ان الثورة الاشتراكية ممكنة فقط في الدول الصناعية الراسمالية التي هي على جانب كبير من التقدم فهي ليست ممكنة في جميع البلاد وفي جميع العصور ، بل لا بد من توفر بعض الشروط وبعض المقدمات. فالراسمالية يجب ان تشغل مكانا ومستوى اقتصاديا متقدما ، وان تتوفر الشروط المادية لقلبها واحلال الاشتراكية محلها . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فان التناقضات بين المستوى الاقتصادي والتكنيكي للتطور (اي قوى الانتاج) وبين العلاقات الاجتماعية (اي علاقات الانتاج) ، يجب ان تكون قد بلغت حدا من الخطورة يصبح معه التغيير الجذري للنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي امرا لا مفر منه . فالثورة الاشتراكية في راي ماركس وانجلز لا تصنع صنعا ، ولا يمكن ان تنتشر وان تتحقق حسب ارادتنا ، بل هي نتيجة حتمية لظروف موضوعية وشروط مستقلة عن ارادة الاحزاب والطبقات والشخصيات السياسية .

ان هذه الفكرة الرئيسية قد عرضها ماركس بصورة خاصة في مؤلفه المشهور «مقدمة لنقد الاقتصاد السياسي» حيث يقول : «ان قوى الانتاج المادية تدخل في مرحلة من تطورها في تناقض مع العلاقات القائمة للانتاج ، او اذا اردنا ان نستعمل اللغة الحقوقية ، مع علاقات الملكية ، بحيث تصبح هذه العلاقات معيقة للتطور ، في هذه المرحلة يبدأ عصر الثورة الاجتماعية ...» (١) .

ثم ان أنجلز قد أوضح اكثر من مرة كون الثورة الاشتراكية «لا تتوقف على الطبقة العاملة فحسب ، بل على مستوى الانتاج ايضا ، هذه القوى التي تتطور داخل اطار النظام الراسمالي وتؤدي بالضرورة الى تحطيمه» (٢) .

فالثورة الاشتراكية كما يقول انجلز «لا تحتاج الى وجود بورجوازية تطورت على يديها قوى الانتاج الاجتماعية الى درجة تسمح بالقضاء على الفروق الطبقية» . لذلك نبه ماركس الى ضرورة الانتباه الى هذه النقطة والى «عدم استباق مراحل التطور الثوري ودفعه دفعا مصطنعا الى حافة الازمة ، والى عدم ارتجال الثورة قبل ان تتهيأ الشروط اللازمة لها» .

فقد كان ماركس وانجلز متفقين على ان هذه الشروط ما لم تتوفر ، فان الثورة الاشتراكية غير ممكنة . فثورات ١٨٤٨ لم تكن اشتراكية في رأيهم لان مستوى التطور الاقتصادي في القارة الاوروبية لم يكن قد بلغ مرحلة تسمح بالغاء النظام الراسمالي بعد . كذلك فان روسيا القيصرية في السنوات السبعين من القرن الماضي لم تكن قد نضجت بعد لثورة اشتراكية كما يقول انجلز ، لان البروليتاريا

---

١ ــ ماركس (كانون الثاني ١٨٥٩) . المختارات ، الجزء الاول . ص ٣٢٨ .

٢ ــ انجلز (حزيران ١٨٧٢ ــ شباط ١٨٧٣) . المختارات ــ الجزء الاول . ص ٣٨٨ .

والبورجوازية كانتا في مرحلة منخفضة من التطور .

ان المستوى العالمي من التطور الاقتصادي والتكنيكي لا يشكل بالنسبة لماركس وانجلز الشرط الاولي الضروري للثورة الاشتراكية فحسب . بل ايضا الشرط الاولي للمجتمع الاشتراكي قبل ان يخلق ، والا فان الجمود والتقهقر في قوى الانتاج لا بد أن يعم مجتمع ما بعد الثورة فحل الطبقات لا يكون خطوة الى الامام وخطوة ثابتة ، الا اذا توفر شرط التطور الاقتصادي والتكنيكي قبل الثورة . ان هذه التأكيدات لا نجد لها ذكرا في المؤلفات الماركسية المعاصرة .

ثمة فكرة اخرى اكد عليها ماركس وانجلز بوضوح ايضا ، وهي ان الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تتحقق في بلد واحد . بل يجب ان تتحقق في وقت واحد في عدة بلدان دفعة واحدة . فهي ثورة عامة سوف تجتاح كما يقول انجلز كل البلدان المتمدنة ، على الاقل : انجلترا واميركا وفرنسا والمانيا . ويمكن ان نجد بذور هذه الفكرة في البيان الشيوعي منذ عام ١٨٤٨ حيث يعتبر العمل المشترك للبلدان المتقدمة على الاقل ، احد الشروط الاولية لتحررها . امام هذه التأكيدات يتبين لنا لماذا لا تشكل نظرة ماركس وانجلز المصدر الاساسي لنظرية «الثورة الاشتراكية» في الفكر الماركسي المعاصر .

نظرية لينين في الثورة الاشتراكية :

لقد اعاد لينين النظر في الفكرتين الرئيسيتين اللتين انطلق منهما ماركس وانجلز . ففي مطلع القرن العشرين ، عندما اسس لينين «حزبا من طراز جديد» ، لم تكن تتوفر في روسيا ، لا الشروط الموضوعية (مرحلة التطور الاجتماعي والاقتصادي) ولا الشروط الذاتية (القوة العددية والنضالية للطبقة العاملة) المؤاتية للثورة الاجتماعية . فوجد لينين نفسه ــ وهو الرجل الذي جمع في شخصه المفكر النظري الماركسي ، والمناضل العملي الثوري ، امام اختيار تاريخي : اما ان يدفع باهدافه العملية الثورية الى الوراء وان يؤجل تحقيقها ريثما تتوافر الشروط التي اكد عليها ماركس وانجلز . او يعيد النظر في تلك الشروط وان يكيفها وفق الشروط الاجتماعية ، لروسيا القيصرية .

امام هذا الاختيار التاريخي ، اختار لينين الموقف الثاني . وفي عام ١٩٠٥ استبدل لينين افكار ماركس وانجلز عن الثورة العمالية الاشتراكية ، بنظرية جديدة، هي نظرية «التحول التدريجي لثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية».

ان هذه النظرية تؤكد امكانية هذا الانتقال بشكل تدريجي . فبقدر ما تتم الثورة الديموقراطية البورجوازية بشكل كامل ومنتظم في ظل النظام الراسمالي ، بقدر ما يصبح النضال اللاحق من اجل الاشتراكية سهلا في نظر لينين . فالطبقة العاملة في رايه يجب «ان لا تكتفي بالمساهمة الفعالة في ثورة الديموقراطية البورجوازية ــ رغم

كونها ليست ثورة اشتراكية ــ ، بل يجب ايضا أن تحاول استلام قيادة هذه الثورة. وفي نفس الوقت ، فان على الطبقة العاملة (اي الحزب كما يشير لينين) ان تعمل على ان تجعل من طبقة الفلاحين حليفتها الكبرى ، وان تقضي على تأثير البورجوازية . ان ثورة الديموقراطية البورجوازية لن تؤدي اذا طبقت هذه السياسة ، الى الجمهورية البرلمانية البورجوازية ، بل الى شكل جديد للدولة يطلق عليه لينين اسم «دكتاتورية الديموقراطية الثورية للبروليتاريا وطبقة الفلاحين» . وهذه الدكتاتورية يجب أن تعتمد على تسليح الجماهير وعلى العصيان المسلح لا على المؤسسات التي نشأت بالطريق الشرعي السلمي . ومهمتها تتحدد في الغاء الاقطاعية واعلان الجمهورية الديموقراطية وتحقيق الاصلاح الزراعي وتحقيق مكاسب للعمال والفلاحين وفتح باب الثورة الديموقراطية للثورة الاشتراكية» (١) .

في المرحلة الاولى من الديموقراطية البورجوازية ، يكون من واجب الطبقة العاملة (اي الحزب) «ان تتحالف مع مجموع الفلاحين لتسدد ضربة ساحقة للاقطاعية وتشل الموقف المتردد للبورجوازية . وعندما تتبدل الموازين في القوى الطبقية عبر المرور الى المرحلة الثانية ، يتبدل ايضا تاكتيك الحزب . فالطبقة العاملة يجب ان تعتمد على العمال الزراعيين وصغار الفلاحين والعناصر نصف البروليتارية من الشعب لتحطيم مقاومة البورجوازية وشل الموقف المتردد لباقي الفلاحين وللبورجوازية الصغيرة»(٢).

وقد عمد لينين الى تبسيط هذه الفكرة والى تلخيصها في شعارات (٣) :

في المرحلة الاولى : النضال مع الشعب كله من اجل الحرية الكاملة ، من اجل التحول الديموقراطي الجذري ، ومن اجل الجمهورية .

في المرحلة الثانية : قيادة نضال العمال وجميع المستغلين ، من اجل الاشتراكية.

ان هذا التحول التدريجي لا يعني التوقف عند مرحلة الديموقراطية البورجوازية، بل المهم في هذا التحول هو الانتقال من هذه المرحلة الى المرحلة الاشتراكيــة دون توقف . او كما يقول لينين (٤) : «سوف نبدأ مباشرة خلال الثورة الديموقراطية ، وتبعا لقوانا وقوى الطبقة البروليتارية الواعية المنظمة ، مرحلة الانتقال الى الثورة الاشتراكية . فهدفنا هو الثورة الدائمة التي لا تنقطع ، ولن نتوقف في منتصف الطريــق » .

بعد عشر سنوات ، اي في خريف عام ١٩١٥ ، أعاد لينين النظــر في الفكرة الثانية التي اكد عليها ماركس وانجلز ، اي فكرة قيام الثورة الاشتراكية في عـدة بلدان في آن واحد . لان الظروف قد تبدلت كما يقول لينين . «فقد ادى قيـام

---

١ ــ لينين . المختارات ، الجزء الاول ، ص ٤٤٩ ، ٤٥٦ ، ٥٤٢ .
٢ ــ نفس المصدر . ص ٤٩٧ ــ ٤٩٨ .
٣ ــ نفس المصدر . ص ٥٠٩ .
٤ ــ نفس المصدر . ص ٥٤١ ــ ٥٤٢ .

النظام الامبريالي العالمي بمجموعه الى انضاج ظروف الثورة الاشتراكيةوامكانية قيامها في بلد واحد» . (المختارات الجزء الاول ، ص ٧٥٢) .

وفي عام ١٩١٦ ، اكد لينين على هذه الفكرة من جديد في مؤلفه «برنامج عسكري للثورة البروليتارية» فقال : «ان تطور الراسمالية يتم بصورة متفاوتة تفاوتا كبيرا بين بلدان العالم ، ومن هنا كانت النتيجة التي لا مفر منها ، وهي ان الاشتراكية لا يمكن ان تنتصر في وقت واحد في جميع البلدان . انها سوف تنتصر اولا في بلد واحد او في عدد قليل من البلدان ، في حين ان البلدان الاخرى سوف تظل فترة من الزمن بورجوازية او شبه بورجوازية» (المختارات ، ص ٨٧٨) .

الطابع الحتمي للثورة :

ان النظرية الحالية للثورة الاشتراكية تعتمد بالدرجة الاولى على وجهة نظر لينين . وهي تعتمد القاعدة التالية : «وهي ان الثورة تصيب الحلقة الضعيفة من السلسلة التي يتألف منها النظام الامبريالي العالمي . اي انها تقوم في البلد الذي تبلغ فيه التناقضات الاقتصادية والسياسية للنظام الراسمالي الذروة ، وحيث تعجز الطبقة المسيطرة عن التغلب على الحركة الثورية ، وحيث القوى الثورية قد وصلت الى درجة عالية من التنظيم والقوة» (١) .

ان تطور النظام الامبريالي قد وصل الى حدود انضاج الثورة ، لان تناقضاته قد دخلت مرحلة الازمة العامة ، لذلك فان النظرية الحالية للثورة الاشتراكية تذهب الى القول : «ان ما من بلد يحول تخلفه الاقتصادي او اي سبب داخلي آخر فيه ، من امكانية الانضمام الى قافلة الثورة الاشتراكية» (٢) . وهذا يعني ان الثورة ممكنة في المرحلة الراهنة في جميع بلدان العالم .

الا ان نظرية الثورة الاشتراكية لا تتوقف عند حدود تقرير امكانية الثورة في بلد من بلدان العالم ، بل تتعدى ذلك الى تقرير «ضرورتها» ، اي طابعها الحتمي . فالثورة ضرورة حتمية لانها «الوسيلة الوحيدة التي تسمح للعمال بأن يتحرروا من الاضطهاد والاستغلال الطبيعي ، وان يضعوا حدا نهائيا للحروب ، وان يحققوا الديموقراطية الحقيقية وحرية الشعوب واستقلالها» (٣) .

ان جميع اخطاء الحاضر ومفاسده ـ استغلال العمال ، والغرم الذي يصيب الفلاحين والطبقة الوسطى من جراء الاحتكارات ، والعدوان على الديموقراطية ،

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني ، ص ١١٠ .
٢ ـ نفس المصدر .
٣ ـ نفس المصدر .

والفاشية الجديدة ، والاضطهاد القومي ، واخطار حرب جديدة ـ مرده الى النظام الراسمالي والامبريالية ، ولا يمكن القضاء عليها الا بثورة اشتراكية . كما ان تضخم التناقضات التي تنطوي عليها الامبريالية ، يجعل من الثورة الاشتراكية القاعــدة الموضوعية للعصر الذي تعيش فيه . وهكذا فان الثورة الاشتراكية حقيقة حتمية لا مناص منها . ومن هذه الحقيقة تستمد الطبقة العاملة والاحزاب التي تمثلها قوتها التاريخية .

ان لهذه الثورة عوامل محركة وقوى فاعلة تتحدد في الطبقات التي تحقق الثورة وتنميها وتتغلب على مقاومة الطبقات التي فات اوانها . ومهما كانت طبيعة القوى الاجتماعية التي تساهم في قلب النظام الراسمالي ، فان من الضروري ان تلعب الطبقة العاملة الدور الحاسم في الثورة الاشتراكية . ومن واجبها ، حتى في البلاد الراسمالية المتخلفة حيث لا تشكل سوى اقلية من الشعب ، ان تجمع تحت قيادة الحزب جميع الطبقات الكادحة لاعدادها للثورة الاشتراكية . ذلك ان نجاح الثورة الاشتراكية يتوقف على حدة الصراع الذي تدخله الطبقة العاملة وعلى درجة وعيها وتنظيمها وعلى مقدرتها على كسب حلفاء لصفها وتوحيد جهودهم مع جهودها . وهذا يعني ان مهمة الحزب ودوره يتركز على ضرورة اعداد جميع الطبقات الكادحة وتهيئتهم للثورة الاشتراكية .

التحضير للثورة :

ان المعايير التي يمكن ان نحكم من خلالها على المرحلة الثورية وعلى توفر عوامل موضوعية ناضجة ومؤاتية لاستلام الجماهير للسلطة ، هي في نظر الماركسية المعاصرة المعايير التي وضعها لينين عام ١٩١٥ ذاتها :

١ – لا يكفي حتى تندلع ثورة ان تكون الطبقات المحرومة المضطهَدة المستغلة قد استنفدت صبرها ، فلا بد ان تكون الطبقة المسيطرة ايضا قد وصلت الى وضع لم تعد فيه قادرة على الاحتفاظ بسيطرتها .

٢ – تفاقم بؤس الطبقة المضطهَدة وتجاوز محنتها للحدود المألوفة العادية .

٣ – تزايد فعالية الجماهير تزايدا يجعلها في ظروف الازمة العامة مهيئة لعمل تاريخي مستقل .

وبكلمة واحدة ، فان الثورة غير ممكنة بدون ازمة عامة تشمل طرفي المعادلة : الطبقات المضطهدة والطبقة المسيطرة . وهذه الازمة تتجلى في مظاهر متعددة كتزايد كمية البطالة وحجمها وارتفاع الاسعار بشكل سريع ، وتجاوز الاستغلال للحدود العادية وتفاقم البؤس . ورغم ذلك كله فان الشروط المادية لا تشكل وحدها معيارا للاوضاع المهيئة للثورة ، فالى جانب «العوامل المادية» يجب ان تنضاف «العوامل السياسية» ، كتزايد خطر الحرب ، وخطر الرجعية والفاشية وخطر الاحتلال الاجنبي . تلك هي العوامل الموضوعية التي تمهد للثورة . الا ان الوضع الثوري قد لا يؤدي بالضرورة الى قيام الثورة . ذلك ان هذه «العوامل الموضوعية»

تبقى بحاجة الى «العوامل الذاتية» ، اي لاستعداد الطبقة الثورية ، ولقدرتها على القيام بعمل جماهيري ثوري قوي يقلب السلطة ، وينضج وعيها السياسي وينمي نضاليتها .

العمل المسلح :

ان هدف الثورة الاشتراكية هو استلام السلطة ، اي انتزاع السلطة من الطبقات التي كانت مسيطرة من قبل ونقلها الى الطبقة العاملة وحلفائها ، ان شكل استلام السلطة يتوقف على الشروط العامة وعلى الوضع المشخص للبلد الذي تقوم فيه الثورة وعلى درجة حدة الوضع الثوري وخصوصيات الوضع القومي وعلى موازين القوى بين الطبقات وعلى درجة التنظيم التي تكون عليها الطبقة العاملة او خصومها. وقد اعتبرت الماركسية الثورة البروليتارية طريق الثورة الاشتراكية الحتمي لان التاريخ يكشف عن حقيقة واضحة ، وهي ان الطبقات المسيطرة لا تتخلى من ذاتها عن السلطة وبشكل عفوي . لذلك كان العمل المسلح هو الشكل التقليدي للانقلاب السياسي . وهذا ما عبر عنه ماركس بقوله : «ان القوة خدمت دائما ، عبر التاريخ ، بوصفها القابلة القانونية التي يلد على يديها النظام الاجتماعي الجديد» .

ان العمل المسلح اذا ابتعد عن المغامرة وعن اساليب العصابات ، واخذ شكل عمل جماهيري عام ، يمكن ان يعتبر شكلا من اشكال الصراع السياسي . والايديولوجية الماركسية المعاصرة تتبنى هذا الاسلوب في الحدود التي رسمها لينين في تعليماته في خريف ١٩١٧ ، اي في المرحلة التي سبقت مباشرة الثورة البولشفية ، حين قال (١) :

«ان العمل المسلح يجب ان يعتمد على منعطف تاريخي للثورة تكون فيه فعالية الصفوف التي تتقدم الشعب هي الاقوى» .

ان نجاح هذا العمل المسلح يعتمد في رأي لينين على التزام القواعد الآتية :

١ ــ لا مجال للعب في مجال العمل المسلح . فعندما يبدأ به يجب ان يتابع حتى النهاية .

٢ ــ ان تفوقا كبيرا في القوى يجب ان يتركز في المنطقة الحاسمة للصراع وفي اللحظة البسيكولوجية المناسبة ، والا فان العدو الاكثر تدريبا وخبرة وتنظيما لا بد ان يسحق المتمردين .

٣ ــ منذ بدء العمل المسلح ، يجب ان نتصرف بحزم شديد وان نقف في جميع الاحوال موقف الهجوم ، لان موقف الدفاع يعني الموت ، فهو مقبرة للعمل المسلح .

---

١ ــ الحرب ، الجيش والستراتيجية (المختارات ، الجزء الثاني ، ص ١٧٩ ــ ١٨٠) .

٤ ـ ينبغي ان نحاول دوما ان نأخذ العدو على حين غرة ، فالمفاجـــأة عنصر اساسي ، وان ننتهز الفرصة التي تكون فيها قطعات العدو منهارة .

يجب ان نحصل يوميا على بعض الانتصارات مهما كانت بسيطة وان نحتفظ بأي ثمن بالتفوق المعنوي .

ب ـ نظرية التجارب القومية التحررية

كيف تنظر الايديولوجية الماركسية الى حركات التحرر القومية والى دوافعهـا وخصائصها ، وما هو الدور الذي ترتبه هذه الايديولوجية على الاحزاب الشيوعية في قارتي آسيا وافريقيا بوجه خاص ؟ على هذا السؤال تحاول ان تجيب «نظريـة التجارب القومية التحررية» (١) .

موقف ماركس وانجلز ولينين :

ان كتاب أسس الفلسفة الماركسية يعزو للامم وللحركات القومية التحررية في عصرنا الراهن اهمية بالغة في تطور الانسانية . ولا شك ان ذلك يصعد الى مؤسسي الماركسية .

فقد انشغل ماركس وانجلز بالحركات القومية التحررية التي ظهرت في اوروبا في عصرهما . وبالرغم من ان المستعمرات والحركات القومية التحررية فيها لم تدخل بعد في حسابهما . فان نظرة ماركس وانجلز بهذا الصدد لم تخل من بعض التنبؤات، كالتنبؤ بسقوط السلالة الحاكمة في الصين وقيام نظام جمهوري فيهـــا : « ان الامبراطورية التي تعتبر اقدم الامبراطوريات على الارض واكثرها منعة ، هي علـى ابواب تحول اجتماعي ستكون له نتائج بالغة الاهمية بالنسبة الى الحضارة» . وان كان ماركس قد اضاف بنوع من الحيطة قائلا : «ان الاشتراكية الصينية قد لا يمكن

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني . ص ٦٩ .

مقارنتها بالاشتراكية الاوروبية الا بقدر ما يمكن مقارنة الفلسفة الصينية بالفلسفة الهيجلية» (مجلة الاقتصاد السياسي ، عدد كانون ثاني ــ شباط ١٨٥٠) .

كما تنبأ ماركس للهند بتبدل حاسم في حياتها فقال بأن «الهنود قد بلغوا درجة من القوة تسمح لهم بزعزعة التاج البريطاني بشكل حاسم» . وفي رسالة انجلز الى كاوتسكي في ١٢ ايلول ١٨٨٢ ، يتنبأ ايضا بقيام ثورات في الهند ومصر والجزائر في نفس الوقت الذي سوف يحدث فيه التحويل الاشتراكي في اوروبا وامريكا الشمالية . فهو يقول : «في رايي ان المستعمرات التي يصح ان تطلق عليها هذه التسمية ، اي البلدان التي تحتلها شعوب اوروبية ككندا واستراليا واتحاد جنوب افريقيا ، سوف تصبح مستقلة جميعها . اما البلدان الخاضعة للسيطرة الاستعمارية كالهند والجزائر والبلدان الخاضعة للسيطرة البرتغالية والاسبانية والهولاندية ، فسوف تقودها البروليتاريا بسرعة كبيرة نحو الاستقلال . ومن الصعب التنبؤ كيف سيتحقق ذلك . فقد تقوم الهند بثورة ، فهذا محتمل جدا . وقد يحدث نفس الشيء في الجزائر ومصر . اما ما هي المراحل الاجتماعية والسياسية التي سوف تقطعها تلك البلدان قبل الوصول الى التنظيم الاشتراكي فذاك امر لا نستطيع ان نكون حاليا بشأنه سوى فرضيات ضعيفة» . اما لينين فقد عاصر بداية نشوء الحركات القومية التحررية في البلدان المستعمَرة والمحتلة والخاضعة للنفوذ الاستعماري ، وأدرك اهميتها بوضوح . فمنذ عام ١٩٠٨ بدأ يكتب مقالاته حول (مشكلة القوميات والمستعمرات) ويشير الى الثورة والحركات الثورية التي بدأت ظواهرها في القارة الاسيوية ويحيي يقظة شعوب آسيا ودخولها الى المسرح السياسي .

وفي عام ١٩١٣ يشير لينين الى حدث هام احاطه بكل اهتمامه وهو غزو الحركة الثورية الديموقراطية لاندونيسيا ، وروح المقاومة التي تظهرها الجماهير ضد السيطرة الهولاندية كما انه يستنتج من مجموعة الظواهر الجديدة ان على الحركة الثورية الاوروبية ان تنظر باهتمام وثقة الى هذا الحدث الهام وهو ان «القارة الاسيوية بملايينها الثمانمائة قد دخلت في الصراع لتحقيق نفس الاهداف والمثل». ويتابع لينين قائلا : «ان ما من قوة في العالم تستطيع ان ترمم تصدع النظام الاقطاعي في آسيا» . وفي عام ١٩١٤ يكتب لينين قائلا : «ان الاعمى وحده هو الذي لا يعير اهتماما للظهور المفاجىء لسلسلة كاملة من الحركات القومية ، وللجهود التي تبذل لخلق دول موحدة قومية ومستقلة» .

وبلغ من الاهمية التي اعطاها لينين لنشوء الحركات القومية التحررية في آسيا ، ان اعتبر «اليقظة الآسيوية» عصرا جديدا دخل فيه تاريخ العالم مع مطلع القرن العشرين . وعلى الرغم من اختلاف مهام الحركة الاشتراكية في اوروبا عن مهام الحركات القومية في المستعمرات ، فان لينين كان يقدر بأن هناك ضرورة لجمع القوتين . ففي عام ١٩١٦ يكتب قائلا : «ان الحركة الثورية (ضد البورجوازية في البلدان المتقدمة) لا يمكن ان تحقق اهدافها الا بالتحالف مع الحركات القومية التحررية للامم المتخلفة المضطهَدة» . فالحركة العمالية الثورية الاوروبية في راي لينين مطالبة

بدعم الحركات القومية التحررية وخاصة العناصر الاكثر ثورية فيها .

وبعد انتصار ثورة اوكتوبر عام ١٩١٧ ، وتاسيس الدولية الشيوعية عام ١٩١٩ طرح لينين عام ١٩٢٠ التوجيهات التالية بصدد حركات التحرر القومية :

١ ـ ضرورة دعم الاحزاب الشيوعية لحركات التحرر القومية للديموقراطية البورجوازية .

٢ ـ مناهضة القوى الرجعية وعقلية القرون الوسطى التي لها تأثيرها في عرقلة تطور البلدان المتخلفة .

٣ ـ مناهضة تيارات التجمع الديني والاحلاف الدينية التي تهدف الى استغلال النضال التحرري ضد الامبريالية الاوروبية والاميركية لتعزيز مواقع الزعماء الدينيين الاقطاعيين ملاك الاراضي .

٤ ـ دعم النضال الذي يقوم به الفلاحون والحركات الفلاحية في البلدان المتخلفة ضد كل مظاهر النظام الاقطاعي ، دعما قويا حارا .

٥ ـ مقاومة جميع المحاولات الرامية الى اضفاء الصفة الشيوعية على حركات تحرر البورجوازية الديموقراطية في البلدان المتخلفة .

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتمد على هذه التوجيهات التي اوردها لينين . اما دور الاحزاب الشيوعية في حركات التحرر القومية ، فقد حدده لينين في المؤتمر الثاني للدولة الشيوعية (تموز وآب ١٩٢٠) بقوله : «ان مسألة قيام حركة بروليتارية صرف في البلدان المتخلفة ، مسألة غير ذات موضوع ، الا ان الطبقة العاملة والحزب الشيوعي يجب أن يلعبا دورا قياديا في الحركات القومية التحررية في تلك البلدان . ففي هذه البلاد لا توجد عمليا طبقة بروليتارية صناعية ، والهدف الرئيسي يتركز على ضرورة تجنيب تلك البلاد مرحلة التطور الراسمالي والوصول بها الى النظام الاشتراكي بفضل دعم بروليتاريا البلدان المتقدمة لهذه البلدان المتخلفة » .

حق تقرير المصير والاستقلال الذاتي :

تنطلق الايديولوجية الماركسية المعاصرة في تبنيها لحق تقرير المصير والاستقلال الذاتي للشعوب ، من المبادىء التي سبق لانجلز وللينين ان حدداها حسب التسلسل التاريخي الآتي :

● في عام ١٨٧٤ يقول انجلز : «ان شعبا يضطهد شعوبا اخرى ، لن يتمكن من تحرير نفسه » .

● وفي عام ١٨٨٢ يقول في رسالته الى كاوتسكي : «ان هناك شيئا مؤكدا وهو ان البروليتاريا الظافرة لن تفرض السعادة على اي شعب» .

● وفي عام ١٨٨٨ يقول ايضا : «لكي نوطد السلم العالمي ، لا بد ان نلغي اولا

الخصومات القومية . فكل شعب ينبغي ان يكون مستقلا وسيدا لمصيره» .

● وفي عام ١٨٩٢ يتابع التركيز على هذه الفكرة فيقول : «ان التعاون الدولي المخلص بين الامم الاوروبية لا يمكن ان يتحقق الا اذا كانت كل امة منها مستقلة إستقلالا كاملا» .

اما لينين فهو يستعيد المبادىء التي اوردها انجلز فيؤكد عليها ويوضحها ويضيف اليها :

● وفي عام ١٩١٤ ، يذكر العبارة التالية : «يجب ان نفهم بحق تقرير المصير وبالاستقلال الذاتي ، حق تشكيل دولة قومية مستقلة» .

● وفي عام ١٩١٥ : «اننا نؤيد حق الامم المضطهَدة بالاستقلال الذاتي ، اي بالحرية والانفصال عن غيرها من الامم الاجنبية» .

● وفي عام ١٩١٦ يؤكد من جديد بان «الاشتراكية الظافرة مسؤولة لا عن تحقيق الديموقراطية المتكاملة والمساواة بين الامم فحسب ، بل وعن حق الامم المضطهَدة في الاستقلال الذاتي والانفصال السياسي الحر ايضا» .

● وفي نفس العام ، يعود فيؤكد على مبدأ انجلز : «ان شعبا يضطهد الشعوب الاخرى لا يمكن ابدا ان يكون حرا» . ثم يقول : «ان اي عملية الحاق وربط تبعي ، انما هي تعد على مبدأ حق تقرير المصير للامم ، وفرض لحدود دولة فرضا مخالفا لارادة الامة» .

● وفي عام ١٩١٧ يثبت هذا الحق للامم التي يتكون منها الاتحاد السوفياتي .

● وفي عام ١٩١٩ ، يكرر باستمرار قوله : «ان لجميع الامم الحق في تقرير المصير والاستقلال الذاتي ، وكل امة يجب ان تحصل على هذا الحق وتمارسه» .

غير ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة بقيت تضع النضال من اجل الاشتراكية في المكان الاول وتعطيه اولوية ورجحانا على الحركات القومية التحررية وعلى النضال القومي التحرري ، وهي في ذلك تعتمد على آراء لينين . ففي كانون الثاني من عام ١٩١٩ يقول لينين : «ان القضية القومية بالمقارنة مع القضية العمالية تاتي بدرجة لاحقة من الاهمية» . ويذهب الى ابعد من ذلك في قوله : «ما من ماركسي واحد يستطيع ــ دون ان يخرج على المبادىء الماركسية والاشتراكية ــ ان لا يقر بان مصلحة الاشتراكية هي في مستوى ارفع من مستوى حق الشعوب في تقرير المصير والاستقلال الذاتي» .

القومية اليسارية :

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتمد في مواجهتها للقضايا القومية على التاريخ المشخص الواقعي وتميز كما سبق للينين ان ميز في (٣١ كانون اول ١٩٢٢) «بين قومية شعب يستعمر غيره وبين قومية شعب مضطهَد ، وبين قومية امة كبيرة

وقومية امة صغيرة» .

لذلك فان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تفرق بين قومية البلدان الراسمالية المتطورة وبين قومية شعوب البلدان المستعمَرة والمتخلفة . ففي البلدان الراسمالية المتطورة صناعيا كالولايات المتحدة وفرنسا وانجلترا ... تغذي القومية روح التعالي والصلف والغرور الاجتماعي والتفوق العسكري . فهي اذن في حقيقتها رجعية معاكسة للتطور . وهي تستخدم وسيلة في يد الراسمال الاحتكاري لتبرير اضطهاده لباقي الشعوب . لذلك فان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتبر الشيوعيين مسئولين عن محاربة هذه القومية الرجعية دون هوادة .

اما قومية الشعوب المضطهَدة المستعمرة ، فهي في نظر الايديولوجية الماركسية شيء آخر يختلف عن القومية السابقة . فهي تعكس احتجاج تلك الشعوب على الاضطهاد الراسمالي ، وتعبر عن ارادة تلك الشعوب في التحرر والاستقلال والتغيير الاجتماعي . فهي اذن بصورة عامة تعبير عن ديموقراطية حركات التحرر القومية . لذلك فان الايديولوجية الماركسية المعاصرة كما يشير الى ذلك كتاب اسس الماركسية ـ اللينينية ، «تعتبر من واجب الشيوعيين ان يدعموا بكل اخلاص هذه القومية التي تهيمن على بلدان افريقيا وآسيا دون ان يبتعدوا قيد انملة عن مبادىء الاممية البروليتارية» . وهكذا فان القومية التي تنادي بالاستقلال والتحرر وتشكل قوة ضاربة موجهة للامبريالية والاقطاعية وتوقظ لدى الشعوب المتخلفة الوعي السياسي والشعور بالكرامة تحظى بتأييد الايديولوجية الماركسية المعاصرة . اما المحاولات التي تستغل القومية لاهداف واغراض رجعية ، وتستخدمها كأداة لتعزيز الانانية القومية ولاضطهاد الشعوب الاخرى ، فهي تشكل خطرا يجب مقاومته والحيلولة دونه ودون اعاقة التطور التاريخي .

القوى الفاعلة في الحركات القومية التحررية :

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة ترى ان الاشكال الكبير الذي وقع فيه النظام الاستعماري يرجع الى ان السلطات المستعمِرة الامبريالية وجدت نفسها مضطرة بحكم مصالحها الى انشاء صناعات في البلاد المستعمَرة . الا ان هذا التصنيع ما لبث ان تحول الى اداة في يد الشعوب المضطهدة ، لانه خلق القاعدة الاجتماعية الثورية لحركات التحرر القومية . فالطبقة العاملة مؤهلة مع الاحزاب الشيوعية حسب المفهوم الماركسي ، لان تلعب الدور القيادي في تلك الحركات ، رغم قلة عدد العمال في البلدان المتخلفة ، وما ذلك الا لان الطبقة العمالية هي التي تتحمل القسم الاكبر من الاضطهاد ، ولأن ظروفها القاسية هي التي تخلق لديها الاستعداد السريع لنمو الوعي الطبقي والوعي القومي ، وبالتالي فانها تعتبر المعبر الاقوى عن مصلحة الشعب بمجموعه .

الا ان الطبقة العاملة لا تستطيع ان تقوم بهذا الدور القيادي الا اذا تحالفت تحالفا قويا مع طبقة الفلاحين التي تشكل قوة هامة ولها اهميتها ودورها الرئيسي في حركة التحرر القومي ، الا انها بحكم ظروفها ونقص ثقافتها وطابعها المتخلف لا تستطيع ان تكون على رأس تلك الحركة ، بيد انها تشكل قاعدتها الجماهيرية الواسعة .

اما البورجوازية فهي تشكل العنصر الاكثر تناقضا في داخل حركة التحرر القومي . فالقاعدة العامة : ان يكون مالكو وسائل الانتاج ، اي الطبقة العليا الرجعية من البورجوازية مرتبطين ارتباطا وثيقا بالامبريالية ، وان يشكلوا مع ملاك الاراضي الاقطاعيين ، جبهة معارضة لقوى التحرر القومية . بيد ان (البورجوازية الوطنية) غالبا ما تتصرف على نحو آخر : فتشارك في حركة التحرر القومي وترى في الاستقلال والتحرر من الارتباط الاجنبي وسيلة لتحقيق اهدافها في حماية السوق القومية من الاحتكارات الاجنبية . لذلك فان البورجوازية الوطنية تندفع في غالب الاحيان لاستلام قيادة حركة التحرر الوطني مستفيدة من امكانياتها الثقافية ونشاطها السياسي .

لذلك فان كتاب اسس الماركسية ـ اللينينية ، والبيان الصادر في كانون اول ١٩٦٠ عن ٨١ حزبا شيوعيا ، يصفان البورجوازية الوطنية بأنها «ذات مسحة تقدمية الا انها مترددة ومضطرة الى المساومة مع الامبريالية والاقطاعية» .

وبسبب هذا الطابع المزدوج للبورجوازية ، فان مشاركتها في حركة التحرر القومي تأخذ اشكالا مختلفة . لذلك فان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتبر ان من واجب الشيوعيين ان يشيدوا بالجهود الوطنية للبورجوازية دون ان ينسوا ان البورجوازية الوطنية تعمل على الاحتفاظ بالطابع السكوني للحياة الاجتماعية وتميل الى التحالف مع الرجعية الداخلية ومع الامبريالية كلما ازدادت التناقضات الاجتماعية حدة .

كما ان كتاب اسس الفلسفة الماركسية يشير الى ان اهم قوة في الحركة التحررية الوطنية هي تحالف الطبقة العاملة والفلاحين ، وان هذا التحالف هو شرط رئيسي لنجاح الثورة الوطنية التحررية . كما ان المرجع المذكور يشير الى مهمات هذه الثورة التي هي ليست من طبيعة بروليتارية اجتماعية ، لانها لا تضع امامها مهمة تحطيم الراسمالية واقامة المجتمع الاشتراكي . بل ان جوهرها الاجتماعي يقوم على اساس تحطيم بقايا العلاقات الاقطاعية وازالة مخلفات النظام الاستعماري وازاحة الاحتكارات الاجنبية وبناء صناعة وطنية والقيام بتحولات جذرية بالزراعة .

الجبهات الوطنية الشعبية :

ان ظروف الكفاح القومي التحرري تحتم قيام جبهات موحدة وطنية او قومية .

فالقضايا الكبرى لا يمكن ان تواجه مواجهة قوية ولا يمكن ان تحل الا بتضافر جميع الجهود والقوى الوطنية في الامة . لذلك لا بد في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة من شكل من أشكال الوحدة الوطنية الديموقراطية للقيام بالاعباء الكبرى للنضال . اما المهام الوطنية الديموقراطية فهي حسب المفهوم الماركسي :

١ ـ تدعيم الاستقلال السياسي .
٢ ـ الغاء النفوذ الاقطاعي .
٣ ـ الاصلاح الزراعي لمصلحة الفلاحين .
٤ ـ الغاء الاسباب الاقتصادية لسيطرة الامبريالية .
٥ ـ الغاء الاحتكارات الاجنبية على الصعيد الاقتصادي .
٦ ـ خلق صناعة وطنية وتطويرها .
٧ ـ رفع مستوى المعيشة للشعب .
٨ ـ استكمال الطابع الديموقراطي للحياة العامة .
٩ ـ اتباع سياسة خارجية مستقلة وسلمية .
١٠ـ توسيع التعاون الاقتصادي والثقافي مع البلدان الاشتراكية والبلدان الصديقة الاخرى .

ويضيف كتاب (أسس الماركسية ـ اللينينية) الى المبادىء العامة السابقة توجيهات خاصة تتعلق بالاوضاع الشخصية لبعض المناطق والبلدان .

ففيما يتعلق بحركة التحرر القومية العربية يعتبر الكتاب أن من واجب الشيوعيين أن يدعموا مطلب الوحدة العربية طالما ان هذا الشعار محافظ على طابعه المضاد للامبريالية ولا يهدف الى اقامة دولة عربية فوق الدول الاخرى . ويرى ان من واجب الشيوعيين أن ينبهوا الى ان التوحيد السياسي للبلاد العربية لا يمكن ان يتحقق بالضغط والقسر ولا بشكل سريع ، وانه لا يمكن أن يكلل بالنجاح الا اذا توافرت الشروط الموضوعية والضرورية له .

اما بصدد اميركا اللاتينية ، فالمرجع الماركسي الحديث يشير الى ان دول اميركا اللاتينية تعتبر منذ فترة طويلة مستقلة من الناحية الشكلية الصورية ، الا انها في واقع الامر خاضعة لتبعية الولايات المتحدة ، ان دول اميركا الجنوبية ما تزال مرتبطة تبعيا بالولايات المتحدة ، فهي لا تملك الصناعة الثقيلة ، والبورجوازية الوطنية فيها لا تملك الا سلطة ضعيفة . وما تزال هذه البلدان تواجه مشكلات شبيهة بمشكلات البلدان الافريقية ـ الآسيوية .

الا ان حركة التحرر في اميركا اللاتينية بدات تدخل في مرحلة جديدة لتنتقل بهذه البلاد من الاستقلال الشكلي الى الاستقلال الحقيقي . وهكذا فان اميركا اللاتينية توجد اليوم على عتبة ثورة ديمقراطية مضادة للامبريالية . الا ان نقطة الضعف الاساسية في حركة التحرر في اميركا اللاتينية هي في عدم قيام تحالف بين الطبقة العاملة وبين الفلاحين . وهنا تكمن مسئولية الاحزاب الشيوعية في اميركا اللاتينية .

اما على الصعيد الافريقي ، فان كتاب (أسس الماركسية ـ اللينينية) يؤكد على الطابع الجديد لحركة التحرر القومي في افريقيا . فالطبقة العاملة الافريقية محدودة العدد ضعيفة التنظيم ، وكذلك البورجوازية الوطنية ، فانها ضعيفة لا قوة لها ولا تأثير . ومرد ذلك الى التخلف الاقتصادي الكبير في معظم البلدان الافريقية . الا ان القارة الافريقية تشهد تحولا محسوسا في الحياة الاجتماعية بفضل المثقفين الذين يشكلون طبقة مشبعة بالروح القومية وبالعداء للامبريالية وللاضطهاد والتفرقة العنصرية . كما ان المدن الافريقية بدات مع تشكل الصناعات تستقطب عددا متزايدا من العمال الذين بدأوا يدخلون مدرسة الصراع الطبقي والصراع القومي ويشكلون نواة جديدة وقوة تنضاف الى قوة المثقفين لدعم حركة التحرر وتوسيعها وتشكيل جبهة على طول القارة وعرضها لمقاومة الامبريالية .

الطابع المميز للدول الناشئة في آسيا وافريقيا :

لقد حصلت معظم الاقطار الافريقية ـ الآسيوية على استقلالها ضمن شروط وطرق متعددة ومختلفة . لذلك فان الدول الحديثة الناشئة توجد حاليا في مراحل مختلفة من التطور الاجتماعي ، والايديولوجية الماركسية المعاصرة تميز ثلاثة نماذج داخل هذه البلدان (١) :

١ ـ البلاد التي انفصلت لا عن النظام الاستعماري فحسب ، بل وعن النظام الراسمالي أيضا وبدأت مرحلة البناء الاشتراكي ، كالصين وكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية .

٢ ـ البلاد التي حصلت على استقلالها السياسي وتمارس سياسة خارجية مستقلة الا انها ما تزال تعيش داخل اطار النظام الرأسمالي ، كالهند واندونيسيا ، وبورما والعراق ومصر وسوريا وغانا وغينيا والسودان وتونس ومراكش وليبيا وكمبوديا . (ملاحظة : ان هذا التقسيم قد لا ينطبق حُاليا بدقة على بعض هذه البلدان) .

٣ ـ البلاد التي وضعت استقلالها موضع شبهة بتحالفاتها الاقتصادية او العسكرية مع السلطات الاستعمارية ، كالباكستان والفليبين وكوريا الجنوبية وفيتنام الجنوبية والكامرون . ان هذا التقسيم ذو طابع زمني وليس مطلقا ، لان الصراع بين مختلف القوى الاجتماعية لم ينته بعد في هذه البلدان الناشئة . فالعراق مثلا حتى عام ١٩٥٨ كانت تنتسب الى الزمرة الثالثة ، ثم ما لبث ان انتقلت الى الزمرة الثانية بعد ثورة ١٩٥٨

ان البلاد التي تندرج تحت الزمرتين الثانية والثالثة تكشف عن خاصتين رئيسيتين حسب المرجع الماركسي الذي اشرنا اليه :

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني . ص ٨٠ .

١ ـ ان الدولة تلعب دورا هاما في الحياة الاقتصادية وفي الفروع الصناعية الرئيسية التي تضع يدها عليها .

٢ ـ ان التخطيط الاقتصادي يأخذ شكل (راسمالية الدولة) وهو شكل مستقل لا علاقة له بالرأسمالية الاحتكارية للدولة في البلدان الغربية المصنعة . فراسمالية الدولة تلعب دورا تقدميا لانها وليدة حركة مناهضة للامبريالية ، وموجهة ضد الاحتكارات ، وتتطلع الى القضاء على التخلف . الا ان راسمالية الدولة تؤدي الى تقوية الطبقة العاملة والطبقة البورجوازية في آن واحد ، لذلك لا يجوز ان نبالغ في صفتها التقدمية .

على اساس هذا التصنيف ترتب الايديولوجية الماركسية المعاصرة على الاحزاب الشيوعية وعلى بلدان المعسكر الاشتراكي ، واجبات اساسية عبر عنها بوضوح قرار الواحد والثمانين حزبا شيوعيا عام ١٩٦٠ ، اذ طالب الاحزاب الشيوعية ان تعتبر مساعدة الدول الناشئة على حل مشكلات نهضتها الاقتصادية والثقافية ، ودعم الشعوب المكافحة ضد الاستعمار «واجبا امميا» .

جـ ـ نظرية الثورة العالمية

ان الماركسية فلسفة للحياة من اجل تغيير العالم . فهي اذن ثورة فكرية وعملية ذات بعد عالمي . لذلك فان هدف الحركة الشيوعية العالمية تحقيق الثورة الاشتراكية في جميع بلاد العالم تحت قيادة الاحزاب الشيوعية العالمية . وعلى الرغم من ذلك فنحن لا نجد في المراجع الماركسية الحديثة اهتماما واضحا بالثورة العالمية . فكتاب (اسس الماركسية ـ اللينينية) لا يفرد في صفحاته الثمانمائة فصلا واحدا للثورة العالمية ، بل ولا يأتي عليها بذكر . وكتاب (اسس الفلسفة الماركسية) لا يخصص سوى اربع صفحات من اصل سبعمائة صفحة للثورة العالمية . وفي (القاموس السياسي) نعثر على ٤٢ تعريفا «للاشتراكية» ، وعلى ٧٥ تعريفا «للحركة العمالية الدولية» . في حين اننا نفتش عبثا فيه عن تعريف لمفهوم «الثورة العالمية» .

فلنصعد اذن الى ماركس وانجلز ولينين ، والى التحولات التي طرات على مفهوم الثورة العالمية في العهد الستاليني ، ولنقف بعد ذلك على المفهوم المعاصر للثورة العالمية كما يمكن ان نستخلصه من خلال المواقف الرسمية وخاصة تصريحات خروشوف . ولنحاول من خلال ذلك كله ان نتبين مفهوم الثورة الشيوعية العالمية ووسائلها وطرقها على صعيد البلاد المتقدمة صناعيا وعلى صعيد البلاد المتخلفة النامية .

الثورة العالمية عند ماركس وانجلز :

في كلامهما عن مستقبل الثورة الاشتراكية ، خص كل من ماركس وانجلز البلدان

الاربعة التالية : اميركا وانكلترا والمانيا وفرنسا . الا انهما اكدا على انتصار الثورة الاشتراكية في هذه البلدان سيكون له انعكاس على العالم كله . فمنذ عام ١٨٤٧ اعتبر انجلز الثورة الاشتراكية في انجلترا واميركا وفرنسا والمانيا «ثورة كونية» ، وانها بهذا الاعتبار سيكون لها «مجال تأثير عالمي كوني» (١) .

وفي عام ١٨٥٠ يؤكد ماركس على «الثورة الدائمة» فيقول : «ان رسالتنا واهتمامنا ينصب على جعل الثورة «دائمة» ، حتى تتحقق وحدة البروليتاريا ، ليس في بلد واحد فحسب ، بل وفي جميع البلاد المسيطرة في العالم اجمع» (٢) .

وفي رسالته الى كاوتسكي (١٢ ايلول ١٨٨٢) يقول انجلز بان «ظفر الثورة الاشتراكية في البلدان الصناعية المتطورة سيتلوه حذو البلدان الاخرى حذوها» . وقبل وفاة انجلز بقليل يصرح بان «الاحزاب العمالية في جميع بلدان العالم تهدف الى تملك المجتمع لوسائل الانتاج» (٢) .

موقف لينين من الثورة العالمية :

خلافا لراي ماركس وانجلز ، كان لينين يدعم فكرة امكانية انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد . الا انه في نفس الوقت كان يرى ان الدولة التي تقيم النظام الاشتراكي لن تستطيع البقاء وحدها زمنا طويلا ، كما لن تستطيع اذا تركت وحدها ان تبني المجتمع الاشتراكي . فذلك لا يكون ممكنا الا اذا انتصرت الثورة الاشتراكية في بلدان اخرى ايضا .

ان هذه النظرية اللينينية ما لبثت ان اصبحت بعد فترة من الزمن حقيقة مشخصة بعد ثورة اوكتوبر ١٩١٧ . وتحولت من نظرية اكاديمية الى واقع سياسي راهن . فالثورة الاشتراكية لم تنتصر الا في روسيا . وقد ادى نجاحها الى طرح السؤال الرئيسي : هل تستطيع روسيا السوفياتية وحدها ان تبني المجتمع الاشتراكي ؟ ان جواب لينين على هذا السؤال كان واضحا : كلا . لذلك تجمعت آماله حول الثورات في البلدان المتطورة صناعيا في اوروبا الغربية .

ففي عام ١٩١٨ ، يقول في مؤلفه (النضال من اجل السلم) : «ما من شك ان الثورة الاشتراكية في اوروبا آتية لا ريب فيها . فكل آمالنا بالانتصار الحاسم للاشتراكية تستند الى هذه القناعة والى هذا التنبؤ العلمي» .

وفي حديثه عن الحرب والسلم في المؤتمر السابع يذكر ما يلي : «تلك هي

---

١ ــ مؤلفات ماركس وانجلز العامة ، الجزء الرابع ، ص ٢٧٥ .
٢ ــ ماركس وانجلز . المختارات ، الجزء الاول ، ص ٩٧ .
٣ ــ لينين . المختارات ، الجزء الثاني ، ص ٥٠٥ .

الصعوبة الكبرى بالنسبة الى الثورة الروسية ، تلك هي قضيتها الكبرى : ضرورة حل القضايا الدولية ، وضرورة تفجير الثورة العالمية وتحويل ثورتنا من ثورة قومية الى ثورة عالمية ... انني اكرر بأن حظنا من النجاة امام هذه الصعوبات جميعها هو الثورة في جميع اوروبا» (١) .

وفي رسالته الى العمال الاميركان في ٢٠ آب ١٩١٨ يقول : «اننا نجد انفسنا تقريبا داخل حصن مطوق طالما ان باقي فروع الثورة الاشتراكية لا تأتي لنجدتنا . ان هذه الفروع موجودة قائمة ، وهي اكثر عددا منا ، وهي تنمو وتنضج وتزداد قوة » (٢) .

وفي نفس العام يقول ايضا : «انها مهمتي ، باعتباري ممثلا للبروليتاريا الثورية ، ان احضر للثورة العالمية البروليتارية واعد لها . فهي سبيل الخلاص الوحيد امام أخطار الحرب العالمية وأهوالها» .

وفي عام ١٩١٩ يذكر في عدة مقاطع من مؤلفاته وخطبه واحاديثه تأكيدات عن قرب انتصار الثورة العالمية . ففي الجزء الثاني من المختارات (ص ٥٠٥) يقول : «ان تأسيس الدولية الشيوعية الثالثة يعتبر مرحلة أولية لقيام الجمهورية العالمية للسوفييت وللانتصار العالمي للشيوعية» . وفي مؤلفه (الحركة العمالية الدولية) يقول : «نحن على ابواب انتصار الشيوعية في العالم اجمع وعلى ابواب تأسيس الجمهورية السوفياتية الاتحادية التي تضم جميع بلاد العالم» .

وفي عام ١٩٢٠ يعتبر لينين ان نجاح الثورة الروسية وتجاربها الغنية هي مفتاح النجاح للثورة العالمية ، وان الصعوبات التي تقف في وجه الثورة العالمية لا تستطيع ان تحول دون قيامها . ففي المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي يقول : «اذا حققنا دكتاتورية البروليتاريا بشكل كامل في بلادنا ، ورصصنا قواها بفضل طليعتها، الحزب القائد للبروليتاريا ، فلسوف نستطيع ان نحقق الثورة العالمية» . وفي تقريره الموجه الى المؤتمر الثاني للدولية الشيوعية في نفس العام (١٩ تموز ١٩٢٠) يؤكد بانه «ما من أخطاء او صعوبات تستطيع ان تحول دوننا ودون انجاز مهمتنا ، مهمة تحقيق الثورة العالمية البروليتارية وخلق الجمهورية العالمية للسوفييت» .

وفي عام ١٩٢١ يقول في تقريره الى المؤتمر العالمي الثالث للاحزاب الشيوعية : «اما ان تأتي الثورة العالمية لنجدتنا وعندئذ يكون انتصارنا مضمونا ، او نقوم بعملنا الثوري المتواضع ، مدركين اننا حتى في حالة الفشل انما نخدم قضية الثورة ، وان تجاربنا ستكون مفيدة للثورات الاخرى . لقد أدركنا تماما انه بدون دعم الثورة العالمية يبقى نجاح الثورة البروليتارية مستحيلا» (٣) .

---

١ ـ نفس المصدر . الجزء الثاني ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .
٢ ـ النضال من اجل السلم ، ص ٢١٦ .
٣ ـ المؤلفات الكاملة . الجزء ٣٢ ، ص ٥٠٣ .

وفي عام ١٩٢٣ يعود الى لينين تفاؤله فيقول : «من جهتنا ، نحن نملك وضعا يتمتع بميزة هامة ، وهي ان العالم بأسره يدخل الان في تيار لا بد ان يؤدي الى قيام الثورة الاشتراكية العالمية» .

ان هذه التصريحات النبوئية التي صدرت عن لينين قد تحققت فعلا لان ثورة اوكتوبر قد ارست قاعدة الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية في العالم . فعالم اليوم يشهد انفصال العديد المتزايد من البلدان في جميع القارات عن النظام الراسمالي ، ونمو نظام الاشتراكية الفتي باطراد في كل مكان .

الثورة العالمية في العهد الستاليني :

توفي لينين (كانون الثاني ١٩٢٤) وفي وقت اصبح من البديهي ان الثورة العالمية لم تستجب فيه للتوقعات الماركسية . فالحركة الثورية والثورات في مختلف البلدان (في المانيا والنمسا والمجر وايطاليا ... الخ) اتجهت في منعطفات بعيدة عن تحقيق آمال لينين وتوقعاته ، ثم ان الحرب الاهلية والنضال ضد التدخل الاجنبي استغرق خمس سنوات من حياة الاتحاد السوفياتي . وكان الحماس الثوري بدأ يخف . ان الحاجة الى التغلب على آثار الحرب الاهلية وعلى الصعوبات الاقتصادية كانت تتطلب عملية تركيز في السلطة السياسية والعسكرية والاقتصادية . لذلك حل محل الفئة المثقفة الثورية ذات الافق العالمي التي كانت تحيط بلينين ، فئة من الثوريين تتمتع بمواهب تنظيمية عملية تبعدها عن الاهتمام بالمناقشات النظرية ، وتحصر مهامها ضمن أفق ضيق لا يتعدى المنطقة او القطاع الذي تعمل فيه داخل الاتحاد السوفياتي. وكانت هذه الفئة القيادية الجديدة تعتبر ستالين الرجل الناطق باسمها .

ان اول نتيجة لهذا الوضع الجديد كانت في اعلان ستالين في كانون اول ١٩٢٤ اي بعد ثمانية شهور فقط من وفاة لينين ، نظرية امكانية بناء مجتمع اشتراكي في بلد واحد . يقول ستالين : «ان نجاح الاشتراكية ممكن وصحيح حتى في بلد رأسمالي متخلف ، وحتى في حالة استمرار الراسمالية في البلدان الاخرى ، وحتى لو كانت هذه البلاد اكثر تطورا من الوجهة الراسمالية» (١) . لذلك راى ستالين ان جميع الشروط الاولية الضرورية لبناء المجتمع الاشتراكي متوفرة في الاتحاد السوفياتي ، وان الطبقة العاملة (اي الحزب كما يشير الى ذلك ستالين) يمكن ان يستخدم سلطة لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي .

وفي المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي الروسي (نيسان ١٩٢٥) اخذت نظرية ستالين شكل نظرية رسمية للحزب . وبموجب هذا التبني الرسمي لنظرية ستالين

---

١ ـ ستالين . «الثورة التشرينية وتاكتيك الشيوعيين الروس» .

اصبح من واجب الحزب «ان يركز جميع جهوده لبناء المجتمع الاشتراكي بملء القناعة بأن عملية البناء هذه ستكون ناجحة دون ادنى شك» .

بعد ان اعلن ستالين عن امكانية «بناء الاشتراكية في بلد واحد» ، اعطى للثورة العالمية تفسيرا جديدا . ففي حين ان لينين كان ينظر الى الثورة العالمية على انها مصلحة للحركات الثورية في مختلف البلدان ، نجد ستالين يعلن قائلا : «ان مركزا تتجمع حوله الحركات الاشتراكية يشكل تاريخ ازدهار الثورة العالمية» (١) .

على هذا الاساس ، يتوقف تطور الثورة العالمية في نظر ستالين على تطور الاتحاد السوفياتي بالدرجة الاولى ، وعلى تماسكه السياسي والاقتصادي والعسكري، لا على الحركات الثورية في مختلف بلدان العالم كما كان يرى لينين . وهكذا حقق ستالين انقلابا في مفهوم علاقة الاتحاد السوفياتي بالثورة العالمية . فبدل ان يكون مصير الاتحاد السوفياتي متوقفا على الثورة العالمية (حسب مفهوم لينين) ، اصبح مصير الثورة العالمية متوقفا (في نظر ستالين) على تطور الدولة السوفياتية . وهذا يعني ان مصلحة الثورة العالمية اصبحت متعلقة بمصلحة السياسة الداخلية والخارجية للاتحاد السوفياتي . ان الطبقة العاملة الاوروبية كما يقول ستالين في خطابه في المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي الروسي ، يجب ان تعتبر الاتحاد السوفياتي طفلا لها ، ومن واجبها ان تدافع عنه وان تناضل من اجل بقائه . ان معيار الاممية والثورية اذن يتحدد من خلال الموقف من الاتحاد السوفياتي . وفي عام ١٩٢٧ دعا ستالين الشيوعيين في البلدان الاخرى لوضع مصلحة الاتحاد السوفياتي فوق كل شيء . ففي حديثه في اول آب ١٩٢٧ يحدد تعريف «الثوري» بأنه هو «الذي يوطد نفسه على حماية الاتحاد السوفياتي والدفاع عنه دون تحفظ او شرط وبكل انفتاح واخلاص ، لان الاتحاد السوفياتي هو اول دولة بروليتارية ثورية في العالم تبني الاشتراكية» .

و«الأممي» ، هو الذي يعمل دون تحفظ او تردد ودون شروط على حماية الاتحاد السوفياتي لانه يمثل قلعدة الحركة الثورية في العالم كله» .

«وان كل من يعمل على حماية الحركة الثورية الأممية دون ان يعمل في الوقت نفسه على حماية الاتحاد السوفياتي او يتمرد عليه ، انما يرتد على الثورة وينزلق الى صف اعداء الثورة» .

ان السنوات التي تلت ، والتي شهدت الانجازات الاقتصادية الضخمة في حقل الصناعة ، والتي رافقها شعور بالاعتداد والثقة بالنفس وبسيطرة الروح القومية ، وبظهور طبقة تعطي للانجازات العملية الاهمية القصوى ، ولا تشغل نفسها كثيرا بالمناقشات الفلسفية والسياسية حول القضايا النظرية للماركسية ، كل ذلك قد جعل الثورة العالمية في المحيط لا في المركز من اهتمامات الثورة الروسية في العهد

---

١ ـ نفس المصدر .

الستاليني . وذهب هذا الاتجاه بستالين الى حد اعلان التخلي عن هدف الثورة العالمية في حديثه مع (روا هوارد) الذي نشرته صحيفة البرافدا في ٢١ اذار ١٩٣٦ .

سأل هوارد : هل يعني تفسيركم ان الاتحاد السوفياتي قد تخلى عن مشاريعه ومطامحه في تحقيق ثورة عالمية ؟

فأجاب ستالين : لم تكن لدينا قط مثل تلك المشاريع أو تلك المطامح . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد ستالين يستعمل تعبير «الثورة العالمية» ، كما ان مفهوم الثورة العالمية قد توارى من المراجع الايديولوجية . ولم تعد تلك المراجع تذكر سوى الاهداف الاممية بالمعنى الستاليني لا بالمعنى اللينيني للثورة العالمية ، اي بمعنى الصراع بين نظام اشتراكي يقوده الاتحاد السوفياتي ، وبين نظام رأسمالي او امبريالي تحت قيادة اعداء الاتحاد السوفياتي .

الفصل الرابع

الطريق الى الاشتراكية حسب ماركس وانجلز :

يمكن ان نميز في تفكير مؤسسي الماركسية مرحلتين رئيسيتين : المرحلة التي سبقت عام ١٨٧٠ وهي المرحلة التي اكدت فيها الكتابات الماركسية على الثورة واعتبرت العنف هو الطريق الى الاشتراكية ، ولم تقدّر للطريق السلمي اي حظ من النجاح والامكانية في تحقيق الاشتراكية .

ثم المرحلة التي تلت عام ١٨٧٠ ، وفيها عبّر المفكران الماركسيان بوضوح عن تفضيلهما للطريق السلمي بالنسبة لعدد من البلدان، بيد ان القوى المعادية للاشتراكية هي التي تدفع دوما باتجاه العنف .

ففي عام ١٨٤٧ كتب انجلز يقول : «صحيح ان الشيوعيين يؤثرون الانتقال السلمي الى الاشتراكية ، الا انه من البديهي ان ثورة البروليتاريا في جميع البلدان المتقدمة تقريبا تقمع بالقوة . لذلك فان اعداء الشيوعيين الذين يتوسلون بجميع الوسائل لقمع الثورة انما يساهمون في قيامها» .

وفي عام ١٨٤٨ ، نقرأ في البيان الشيوعي ما يلي : «ان الطبقة العاملة لا تستطيع ان تحقق اهدافها الا بالتخلص من التركيبات الفوقية للطبقات التي تشكل المجتمع الرسمي» .

كما نقرأ في نفس المصدر العبارة التالية : «بعد حرب اهلية مقنعة الى حد ما ، يبلغ نضال الطبقة العاملة مرحلة تتولد عنها ثورة مكشوفة ترسي دعائم تفوقها عن طريق الانقلاب العنيف على البرجوازية» .

لقد اكد ماركس وانجلز عدة مرات على الدور الثوري الذي يلعبه العنف في التاريخ لان العنف في نظرهما هو «القابلة القانونية بالنسبة للمجتمعات القديمة الحبلى بمجتمعات جديدة». وهو «الاداة التي تفرض الحركة الاجتماعية بواسطتها نفسها وتحطم الاشكال السياسية المتعفنة» .

ماركس في رسالته التي
وجهها ١٨٧١ (بتاريخ ١٢ نيسان) الى لودفيغ كوكلمان يقول فيها : «ان الشروط الاولى لكل ثورة شعبية حقيقية في القارة الاوروبية ، ان لا تكتفي الطبقة العاملة بمجرد تحويل الجهاز البيروقراطي والعسكري ونقله ، بل ان تقضي عليه وتحطمه».

وفي عام ١٨٧٢ يذهب في حديثه في امستردام (بتاريخ ٢٨ ايلول) الى حد التصريح بامكانية وصول بعض البلدان الى الاشتراكية بواسطة الطريق السلمي . فهو يقول : «نحن لا ننكر بأن هناك بلادا كأميركا وانجلترا ، ولو كنت اعرف مؤسساتكم معرفة أفضل ، لربما اضفت هولاندا ايضا ، حيث يستطيع العمال ان يحققوا هدفهم بالطريق السلمي» .

وفي عام ١٨٧٨ يؤكد ماركس الفكرة نفسها فيقول : « اذا حصلت الطبقة

العاملة في انجلترا او الولايات المتحدة مثلا على الاكثرية البرلمانية ، فان في وسعها عندئذ ان تلغي بالطريق الشرعي القوانين والمؤسسات التي تعيق تطورها» .

ويتابع انجلز بعد وفاة ماركس التأكيد على هذه النظرة . ففي عام ١٨٩١ يضيف فرنسا الى البلاد التي سبق ان اشار اليها ماركس . وفي مقدمته لمختارات كارل ماركس التي كتبها عام ١٨٩٢ يقول فيه : «ان عصر الهجمات المفاجئة ، والثورات التي تقوم بها الاقلية الواعية على راس الجماهير اللاواعية ، قد مضى . فعندما تكون القضية قضية تبديل كامل للتركيب الاجتماعي فان الجماهير نفسها يجب ان تكون في الساحة وان تكون واعية للمعركة التي ربطت حياتها بها . هذا ما يعلمنا اياه تاريخ السنوات الخمس الاخيرة» .

طريق الوصول الى الاشتراكية في نظر لينين :

في مؤلفات لينين ، تحتل الثورة ويحتل العنف المكان الاول . «فالطبقة العاملة – كما يقول في المختارات – تفضل طبعا الحصول على السلطة بصورة سلمية ، الا انه يكون ضربا من الجنون ان تعزف عن استلام السلطة بالطريق الثورية ، لان ذلك يكون تنازلا مخجلا امام البورجوازية والطبقات المسيطرة» . وفي كتابه (الدولة والثورة) عام ١٩١٧ يقول : «ان الانقلاب الاجتماعي لا يمكن ان يتم بدون ثورة وبدون عنف . فالثورة أمر لا مفر منه» . وفي الجزء الثاني من المؤلفات الكاملة نقرأ في الصفحة ٣٨٠ ما يلي : «لا يمكن ان نتصور ثورة كبرى ، ثورة اشتراكية بدون حرب داخلية ، اي حرب اهلية» .

مرة واحدة فقط ، في خريف ١٩١٧ راى لينين امكانية الانتقال السلمي من شكل الحكومة البرلمانية القائمة في روسيا في ذلك الحين الى السلطة السوفياتية . فهو يقول : «ان السوفياتيين يستطيعون الان عن طريق استلامهم للسلطة كاملة – وتلك فرصتهم الاخيرة – ان يضمنوا تطورا سلميا للثورة وانتخابات سلمية لنواب الشعب ، وصراعا سلميا بين الاحزاب داخل السوفييت ، وانتقال السلطة بصورة سلمية من ايدي حزب لآخر ... والا فلا مفر من الحرب الاهلية العنيفة بين البورجوازية وبين البروليتاريا . الا ان هذه الحرب ستكون صعبة ودامية» .

بعد احد عشر يوما فقط ، تبين للينين ان الامكانية التي تحدث عنها لم تعد واردة ، فاعلن قائلا : «ان انتقال السلطة الى السوفييت يعني الان عمليا الانتفاضة المسلحة» . وبعد اسبوعين قامت ثورة اوكتوبر ١٩١٧ ، هذه الثورة التي كشفت القناع حسب تعبير ستالين عن كذب ادعاء الاشتراكيين الديموقراطيين الذين كانوا يقولون بامكانية الانتقال السلمي الى الاشتراكية عن طريق البرلمانات البورجوازية» .

الطريق النوعي الخاص للوصول الى الاشتراكية :

نلاحظ عند ماركس وانجلز ولينين وفي الايديولوجية الماركسية المعاصرة اهتماما خاصا بمسألة طابع الاشتراكية ، اي بالقضية الاساسية الثانية التي طرحناها في مستهل هذا البحث .

هل تتحقق الاشتراكية على نحو واحد في جميع البلاد ؟ هل هناك قواعد عامة واحدة تنطبق على جميع الاوضاع ؟ أم ان الخصائص القومية والتقاليد والشروط السياسية والثقافية الخاصة تلعب دورا مرجحا وعاملا مسيطرا في التحول الاشتراكي ؟

ان ماركس وانجلز قد شددا على اهمية الخصوصيات القومية في التطور نحو الاشتراكية ، ففي حديث ماركس في امستردام (٢٨ ايلول ١٨٧٢) اشارة صريحة الى تعدد السبل للوصول الى الاشتراكية ، فهو يقول : «ان على الطبقة العاملة ان تستلم السلطة السياسية في جميع البلاد لتبني المجتمع الاشتراكي . الا اننا لا ندعي ان السبل المؤدية الى هذا الهدف هي نفسها بالنسبة الى الجميع . فنحن ندرك بانه ينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار المؤسسات والتقاليد والاعراف المتباينة بتباين المناطق»، كما ان انجلز يعتبر تبعا لنفس المفهوم ، ان التحول الاشتراكي سيتم بصعوبة وببطء أكثر في المانيا ، وبسرعة وسهولة اكبر في انجلترا .

كذلك لينين يعتبر الوصول الى الاشتراكية يختلف باختلاف اوضاع كل بلد . فمنذ عام ١٩٠٨ اشار لينين الى «تنوع الشروط التاريخية والسياسية للحركة العمالية» . ففي مؤلفه «مسألة القوميات والمستعمرات» يقول : «ان الحركة الثورية

الدولية للبروليتاريا لا تتجلى على شكل واحد في البلدان المختلفة .. وكيف لها ان تظهر على نفس الشكل ؟.. ان كل بلد يحمل معه الى التيار العام خصائصه النوعية الاصيلة الثمينة » . وفي عام ١٩١٦ يؤكد من جديد على هذه الفكرة فيقول : «صحيح ان جميع الامم سوف تصل بالضرورة الى الاشتراكية الا انه ما من امة واحدة تحققها تماما على نفس الشكل ... فكل امة تقدم سواء من حيث شكل التحول الاشتراكي او سرعته عنصرا خاصا وهكذا فان كل امة تساهم في تنوع اشكال الانتقال الى الاشتراكية» .

بعد قيام ثورة ١٩١٧ ، اخذت المشكلة طابعا عمليا ، واصبح امام البلاد الاخرى ان تحذو حذو الاتحاد السوفياتي او ان تسلك كل منها طريقها الخاص . الا ان لينين بقي على موقفه الاول وكان يرفض اعتبار التجربة الروسية تجربة نموذجية يجب ان تلتزم من قبل الآخرين ، كما كان يأمل ان يكون تطور البلاد المتقدمة نحو الاشتراكية اسهل واخطاؤها اقل وبناؤها للاشتراكية اكمل .

ففي عام ١٩١٩ ، يقول في المؤتمر الثامن للحزب (١٩ آذار) ما يلي : «انه لامر مضحك ان نقدم ثورتنا للبلاد الاخرى على انها المثال . وان نتصور انها قامت باكتشافات عبقرية وانها ادخلت الى الاشتراكية ابتكارات ضخمة . فاذا نفخنا انفسنا كالضفدعة فان العالم كله سوف يسخر منا» . وفي تقريره للمؤتمر يقول : «قلت لواحد من احسن الرفاق الشيوعيين البولونيين : انكم ستفعلون ذلك بشكل آخر ، فأجاب : كلا سنفعل نفس الشيء لكن بصورة افضل منكم . انني لا املك الاعتراض على مثل هذا القول . ويجب ان تعطى لهذه الرغبة المتواضعة امكانية التحقيق : وهي ان تكون السلطة السوفياتية افضل مما هي عندنا ، كما يجب ان نأخذ بعين الاعتبار ان الطريق هناك هو الى حد ما طريق خاص» .

في نفس العام يقول لينين ايضا : «ان المجر بالقياس الى روسيا بلد صغير . ومع ذلك فان الثورة المجرية سوف تلعب دون شك دورا في التاريخ اكبر من دور الثورة الروسية . فالاشتراكية سوف تبنى فيها بصورة اكثر منهجية وبنجاح اكبر بفضل وجود تربة مهياة تهيئة افضل» .

وفي عام ١٩٢٠ يقول لينين : «نحن في روسيا ، ارتكبنا آلاف الاخطاء واصبنا بالصدمات والخسائر الكثيرة بسبب المتدربين والاشخاص غير المؤهلين في التعاونيات والمزارع الجماعية والنقابات ... الخ. ونحن لا نشك ان شعوبا متمدنة اخرى سوف ترتكب اخطاء اقل من هذا النوع» . وفي بحثه عن المرض الطفولي للشيوعية يذهب الى ابعد من ذلك فيقول: «ان روسيا بعد قيام التحول الاشتراكي في البلدان المتقدمة لن تكون (البلد ـــ النموذج) بل هي بالمعنى السوفياتي والاشتراكي بلد متخلف» . وفي المؤتمر الثالث للكومنترن (٢٨ حزيران ١٩٢١) يخاطب الآخرين قائلا : «ان الثورة في ايطاليا ستحدث بشكل مختلف عنه في روسيا . فالدولية الشيوعية لن تطلب الى الايطاليين ان يقلدوا روسيا تقليدا اعمى» . وفي ١٣ تشرين الثاني من عام ١٩٢٢ يقول للقادة السوفييت : «لا يجوز ان نطلب

من الشيوعيين الاجانب ان يعلقوا قرارات الحزب في روسيا في زواية كالايقونات وان يصلوا امامها» .

النظرة الماركسية الحديثة :

خلال عهد ستالين اصبح الكلام عن طرق خاصة نوعية للوصول الى الاشتراكية نوعا من الانحراف الخطير ، وخاصة منذ صيف ١٩٤٨ حيث قطعت يوغوسلافيا علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي . وتحت شعارات «اتباع المثال السوفياتي» و «التعلم من الاتحاد السوفياتي» ، ظلت الاحزاب الشيوعية تعيش طيلة ذلك العهد ، باستثناء اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف الذي كان يدعم فكرة اختلاف طريق الوصول الى الاشتراكية باختلاف التقاليد التاريخية والشروط الاقتصادية والسياسية والثقافية لكل بلد .

الا ان وفاة ستالين قد اعادت الاعتبار لهذه النظرية . وكانت صحيفة البرافدا اول من دشن هذا التحول عن النظرية الستالينية في عدد ٢٧ ايلول ١٩٥٤ الذي تقول فيه : «ان تجارب الاتحاد السوفياتي لن تنقل بشكل آلي الى بلاد الديموقراطية الشعبية ، وان سياسة هذه البلاد يجب ان يرسمها قادة الاحزاب فيها على ضوء التطور التاريخي ومستوى قوى الانتاج والعلاقات الطبقية في كل بلد» .

ثم جاءت حوادث بولونيا في تشرين اول ١٩٥٦ ، وحوادث المجر في نهاية تشرين الاول من نفس العام ، لتدفع باتجاه تعديل الخط الايديولوجي وتحديد القواعد العامة التي يجب ان تلتزمها جميع البلاد في طريقها نحو الاشتراكية . وقد حدد سوسلوف هذه القواعد باربع في خطابه في الذكرى التاسعة والثلاثين لثورة ١٩١٧ . كما ان مؤتمر تشرين الثاني ١٩٥٧ الذي ضم ممثلين عن ١٢ حزبا شيوعيا قد اشار الى تسع قواعد مشتركة عامة ، اهمها (١) :

---

١ - الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ١٣٠ .

١ ـ قيادة الجماهير الكادحة من قبل الطبقة العاملة التي يشكل الحزب الماركسي ـ اللينيني نواتها ، وتحقيق الثورة البروليتارية وتشييد دكتاتورية البروليتاريا دون تقيد بشكل واحد .

٢ ـ المحافظة على الانجازات الاشتراكية والدفاع عن مكتسباتها ضد الاعداء الداخليين والخارجيين .

٣ ـ تضامن الطبقة العاملة في بلد ما مع الطبقة العاملة في البلدان الاخرى ، اي التمسك بالاممية البروليتارية .

ان هذه القواعد يجب ان تطبق مع مراعاة الشروط التاريخية المشخصة في كل بلد ، وان تؤخذ بعين الاعتبار تعدد الخصائص القومية وتنوع التقاليد دون ان يبالغ في مراعاتها .

ويعطي كتاب أسس الماركسية ـ اللينينية الذي صدر في نهاية عام ١٩٥٩ للمنطلق الايديولوجي الماركسي المعاصر حول الطريق الخاص النوعي للوصول الى الاشتراكية صيغته الحديثة فيقول : «ان على الاحزاب الشيوعية ان تناضل ضد التقليل من اهمية الاعتبارات القومية وضد المبالغة فيها في آن واحد . اذ على الرغم من ضرورة الكشف عن الطابع النوعي القومي وعن الخصوصيات القومية ، يجب النظر الى تطور الراسمالية نحو الاشتراكية على انه تطور موحد للتاريخ العالمي» . اما الصيغة المحددة للخط الايديولوجي حول هذه المسألة فتتركز في العبارة التالية : «ان القواعد الاساسية للانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية هي واحدة بالنسبة لجميع البلاد الراسمالية . والطوابع المشتركة بين البلاد الراسمالية ترجح على طوابعها القومية الخاصة» . وقد اقرت هذه الصيغة في المؤتمر الذي ضم ٨١ حزبا شيوعيا في موسكو عام ١٩٦٠ .

التعايش السلمي

ان ما ورد في اقوال لينين وستالين تؤكد على ضرورة «التعايش السلمي بين الشعوب» وعلى «الحاجة الى التبادل التجاري مع الدول الراسمالية طالما بقيت دول راسمالية» كما يقول لينين في اجوبته على مراسلي الصحف الاميركية عام ١٩٢٠ وعام ١٩٢٢ (١) . وعلى «امكانية التعايش بين الديمقراطية الاميركية والنظام السوفياتي والتنافس السلمي فيما بينهما» كما يقول ستالين في تصريحه عام ١٩٣٦

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني . ص ٢٢٧ .

فماوتسي تونغ يلخص وجهة النظر الصينية عام ١٩٥٦ بقوله : يوجد حاليا في العالم تناقضات . منها ما يقوم داخل كل بلد ويضع الطبقات وجها لوجه امام بعضها . ومنها ما يقوم بين الشعوب وبين السلطات الامبريالية ويضعهما في طرفين متعاكسين .

وهكذا فان ماوتسي تونغ يرفض النظرية السوفياتية التي تعتبر التعايش السلمي شكلا من اشكال الصراع الطبقي الدولي ، والتي تعتبر الخلاف بين الدول. بما فيه الخلاف السوفياتي ـ الاميركي ، ليس سوى انعكاس للصراع الطبقي على المستوى الدولي . . لان ماوتسي تونغ يعتبر التناقض بين الشعوب وبين السلطات الامبريالية شكلا آخر من اشكال التناقض أعلى من السابق . فالامبريالية الاميركية تؤلف كلا يندرج داخل مفهوم كلي يناقض مفهوما كليا آخر هو ـ شعوب افريقيا وآسيا (٢) ـ .

---

٢ ـ عن كتاب الخلاف الكبير الصيني السوفياتي . تأليف جان بابي . عرض مجلة الاكسبرس العدد ٨٠٥ ، تشرين الثاني ١٩٦٦ .

تعتبر

الصين ان افضل وسيلة لتجنب الحرب ليس التعايش السلمي ، بل ازدياد عـــدد الشعوب التي تلتزم الخط الاشتراكي . وكان من الطبيعي ان تؤكـد على «الثورة» كطريق لبلوغ هذا الهدف .

جاك فيرج (٢) يعتبر الثورة هي الحـل الوحيد امـام تناقضات العالم الراهن ، وان مسالة قبول مبدا التعايش السلمي والانتقال السلمي في صيغتهما السوفياتية ، انما هو تعبير عن نزعة تحريفيـة ظهـرت في الاتحـاد السوفياتي بعد المرحلة الستالينية ، ونقلت الثورة الروسية من مستوى الثورة الى مستوى الاصلاح . لذلك فان جاك فيرج يعتبر التركيز على المنافسة الاقتصادية بين الاتحاد السوفياتي وبين الولايات المتحدة واعتبارها القضية الرئيسية : عملا تحريفيا يدخل العلاقة بين الاتحاد السوفياتي وبين التجارب الاشتراكية وتجارب الشعـوب الثائرة في ازمة كبيرة . لان «نضال الحركة الثورية العالمية لا يتلخص – على حـد تعبير فيرج – في معدلات النمو الاقتصـادي للاتحاد السوفياتي فحسب ، كمـا لا

---

٢ – نفس المصدر . ص ٢٠–٢٦ .

يمكن ان يطلب الى التجارب الثورية ان تعلق خطواتها الحاسمة ريثما يصل الاتحاد السوفياتي الى مستوى من الانتاج الصناعي يتفوق على انتاج الولايات المتحدة» .

وهكذا فان الخلاف في راي فيرج لا ينحصر في دائرة الحلول العملية التطبيقية ، بل يتناول المبادىء ذاتها . فالمسألة هي مسألة الاختيار بين الاصلاح والثورة . لذلك فان تبني نظرية التعايش السلمي والانتقال السلمي الى الاشتراكية حسب الصيغة السوفياتية ، انما هو خروج عن الخط اللينيني ، وانحراف عن الماركسية ، ونزعة تحريفية اصلاحية .

الفصل الخامس

نظرية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية
ونظرية خصائص المجتمع الاشتراكي

أ ـ نظرية الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية

في ٢٥ تشرين ثاني ١٩٣٦ اعلن ستالين انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، اي بعد ـ ١٩ ـ عاما من قيام ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، وفي منتصف نيسان عام ١٩٦٠ اعلن في تشيكوسلوفاكيا عن دستور اعطى الدولة اسما جديدا «الجمهورية التشيكية الاشتراكية» ، وكان ذلك نتيجة للاعلان عن ظفر الاشتراكية ، بعد مرحلة انتقالية دامت خمسة عشر عاما . فما هي المعايير التي يعتمد عليها في تقرير وصول المجتمع الى المرحلة الاشتراكية ؟ وما هي الخطوات اللازمة للانتقال بالمجتمع من الراسمالية الى الاشتراكية ؟

ان متابعة تطور الفكر الماركسي تكشف لنا عن ان الاجوبة الحالية التي تقدمها الايديولوجية الماركسية المعاصرة انما هي انضاج لوجهات النظر والتجارب وللممارسة العملية منذ ماركس وانجلز حتى المؤتمرات الاخيرة للحزب الشيوعي . فلنتابع هذا التطور ولنبدا بوجهة نظر ماركس وانجلز .

وجهة نظر ماركس وانجلز :

في عام ١٨٤٧ الف فردريك انجلز «مبادىء الشيوعية» . وفيه يذكر الاجراءات الانتقالية التي يجب ان تتخذ بعد انتصار الثورة الاشتراكية واهمها (١):

١ ـ المؤلفات الكاملة . الجزء الرابع . ص ٢٧٢ .

١ ـ تحديد الملكية الخاصة .
٢ ـ المصادرة المباشرة لملكية المهاجرين والهاربين والمتمردين .
٣ ـ الانتزاع التدريجي للملكيات الكبرى لقاء تعويض .
٤ ـ انشاء ملكيات ومصانع للدولة تدفع فيها اجور جيدة للعمال ، بشكل يرغم اصحاب الملكيات الخاصة لدفع اجور معادلة لاجور الدولة .
٥ ـ تأميم المواصلات والبنوك .
٦ ـ مجانية التعليم .
٧ ـ هدم المساكن المسيئة للصحة وبناء المساكن الشعبية .

كان ماركس وانجلز يتصوران اذ ذاك ان الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تحدث الا في البلاد المتطورة صناعيا ، وان اجراءات المرحلة الانتقالية تختلف حسب كل بلد ويجب ان تأخذ بعين الاعتبار الظروف القائمة (١) .

في عام ١٨٤٨ الف ماركس وانجلز البيان الشيوعي ، وفيه يضيف ماركس الى الاجراءات التي سبق ان ذكرها انجلز اجراءات اخرى اهمها حذف الفروق تدريجيا بين المدينة والريف ، وتوحيد الصناعة والزراعة وربط التعليم بالانتاج (٢) . ولم يكن الهدف من هذه الاجراءات خلق اقتصاد مركزي في راي مؤسسي الماركسية ، بل اقامة نظام اقتصادي تعاوني . فالتاميم على الرغم من كونه الخطوة الاولى في طريق الاشتراكية لا يشكل في نظر ماركس وانجلز الامكانية الوحيدة لاقامة نظام اشتراكي. فنحن نقرأ في المصادر الماركسية عبارات واضحة لرائدي الماركسية تؤكد هذا المنطلق . ففي (الانتي ديورنغ) يقول انجلز : «لا التأميمات التي تأخذ شكل شركات مغفلة ، ولا التأميمات التي تأخذ شكل ملكية الدولة، يمكن ان تزيل الصفة الراسمالية عن ملكية وسائل الانتاج ... ان ملكية الدولة ليست الحل للصراع بل هي الشكل الجنيني للحل . فالحل الوحيد هو ان يستولي المجتمع بشكل مكشوف وبدون مواربة على وسائل الانتاج (٣) » . وفي المختارات نقرأ لماركس قوله : « ان الادارة الذاتية للمنتجين هي التي يجب ان تكون الهدف حتى تنظم التعاونيات الانتاج الوطني حسب مخطط عام مشترك» (٤) . وفي المصدر نفسه نجد ان انجلز يطالب «بان يقوم الاقتصاد الاشتراكي على جمع التعاونيات العمالية في شركة كبيرة وعدم الاكتفاء باشتراك العمال داخل كل مؤسسة صناعية» ، كما انه يعتبر «تحويل المؤسسات المصادرة الى شركات تعاونية عمالية امرا يتفق ومفاهم الاشتراكية العلمية» . وفي الجزء الثالث من كتاب راس المال يقول ماركس «بان الزراعة يجب ان تكون خاضعة

---

١ ـ المختارات الجزء الاول . ص ٦٠١ .
٢ ـ نفس المصدر . ص ٤٣٢ .
٣ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني . ص ١٨٢ .
٤ ـ المختارات . الجزء الاول . ص ٤٩٢ ـ ٤٩٥ .

لمراقبة المنتجين المشتركين» . وهكذا فان ماركس وانجلز يؤكدان على فكرة استغلال الملكية الزراعية بواسطة التعاونيات والملكية بواسطة شركات العمال .

اما بصدد المدة التي تستغرق مرحلة الانتقال فقد تصورها انجلز «طويلة» في كتابه مبادىء الشيوعية ، لان البروليتاريا «لن تتمكن من تبديل المجتمع الحالي الا رويدا ولن تستطيع ان تلغي الملكية الخاصة الا اذا توفرت الكمية اللازمة من وسائل الانتاج» . الا ان انجلز بدل في تقديراته وتصور بعد اربعين عاما عندما شاهد من كثب تقدم التصنيع : ان «المجتمع الجديد اللاطبقي سوف يولد خلال مرحلة انتقال قصيرة وصعبة نوعا ما» (١) .

اما بشأن الطرق التي يجب ان تستخدمها الطبقة العاملة خلال مرحلة الانتقال ، وفيما اذ كان التاميم يجب ان يكون مصحوبا بتعويض ام لا ، ففي الجزء الثاني من المختارات نقرأ العبارة التالية لانجلز : «اننا لا نعتبر مبدأ التعويض مبدأ لا يمكن اقراره بوجه من الوجوه ، فكم من مرة قال لي ماركس بأننا يمكن ان نسوي امورنا على احسن شكل فيما لو امكننا شراء هذه الفئة» (٢) . هذا بالاضافة الى ان ماركس وانجلز لم يتكلما عن دور الحزب في هذه المرحلة .

راي لينين :

خلافا لراي ماركس وانجلز ، يؤكد لينين بان الفترة الانتقالية طويلة وصعبة . ففي خطابه الى الشغيلة المجرية (٢٧ ايار – ١٩١٩) يقول لينين «ان تحقيق الاشتراكية يتطلب مرحلة انتقالية طويلة ، ذلك لان اعادة تنظيم الانتاج بشكل عملية صعبة ، ولان التغيير الجذري في جميع مجالات الحياة يتطلب وقتا» (٣) . وهذه المرحلة الانتقالية لا يمكن ان تكون في راي لينين الا مرحلة صراع «بين الراسمالية المحتضرة وبين الشيوعية الناشئة» ، اي بين الراسمالية المغلوبة التي لم تلفظ انفاسها بعد ، وبين الشيوعية المنتصرة ، والتي ما تزال ضعيفة لانها وليدة ناشئة . ومن هذه المقدمة يصعد لينين الى تقرير النتيجة التالية : «لهذا السبب فانه من الحماقة ومن الخطل ان نتصور ان الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية يمكن ان يتم دون قسر ودون دكتاتورية» (٤) . ان هذه المرحلة تغطي حقبة تاريخية كاملة لا تنتهي الا عندما يقضى نهائيا على كل امل في العودة الى النظام القديم ، حلما كان

---

١ – مقدمة لماركس عام ١٨٩١ . المختارات . الجزء الاول . ص ٦٦ .
٢ – المختارات . الجزء الثاني . ص ٤١١ .
٣ – الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني . ص ١٨٢ .
٤ – نفس المصدر .

هذا الامل ام محاولة . فعندما تصبح الردة مستحيلة استحالة مطلقة تبلغ هذه المرحلة الانتقالية في راي لينين غايتها .

وفي كتابه (الدولة والثورة) الذي الفه قبل شهرين من الثورة الروسية الاشتراكية يطلب لينين «ان يقوم المجتمع والدولة بمراقبة نسبة العمل ونسبة الاستهلاك مراقبة دقيقة صارمة ... وان تقوم بهذه المهمة دولة مؤلفة من عمال مسلحين » .

وفي تقريره الى المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي السوفياتي ينبه لينين الى ان التحويل الاشتراكي في المجال الزراعي بصورة خاصة يجب ان يتم ببطء وبحذر ، وان تؤخذ بعين الاعتبار الشروط الخاصة لحياة الفلاحين وان يعلموا — دون توجيه الاوامر — كيف يتم الانتقال من نظام الى نظام افضل ، وان لا تفرض عليهم التعاونيات الزراعية فرضا بل يجب ان يكون انضمامهم لها نتيجة قناعة نظرية وعملية ، والا فان كل واحد يذهب في ناحية وفمه مملوء بالشتائم » (١) .

التأميم وتوزيع الملكية الكبيرة :

ان التأميمات الاشتراكية في نظرية الايديولوجية الماركسية المعاصرة يجب ان تتم مباشرة بعد الثورة ، اي ان القطاع الكبير الراسمالي من الانتاج يجب ان يؤمم . وعبارة «تأميمات اشتراكية» تعني مصادرة ملكية الطبقات المستغلة بواسطة السلطة البروليتارية وتحويل هذه الملكية الى ملكية اشتراكية للدولة . اما هدف التأميمات الاشتراكية فهي كما يذكر المرجع الماركسي الحديث «اسس الماركسية — اللينينية» ، «خلق اسلوب جديد للانتاج فور تحطيم السلطة الاقتصادية للبورجوازية وانتقال الادارة العليا للاقتصاد الى ايدي الدولة البروليتارية (٢) . وهذه التأميمات الاشتراكية يمكن ان تختلف من حيث اشكالها ومناهجها باختلاف البلاد وشروطها وظروفها الموضوعية . ففي روسيا السوفياتية تمت خلال فترة قصيرة صودرت فيها الملكيات دون تعويض . وفي بلاد شرقي وجنوب شرقي اوروبا ، اي في الديموقراطيات الشعبية الاوروبية ، اكتفي بتأميم منشئات مجرمي الحرب والمؤسسات الصناعية العائدة للراسماليين الاحتكاريين في البدء . اما باقي المعامل فلم يمسها التأميم الا فيما بعد . اما في الصين فقد تركت لفئات كثيرة من البورجوازية الوطنية ملكيتها دون ان ينالهم التأميم ، وخاصة أولئك الذين تعاونوا مع الطبقة العاملة ، اي مع الحزب الشيوعي خلال الثورة ، وفي الصين

---

١ — نفس المصدر ، ص ١٨٤ .
٢ — نفس المصدر ، ص ١٨٤ .

ايضا انشيء نموذج جديد (مختلط) من المؤسسات يشتمل على قطاع عام وقطاع خاص في الوقت نفسه . وحتى عام ١٩٦٢ كان يدفع للمساهمين في هذه المؤسسات ٥ بالمئة من الراسمال المستثمر .

بالاضافة الى نزع الملكية الصناعية ، يجب نزع الملكية الزراعية الواسعة سواء ملكية الاقطاعيين او الراسماليين ، ويتناول هذا الاجراء البلاد المتخلفة كما يتناول البلاد المتطورة ، وينعكس اختلاف شروط هذه البلاد على اختلاف الاشكال والطرق التي يعتمد عليها التحويل الاشتراكي لتحقيق اهدافه . ففي روسيا السوفياتية لم يكتف بتأميم الملكيات الكبيرة ، بل أممت جميع الاراضي دفعة واحدة . في حين ان الدول الاوروبية من المعسكر الاشتراكي قد اكتفت بتأميم الملكيات الكبيرة لان الفلاحين نظروا الى التأميم نظرة شك منبعثين من نظرة خاضعة لتقاليد قديمة . لذلك وضع قسم كبير من الاراضي المصادرة تحت تصرف العمال الزراعيين وصغار الفلاحين وحتى متوسطي الفلاحين لآجال طويلة .

بالاضافة الى التأميمات الاشتراكية ترى الايديولوجية الماركسية المعاصرة ضرورة اتخاذ اجراءات اشتراكية مباشرة بعد الثورة خاصة بالشغيلة ، حتى يشعر العمال والفلاحون فورا بمزايا الثورة الاشتراكية . وهذه الاجراءات تتوقف على وضع كل بلد وظروفه ، فيمكن ان تتسع وان تتقلص تبعا لهذه الظروف . ففي الاتحاد السوفياتي صدرت مباشرة قرارات بتحديد يوم العمل بثماني ساعات ، وقوانين بحماية العمال ، ثم بتخفيض ساعات العمل اليومي الى ست بالنسبة الى العمال الفتيان القاصرين ، واعيد للفلاحين مجانا اكثر من ـ ١٥٠ ـ مليون هكتار من الاراضي التي كان يملكها الاقطاعيون الراسماليون والعائلة المالكة والاوقاف . وتقدر المراجع الماركسية الحديثة انه يمكن بالنسبة للبلاد ذات المستوى المعيشي المرتفع ان تعمد خلال التحويل الاشتراكي لا الى تخفيض ساعات العمل فحسب ، بل وحتى الى رفع مستوى معيشة الشغيلة وتعميم الضمان الطبي والتعليم على كافة المستويات .

القضاء على العناصر الراسمالية :

خلال المرحلة الانتقالية من الراسمالية الى الاشتراكية ، توجد ثلاثة نماذج من الاقتصاد جنبا الى جنب .

١ ـ القطاع الاشتراكي ، وهو يضم الصناعة الثقيلة ، والمؤسسات الكبرى للصناعة الخفيفة ، والمواصلات ، والبنوك ، والتجارة الخارجية .

٢ ـ قطاع الانتاج الصغير ، وهو يشمل المنتجين الذين لا يستخدمون عمالا ماجورين ، كالورشات والحقول الخاصة .

٣ ـ القطاع الرأسمالي الخاص كالمؤسسات الصناعية المتوسطة والصغيرة والمشروعات الزراعية .

ويقابل هذه الاشكال الثلاثة من التكوينات الاقتصادية ، وجود ثلاث طبقات خلال المرحلة الانتقالية : الطبقة العاملة ـ طبقة الفلاحين ـ الطبقة البورجوازية التي فقدت سلطتها السياسية ولكنها ما تزال تتمتع بمواقع داخل المجال الاقتصادي .

اذن طالما هناك اشكال ثلاثة للاقتصاد ، وطالما بقيت هناك طبقة بورجوازية لها مواقع يمكن ان تنقض من خلالها على الثورة ، فان شروط الصراع تبقى متوفرة وقائمة . فلا بد للدولة الاشتراكية ان تحول الاشكال المتبقية للاقتصاد الى شكل اشتراكي واحد ، في اسرع وقت ممكن ، حتى يتم القضاء على المقاومة المعبأة الكاملة وعلى كل امكانية للردة .

ان الاجراءات السياسية وحدها لا تكفي ولا بد من اجراءات اقتصادية لتحطيم المقاومة . فالدولة التي اصبحت مالكة للمفاتيح الاساسية للاقتصاد نتيجة لسيطرتها على التجارة الخارجية والمصارف والمواصلات والمؤسسات الكبيرة للصناعة الخفيفة وعلى الصناعة الثقيلة ، لا بد ان تحول دون نمو العناصر الراسمالية حتى تبقى هذه المفاتيح في يدها . فلا بد اذن كما يقول كتاب أسس الماركسية ـ اللينينية ان تلجأ السياسة الاقتصادية الى الحد من نشاط راس المال الخاص الى درجة لا يبقى امامه سوى مجال واحد هو التسليم (١) . ويمكن تحقيق ذلك عن طريق فرض الضرائب وتنظيم الانتاج والاسعار ومراقبة شراء المواد الاولية .. الخ . اما مدى التوسع في هذه الاجراءات فيتوقف على موقف البورجوازية نفسها . فاذا دعمت باخلاص النظام الجديد ، واذا كانت مستعدة للمشاركة في البناء الاقتصادي ، فان دكتاتورية البروليتاريا يمكن ان تمنح هذه الاوساط بعض الامتيازات (الاعتمادات) وتضمن لانتاجها التسويق . اما اذا اتخذت موقفا معاديا للثورة وتمردت ضد سلطتها ولجأت الى التخريب بأشكال مستورة تزرع العقبات في طريق عجلة الدولة . فانها في هذه الحالة تنتزع من دكتاتورية البروليتاريا انتزاعا التدابير القمعية (٢) .

لقد كانت هذه التدابير عنيفة في روسيا السوفياتية لان الصراع كان حادا بين البورجوازية وبين الثورة ، في حين انها كانت أقل عنفا في بلاد الديموقراطية

---

١ ـ نفس المصدر ، ص ١٨٧ .

٢ ـ نفس المصدر ، ص ١٨٧ .

الشعبية وخاصة في المانيا الشرقية وفي الصين حيث استخدمت بنجاح اشكال الاقتصاد المشترك .

النظام الزراعي الاشتراكي :

ان دكتاتورية البروليتاريا لا تتوقف عند حدود نزع الملكية الكبيرة واعطائها للفلاحين . فتلك مرحلة اولى اذ ما دام يوجد ملكيات صغيرة مبعثرة يبقى للنظام الراسمالي بعض التأثير في الريف . فلا بد اذن من الانتقال من مرحلة تحديد الملكية الى مرحلة تصفية المالكين الكبار كطبقة اجتماعية ، وذلك عن طريق خلق النظام الزراعي الاشتراكي ، اي الانتاج الكبير الذي تتحول فيه الملكية الصغيرة الخاصة الى مزارع جماعية . حتى الجمعيات التعاونية تتجمع وتذوب داخل هذه الاشكال الجماعية من الانتاج الكبير . ويبدأ ذلك طبعا بالمزارعين الكبار ، لان الفلاحين الصغار هم ابناء الثورة ويجب ان ينظر اليهم كما يقول انجلز في المختارات : «عندما نصل الى السلطة لا يمكن ان نتصور انه بامكاننا ان ننتزع الملكية بالقوة من صغار الفلاحين سواء بتعويض او من دون تعويض . اذ ان مهمتنا تجاه الفلاح الصغير هي تطوير مشروعه الخاص تدريجيا وتحويل ملكيته الى ملكية تعاونية عن طريق القدوة والمثال الحسن وعن طريق اشعاره بدعم اجتماعي متزايد» (٢) .

وهكذا فان الايديولوجية الماركسية تستبعد كل عملية حرق للمراحل وكل خروج عن مبدأ الارتباط الطوعي والقناعة الداخلية بالنسبة للفلاحين الصغار . ذلك ان قيام الدولة والحزب بتنظيم العملية الادارية والمالية لانشاء المزارع الجماعية لا بد ان يؤدي الى استفحال ظاهرة الصراع الطبقي ، لان هذه العملية تنسف المواقع الاقتصادية والسياسية لكبار المزارعين . فلا يجوز اذن ان يترك مجال لهؤلاء ان يستغلوا الفلاحين الصغار ويحولونهم عن خط الثورة . اما مواجهة كبار المزارعين فتتوقف على ردود فعلهم على عملية التحويل الزراعي الاشتراكي . ففي الاتحاد السوفياتي رفعوا السلاح في وجه الثورة ، لذلك اتخذت الدولة تدابير قمعية في وجههم . اما شكل « التجميع الزراعي » فقد اخذ في الاتحاد السوفياتي طريقا خاصا هو طريق (الارتل الزراعي) الذي تاخذ فيه جميع وسائل الانتاج طابعا

---

٢ ــ المختارات . الجزء الثاني ، ص ٤٠٦ .

اشتراكيا ، كما يأخذ العمل طابعا جمعيا . في حين انه ياخذ في البلاد الاشتراكية الاوروبية طرقا اخرى . فالتجميع الزراعي خضع لسياسة المراحل ولم يتم مباشرة . كما اننا نعثر فيها على ثلاث انماط من المزارع الجماعية :

١ ـ التعاونيات الزراعية التي تبقى فيها الارض ملكية خاصة لاعضاء التعاونية ، والتي يقتصر فيها العمل الجمعي على العمال الزراعيين الذين يقومون بزراعتها .

٢ ـ تعاونيات الانتاج التي تاخذ فيها وسائل الانتاج كما يأخذ العمل ، طابعا اشتراكيا . الا ان الارض تبقى فيها ملكية خاصة لاعضاء التعاونية . وفي هذا النوع من التعاونيات يوزع ٧٠ ـ ٧٥ بالمئة من الربح على اساس العمل المنجز ، في حين ان ما تبقى من نسبة يوزع على اساس مساحة الارض واتساعها .

٣ ـ التعاونيات الانتاجية التي اصبحت الملكية فيها ملكية اشتراكية بحيث ان الربح لم يعد يوزع سوى على اساس مردود العمل .

والايديولوجية الماركسية تنبه الى ضرورة تجنب نوعين من الانحراف خلال عملية التجميع الاشتراكي هذه : (الانحراف اليساري) الذي يلجأ باسم اليسارية الى القيام بهذه العملية بشكل سابق لاوانها دون تهيئة ، وعندئذ تؤدي هذه الاعتباطية اليسارية الى تراكم الاخطاء في الاسلوب وفي القرارات والى تجاهل الفلاحين والى فرض الاجراءات عليهم والتجاوز على حرياتهم والاكتفاء بتنفيذ القرارات الادارية بشأن ضمهم الى التعاونيات بشكل آلي .

(والانحراف اليميني) الذي يشكل خطرا اكبر ، والذي يؤجل الى ما لا نهاية عملية التجميع التعاوني ويماطل فيها لانه يتكيف مع المرحلة الانتقالية ومع مصالح كبار المزارعين ويصبح عثرة في طريق التحويل الاشتراكي .

اذن لا يمكن ان نتصور تحقيق التجميع الاشتراكي دون صراع جدي تارة ضد الانحراف اليميني وتارة ضد الانحراف اليساري . فعملية التجميع هذه هي جزء لا يتجزأ من عملية الانتقال الى الاشتراكية مهما اختلفت اشكالها ومناهج تطبيقها تبعا لاختلاف ظروف البلاد التي تمارسها .

التصنيع الاشتراكي :

ان المقصود « بالتصنيع الاشتراكي » ـ في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة ـ ، «خلق القاعدة المادية والتقنية للنظام الاشتراكي . وذلك بواسطة تطوير الصناعة الثقيلة اولا ، باعتبارها الشرط اللازم لتحويل الاقتصاد برمته ، واقامته على اساس التطور التقني والآلي الحديث ، وكذلك بواسطة ظفر الاشكال الاشتراكية للاقتصاد ، واخيرا بواسطة الاستقلال التقني والاقتصادي عن العالم الراسمالي ، وتوفير امكانية الدفاع عن النفس» (١) .

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني ، ص ١٩٠ .

صحيح ان الراسمالية تهيء من بعض النواحي الشروط المادية الاولية لبناء الاشتراكية بما تحققه من تطور في قوى الانتاج ومن تقدم تقني . غير ان تخلف القوى الانتاجية في عدد كبير من البلاد ، ووجود فروع لا تملك فيها المؤسسات الصناعية الصغيرة سوى اجهزة تقنية اولية بسيطة داخل البلاد الراسمالية المتقدمة نفسها ، كل ذلك يجعل دكتاتورية البروليتاريا مضطرة الى ان تخلق قاعدتها المادية والتقنية الاشتراكية الخاصة خلال مرحلة التحويل الاشتراكي ، وان تضع نصب اعينها تطوير جميع فروع الصناعة وفي مقدمتها الصناعة الثقيلة .

ان ذلك يتطلب اموالا ضخمة ، وهذه الاموال يجب ان يجري تامينها من داخل البلاد لان خطر الضغط السياسي الذي يرافق بشكل دائم القروض الخارجية ، يجعل القروض من البلاد الراسمالية ليست ذات موضوع بالنسبة لبلد اشتراكي . اما مصادر التمويل فتتلخص فيما يلي :

١ ـ القسم الذي كانت تقتطعه الطبقة المستغِلة من الدخل القومي لتنفقه على ملذاتها وحاجاتها الكمالية وترفها .

٢ ـ المبالغ التي كانت تذهب الى جيوب الراسماليين الاجانب .

٣ ـ الاموال التي كانت تستخدم في الريف لاقراض الفلاحين وللرهبنيات والديون ولتاجير الاراضي ... الخ .

٤ ـ موارد مشروعات الدولة ومؤسساتها ، وموارد التجارة الداخلية والخارجية والمصارف .

ان التصنيع الاشتراكي يتطلب بعض التضحيات وخاصة في مراحله الاولى . فقد كان على الشغيلة السوفياتية الذين رافقوا المراحل الاولى من البناء الاشتراكي ان يعزفوا عن اشياء كثيرة وان يقتصدوا بصورة دائمة . وعلى الرغم من ان بلاد الديموقراطيات الشعبية في شرق أوروبا قد حققت التصنيع الاشتراكي ضمن شروط اكثر ملاءمة ، الا ان التضحية ما تزال الثمن الرئيسي لنجاح المراحل الاولى منه .

ان التصنيع الاشتراكي جزء لا يتجزا من مرحلة التحويل الاشتراكي ، الا ان تحديد مهمات التصنيع تختلف من بلد لآخر . ففي البلاد الزراعية ينبغي التاكيد على ضرورة دعم التطوير الصناعي ، اما في البلاد المصنعة فيجب اقامة علاقات اقتصادية جديدة والقضاء على التفاوت والخلل الموروث من المرحلة الراسمالية السابقة .

الثورة الثقافية :

الى جانب عمليتي التجميع والتصنيع في المجالين الزراعي والصناعي ، لا بد ان

يواكب الثورة الاقتصادية في مرحلة التحويل الاشتراكي ثورة ثقافية تؤدي الى ظهور ثقافة اشتراكية .

هذه الثورة تقوم على جمع تراث الماضي وعلى حذف كل ما فيه من آثار رجعية وضارة بالنسبة للمجتمع الاشتراكي . كما ان مهمة هذه الثورة الثقافية ان تحول الثقافة من امتياز خاص بفئة محدودة الى خير عام للانسانية بأسرها .

لذلك بدأ الاتحاد السوفياتي بمحاربة الامية والقضاء عليها ، في حين ان بلاد اوروبا الشرقية جعلت محاربة الايديولوجية البورجوازية وتحرير العمال من تأثير الافكار الرجعية ، همها الاول .

ان المدرسة تشكل العنصر الاساسي في الثورة الثقافية ، لذلك فان تحويلها الى اداة للتربية الاشتراكية يشكل الخطوة الاولى في سبيل خلق ثقافة اشتراكية. ولا يتم ذلك الا بفصلها عن كل تاثير ديني وتحريرها من كل اثر للايديولوجية البورجوازية وخلق نموذج جديد للتربية ونظام جديد للتعليم الشعبي يهدف الى تكوين ناشئة تمتلك بعمق العلوم والتكنيك وتستطيع ان تساهم مساهمة جدية وواعية في بناء الاشتراكية .

اذن لا بد من تكوين طبقة جديدة من المثقفين من صلب الشعب اي من صفوف العمال والفلاحين .

لقد كان تشكيل هذه الطبقة في الاتحاد السوفياتي بعد الثورة عملا شاقا ، لان العنف الشديد الذي رافق الصراع الطبقي خلال الثورة قد استعدى قسما هاما من المثقفين على الثورة . وهذه التجربة ــ تجربة الاتحاد السوفياتي ــ قد دلت على ان «الشيوعيون مطالبون بان يظهروا المزيد من الحكمة ومن المرونة ومن الصبر في معالجة قضية المثقفين القدماء . فاذا لم تفهم فئاتهم مباشرة معنى التحول الثوري ، لا يجوز ان يصنفوا مباشرة بين الاعداء ، بل يجب ان يعطى لهم الوقت وان يحاطوا بكل الوسائل التي تسهل لهم عملية التكيف والانتقال الى الاشتراكية» (١) . فلا بد اذن من احاطة المثقفين وعزلهم عن اعداء الثورة واعطائهم الفرصة لاعادة النظر في المنطلقات الايديولوجية والسياسية القديمة التي كانوا يعبرون بها عن منطق مرحلة سابقة فقدت مبررات استمرارها وبقائها . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان الوضع المادي للمثقفين يجب ان يتحسن في ظل الاشتراكية عنه في ظل المرحلة الرأسمالية بالاضافة الى الناحية الحقوقية والمعنوية والى جو التعاون الاخوي فيما بينهم وبين العمال والفلاحين ــ كما يقول لينين (٢) ، لان ذلك وحده الكفيل بجعلهم يتخلصون كليا من المصالح الانانية للطبقة الراسمالية، وباشعارهم بالرضى عن عملهم وبالفائدة الاجتماعية لهذا العمل» .

---

١ ــ نفس المصدر ، ص ١٩٢ .

٢ ــ لينين ــ المؤلفات الكاملة ، الجزء الثاني ، ص ٩١٠ .

ان الايديولوجية السوفياتية المعاصرة تنظر نظرة تفاؤلية الى امكانية تكيف المثقفين مع مرحلة التحويل الاشتراكي في المستقبل وتتوقع بان تكون هذه العملية اسهل منها في الماضي لان هذه الفئات بدأت تفتش عن صيغ التحالف مع الطبقة العاملة في كثير من البلاد قبل قيام الثورة الاشتراكية .

نتائج مرحلة الانتقال :

تنتهي مرحلة الانتقال عندما يتم القضاء على العناصر الراسمالية في الاقتصاد، ويتم انتصار الشكل الاشتراكي للاقتصاد من جميع نواحيه . وقد تم ذلك في الاتحاد السوفياتي في نهاية عام ١٩٣٦ ، اي بعد حوالي عشرين عاما وذلك عندما اصبح القطاع الاشتراكي يشكل ٩٩،٨ بالمئة ، من الصناعة ، و٩٨،٥ بالمئة من الزراعة ، و١٠٠ بالمئة من التجارة . اي عندما تبدل التركيب الطبقي للاقتصاد الوطني وزالت العناصر الراسمالية واصبح المجتمع مؤلفا من الشغيلة .

اما في بلاد الديموقراطيات الشعبية في شرق اوروبا فقد استغرقت هذه المرحلة حوالي خمسة عشر عاما . فكما يتبين من خلال الجدول الذي يقدمه كتاب الايديولوجية السوفياتية المعاصرة نجد ان نسبة القطاع الاشتراكي عام ١٩٦٠ قد بلغت حدا جعلته هو المسيطر في مجالات الصناعة والزراعة والتجارة بالجملة والمفرق (باستثناء الزراعة في بولونيا) (١) :

البلد	الصناعة بالمئة	الزراعة بالمئة	تجارة الجملة بالمئة	تجارة المفرق بالمئة
الصين	١٠٠	٩٩ر١	١٠٠	٩٨ر٣
بولونيا	٩٩ر١	١٣ر٢	١٠٠	٩٦ر٥
تشيكوسلوفاكيا	١٠٠	٨٥ر٢	١٠٠	٩٩ر٩
المانيا الديموقراطية	٨٨ر٩	٩٦	١٠٠	٧٥ر٣
المجر	٩٣ر٦	٧١ر٣	١٠٠	٩٨ر٩
رومانيا	٩٨	٨١ر٣	١٠٠	٩٩ر٦
بلغاريا	٩٨ر٩	٩٧ر٤	١٠٠	٩٩ر٩
البانيا	٩٨ر٣	٨٦	١٠٠	٨٧ر٥
كوريا الشمالية	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٩٩ر٩
فياتنام الشمالية	٨٠ر٥	٧٢ر٧	٨٩	٩١ر٥
مونغوليا	١٠٠	٩٩ر٧	١٠٠	١٠٠

١ – الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ١٩٢ .

وهكذا فان هذا الجدول يكشف لنا ان سيطرة القطاع الاشتراكي قد اصبحت عام ١٩٦٠ كاملة في الصناعة في كل من الصين وتشيكوسلوفاكيا وكوريا الشمالية ومونغوليا وتليها حسب تسلسل النسب كل من بولونيا ثم بلغاريا والبانيا ورومانيا والمجر والمانيا الديموقراطية وفياتنام الشمالية .

اما في الزراعة فلم تبلغ السيطرة نسبة ١٠٠ بالمئة الا في كوريا الشمالية ، تليها حسب التسلسل كل من مونغوليا والصين وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والبانيا ورومانيا وفياتنام الشمالية والمجر ، اما في بولونيا فان نسبة القطاع الاشتراكي في الزراعة لم يتجاوز حتى عام ١٩٦٠ نسبة ١٣٫٢ بالمئة .

ومن خلال الجدول المذكور يتبين ان القطاع الاشتراكي قد سيطر بشكل كامل في قطاع التجارة بالجملة في جميع البلاد التي يتضمنها الجدول ما عدا فياتنام الشمالية حيث وصل القطاع الاشتراكي فيها نسبة ٨٩ بالمئة . اما فيما يتعلق بتجارة المفرق فالنسبة تتراوح بين الحد الاعلى ١٠٠ بالمئة في مونغوليا ، والحد الادنى ٧٥٫٣ بالمئة في المانيا الديموقراطية .

ان تجربة الاتحاد السوفياتي وتجارب الدول الاشتراكية الاخرى تكشف ان المجتمع الاشتراكي لا يولد بشكل عفوي آلي ، بل انه يبنى بعمل واع منهجي ، اي بقيادة حزب طليعي ، وبوجود دولة لها سلطة تشرف على تحقيق التحول الاقتصادي وتخطط للاقتصاد ضمن اطار التوجيه اللينيني الذي ينبه الى ضرورة عدم حرق المراحل ، اي «عدم اجراء اي تحويل لم يصل بعد الى مرحلة النضج» .

ب ـ نظرية خصائص المجتمع الاشتراكي

بعد مرحلة الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، يدخل المجتمع مرحلة بناء الاشتراكية وتحقيق المجتمع الاشتراكي . ولكن ماذا نعني تماما عندما نقول «المجتمع الاشتراكي» ؟ وما هي الخصائص الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تميزه ؟ وما هي اشكال الملكية التي تسود فيه ، وما هي الطبقات التي ينطوي عليها ، وما هو الشكل السياسي للنظام الاشتراكي ، وما هي الوظائف التي يجب ان توكل فيه للدولة او للحزب ؟

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تحاول الاجابة على هذه الاسئلة من خلال نظريتها عن «السمات المميزة للمجتمع الاشتراكي» .

ان المجتمع الاشتراكي حسب هذه الايديولوجية هو «نظام اجتماعي يرتكز الى الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، ويلغي ظاهرة استغلال الانسان للانسان ، ويتسع فيه الانتاج بشكل منهجي ودائم وبالاعتماد على قاعدة تكنيكية متطورة بقصد تامين ارتفاع مستمر في مستوى معيشة الشعب وتطبيق مبدأ التوزيع حسب العمل

المنتج » (١) .

اما الاساس السياسي للمجتمع الاشتراكي فيرتكز الى وجود دكتاتورية البروليتاريا التي تشكل الاداة الرئيسية لبناء الاشتراكية .
واخيرا فان القوة الموجهة للمجتمع الاشتراكي هي الطبقة العاملة التي تسلم نفسها لقيادة النظرية الماركسية ـ اللينينية .

المجتمع الاشتراكي في نظر ماركس وانجلز :

يتميز المجتمع الاشتراكي بالنسبة لماركس وانجلز بخاصتين رئيسيتين هما :
١ ـ ان جميع مشروعات الاستثمار ، الصناعية والزراعية ، يجب ان تكون في المؤسسات الجماعية للانتاج ـ المنظمات العمالية ، والتعاونيات ...
٢ ـ ان جميع الطبقات تلغى في المجتمع الاشتراكي ، فالمجتمع الاشتراكي مجتمع لا طبقي . لذلك تلغى ايضا مبررات وجود الدولة .
ففي البيان الشيوعي يعرف ماركس وانجلز المجتمع الاشتراكي بانه «نظام من المشاركة يكون فيه التطور الحر لكل فرد شرطا للتطور الحر للمجموع» .
وفي المختارات نقرأ لماركس قوله (٢) : «في ظل الاشتراكية ، تتحول وسائل الانتاج الى مجرد وسائل للعمل الحر والتعاوني ، ومجموع التعاونيات تقوم بتنظيم الانتاج القومي تبعا لمخطط عام» ان هذا لم يكتبه ماركس في وقت مبكر ، بل كتبه بعد ثلاث وعشرين سنة من كتابة البيان الشيوعي ، اي في عام ١٨٧١ .
في عام ١٨٧٥ كتب ماركس يعرف المجتمع الاشتراكي (٣) : «مجتمع تعاوني قائم على الملكية المشتركة لوسائل الانتاج» .
وفي الجزء الثالث من (راس المال) نقرا له قوله بأن «وسائل الانتاج في المجتمع

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني صفحة ٢٠٠ .
٢ ـ المختارات ، الجزء الاول ، ص ٤٩٥ .
٣ ـ المختارات ، الجزء الثاني ص ١٥ .

الاشتراكي تجد نفسها بين أيدي المنتجين المشتركين في الانتاج ، اي انها تنشيء ملكيتها الاجتماعية» ، وان الزراعة ايضا تحتاج الى «رقابة المنتجين المشتركين في الانتاج» ، وان «جميع الاقتصاد يكون في ايدي المنتجين المساهمين في الانتاج» .

وفي عام ۱۸۸۱ يكتب انجلز معرفا الاشتراكية بانها «شكل من اشكال المجتمع بنظم الانتاج على اساس المشاركة الحرة وعلى اساس المساواة بين المنتجين» (۱) .

وفي عام ۱۸۹۱ يكتب في المقدمة التي وضعها لمنتخبات كارل ماركس يقول : «ان الصناعة في المجتمع الاشتراكي تقوم على شراكة العمال داخل كل معمل ، وجميع هذه التعاونيات تتجمع داخل شركة كبيرة واحدة» .

وفي المختارات ايضا نقرأ لانجلز قوله (۲) : «ان قوى الانتاج في المجتمع الاشتراكي تصبح في عهدة البروليتاريا لخلق وضع جديد يسمح لكل عضو في المجتمع بأن يساهم لا في الانتاج فحسب ، بل وفي توزيع وادارة الثروات الاجتماعية ايضا» .

ان هذه السلسلة من الشواهد تكشف لنا عن ان ماركس وانجلز لم ينظرا قط للمجتمع الاشتراكي على انه المجتمع الذي يسود فيه نظام الاقتصاد المركزي ، بل على العكس كانا يقولان بالغاء الدولة ، ويعتبران هذا الالغاء خاصة مميزة للمجتمع اللاطبقي .

وتتضح هذه الحقيقة الهامة اكثر من خلال ما يشير اليه كتاب الايديولوجية السوفياتية المعاصرة) من اسانيد ، تبدأ بعبارة كارل ماركس : «... استبدال القديم بمجتمع يلغي الطبقات وتناقضاتها ولا يكون فيه مكان لسلطة الدولة ، لان سلطة الدولة ، هي التعبير الرسمي عن التفاوت الطبقي داخل المجتمع البورجوازي» (۳) . ثم بعبارة البيان الشيوعي : «اذا زالت الفروق بين الطبقات خلال التطور ، واذا اصبح الانتاج كله مركزا في يد الافراد المشاركين فيه ، فعندئذ لا بد ان تفقد سلطة الدولة طابعها السياسي» . وبعدها ، بعبارة انجلز : «ان جميع الاشتراكيين يعتبرون بالاجماع ان الدولة وسلطتها السياسية ستزول عقب الثورة الاجتماعية المقبلة ، وبمعنى آخر فان الوظائف العامة ستفقد طابعها السياسي وتتحول الى مجرد وظائف ادارية» . واخيرا بعبارته القائلة : «ان المجتمع الذي يعيد النظر في تنظيم الانتاج على اساس الاشتراك الحر المتساوي للمنتجين ، يضع آلة الدولة حيث كان يجب ان تبقى : في متاحف العصور القديمة الى جانب فأس البرونز والدولاب الحجري» (٤) .

---

١ - نفس المصدر ، ص ۲۹۹ .

٢ - المختارات ، الجزء الثاني ، ص ١٥٢ .

٣ - الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ۲۰۲ .

٤ - نفس المصدر ، ص ۲۰۳ .

المجتمع الاشتراكي في نظر لينين :

ان هدف الاشتراكية في رأي لينين ، كما يقول في خطابه للشغيلة في المجر في ١٠ نيسان ١٩١٧ ، هو «الغاء انقسام المجتمع الى طبقات ، وان تجعل من جميع اعضاء المجتمع عمالا (شغيلة) ، وان تحطم امكانية قيام اي شكل من اشكال استغلال الانسان للانسان» (١) كما ان اهم خصائص المجتمع الاشتراكي في رأي لينين تتلخص في «ملكية وسائل الانتاج» وفي «توزيع المنتوجات تبعا لمردود عمل كل فرد» .

اما بالنسبة للدولة ، فقد كان لينين متفقا مع ماركس وانجلز ، وكان يرى ان الاشتراكية تؤول بداهة الى الغاء الدولة . فمنذ عام ١٩١٤ يكتب قائلا : « ان الاشتراكية التي تؤدي الى الغاء الطبقات، تؤول في الوقت نفسه الى الغاء الدولة»(٢).

الا ان كتاب لينين «الدولة والثورة» الذي الفه عام ١٩١٧ قبيل الثورة ، يشهد تطورا في تفكير لينين ، اذ يشير فيه الى ان زوال الدولة يتم في مرحلة عليا من مراحل تطبيق الشيوعية : «ان انقراض الدولة الكامل يستوجب الوصول الى مرحلة الشيوعية الكاملة ، لذلك فنحن نملك كامل الحق في ان نتكلم عن انقراض لا مفر منه للدولة . الا اننا في الوقت نفسه ننبه الى ان هذا التطور باتجاه زوال الدولة يستغرق مدة طويلة ، ويتوقف على درجة تسارع التطور نحو بلوغ المرحلة العليا من الشيوعية» (٣) لذلك نجد لينين يقترح في منهاج الحزب البولشفي عام ١٩١٩ «اللجوء التدريجي لاشراك الشعب الكادح دون استثناء في العمل في ادارة الدولة ، وقطع خطوات واسعة في الطريق الذي سارت فيه كومونة باريس ، واتخاذ التدابير التي تؤدي الى الغاء سلطات الدولة (٤) . وهكذا فان لينين رغم تقديره لضرورة المرحلة الانتقالية داخل المجتمع الاشتراكي التي قد تطول وقد تقصر ، فقد بقي يؤكد على ان الغاء الدولة هو النتيجة الطبيعية لالغاء الطبقات ، وبقي منسجما مع وجهة نظر ماركس وانجلز في مسألة زوال الدولة . في حين ان مفهومه عن تركيب الاقتصاد الاشتراكي كان يختلف عن مفهومهما . فبدلا من «الشركات العمالية» و«الشركات التعاونية» التي كان ينادي بها مؤسسا الماركسية اقترح لينين تنظيم «الدولة النموذجية» هذا التنظيم الذي عناه في حديثه حول السلم والحرب امام المؤتمر السابع للحزب (٧ اذار ١٩١٨) لانه يخلق «الجهاز الاقتصادي الذي يعمل بصورة تجعل مئات الملايين من الاشخاص يعملون تحت قيادة مخطط واحد» .

---

١ – نفس المصدر ، الجزء الثاني ، ص ٢٠٢ .

٢ – الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٠٤ .

٣ – نفس المصدر .

٤ – نفس المصدر .

مع ذلك حاول لينين في منهاجه الذي اقره الحزب عام ١٩١٩ ان لا يغفل الدور الهام للنقابات بل ذهب الى حد المطالبة بان «تتحول الى شركات انتاج كبرى وان تذهب الى حدود تركيز ادارة الاقتصاد الشعبي كله في يدها باعتباره وحدة اقتصادية » (١) .

الملكية الاشتراكية :

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتبر البحث في اشكال الملكية مفتاحا لدراسة النظام الاجتماعي الاشتراكي ، وهي تنطلق من ان الخاصة الاولى المميزة للاشتراكية هي الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج في جميع فروع الاقتصاد الشعبي.

ان هذه «الملكية الاجتماعية» التي تميز النظام الاشتراكي تتجلى على شكلين :

١ ـ ملكية شعبية عامة (ملكية الدولة) .

٢ ـ ملكية تعاونية كولخوزية .

الشكل الاول ينشأ خلال عملية تأميم الصناعة الكبرى والمواصلات والمصارف ، وعملية نزع الملكية عن الملكيات الزراعية الكبرى .

اما الشكل الثاني فيأتي نتيجة لعملية تجميع الزراعة وقيام الكولخوزات والتعاونيات ، وهو يشمل قسما من التجارة والصناعة اليدوية ايضا .

وكلا الشكلين من اشكال الملكية يقوم على اضفاء الطابع الاشتراكي على وسائل الانتاج والعمل الجماعي ، كما يقوم على الانتاج المنهجي ، وعلى اساس جعل مردود العمل هو الاساس في دفع الاجور للعمال . الا اننا يمكن ان نلاحظ الفروق الاتية بين ملكية الدولة وبين الملكية الكولخوزية التعاونية :

أ ـ ان ملكية الدولة تنتسب الى المجتمع كله ، اما الملكية التعاونية الكولخوزية فترجع الى مختلف التجمعات والجمعيات التعاونية .

ب ـ ان منتوجات الدولة تباع وفقا لاسعار تحددها اجهزة الدولة .

كما ان قسما من انتاج الكولخوزات يباع بأسعار الدولة ، في حين ان قسما آخر من انتاج الكولخوزات يباع في الاسواق التعاونية باسعار تحدد بتأثير وضع السوق .

جـ ـ ان تعويضات الشغيلة في مؤسسات الدولة تدفع على شكل اجرة نقدية . اما في الكولخوزات فيمكن ان تكون نقدا ويمكن ان تكون اجرة عينية طبيعية .

د ـ ان تعيين المشرفين على ادارة مشروعات الدولة يجري من قبل اجهزة

---

١ ـ نفس المصدر .

الدولة ، في حين ان الذين يتولون ادارة المشروعات التعاونية هم منتخبون من قبل الهيئة العامة للتعاونية .

الاقتصاد الاشتراكي :

ان تحقيق المجتمع الاشتراكي عن طريق تحويل الملكية الخاصة الى ملكية اجتماعية ، يلغي استغلال الانسان للانسان ، ويقيم مكان علاقات الاستغلال علاقات تعاونية اخوية . كما يفسح المجال امام الاقتصاد ان يتطور بشكل منهجي وان يستند في تطوره المستمر الى قاعدة تكنيكية حديثة ، وان يقيم هذا التطور على اساس احدث المكتسبات العلمية والعملية . اما اهداف الاقتصاد ، فيطرأ عليها تحول جذري في المجتمع الاشتراكي اذ يحل محل التعطش الى الربح ، هدف تأمين سعادة جميع افراد المجتمع ، وتتوجه عملية الانتاج باتجاه توفير الشروط الملائمة لتفتح امكانيات ابناء المجتمع وضمان تطورها من جميع النواحي .

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتمد في تحديدها للقانون الاقتصادي الاساسي للاشتراكية على ما كتبه لينين : «ان القانون الاساسي للاقتصاد الاشتراكي يقوم على قاعدة التوسيع والتطوير الدائم للانتاج ومراعاة التقدم التكنيكي ، لتامين الحاجات المستمر والتطور المتكامل لجميع افراد المجتمع على افضل شكل ممكن»(١).

ان تحقيق الاشتراكية يجعل من التخطيط الاقتصادي ضرورة ويهيء له شروط السيطرة على العمل الاقتصادي . وعبارة لينين التي سبق ان اشرنا اليها والتي تقول بضرورة «وضع مخطط واحد تتجه من خلاله فعالية مئات الملايين من البشر» لتحقيق اهداف التطوير الاشتراكي قد دفعت الفكر الماركسي المعاصر الى اعتبار «التخطيط» قانونا اقتصاديا ، وجزءا لا يتجزأ من الاشتراكية .

ان هذا القانون (اي قانون التطور المنهجي للاقتصاد الشعبي) يتطلب ربط جميع فروع الاقتصاد بادارة مخططة موحدة . كما يتطلب الاخذ بعين الاعتبار مجموعة من المعادلات والنسب :

أ ـ بين الانتاج والاستهلاك .
ب ـ بين التراكم والاستهلاك .
جـ ـ بين الصناعة والزراعة والمواصلات .
د ـ بين الصناعة الثقيلة وبين انتاج سلع الاستهلاك .
هـ ـ بين كمية الودائع وحجم الاعمال .
و ـ بين الحاجة الى اختصاصيين مؤهلين وبين اعدادهم وتأهيلهم .

---

١ ـ نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .

ز ــ بين مختلف قطاعات الاقتصاد وبين مجموعه .

ان مهمة الدولة الاشتراكية واجهزتها التخطيطية تنحصر بالدرجة الاولى في تحديد هذه النسب . وهذا التحديد لا يكون اعتباطيا ولا تعسفيا ، بل يرتبط بضرورات محددة . لذلك يجب التمييز بين قانون التطور المنهجي للاقتصاد وبين التخطيط العملي . فالقانون يطرح امكانية تخطيط كاملة وصحيحة ، اما المشروعات التخطيطية فيمكن أن تكون صحيحة ويمكن ان تكون خاطئة ، تبعا لمدى ما تمثل المخططات من متطلبات ذلك القانون . لذلك ينبغي باستمرار تطوير طرق التخطيط ومناهجه ، ومراقبة المخططات ، التي تقوم على اساس التجارب العملية .

العمل والتوزيع :

لا يتميز المجتمع الاشتراكي بأشكال جديدة للملكية وباقتصاد مخطط فحسب، بل بطابع جديد للعمل ايضا .

ان الايديولوجية الماركسية تجد ان الاسباب التي تؤدي الى تغيير طابع العمل في ظل النظام الاشتراكي هي :

١ ــ تحرر العمال من الاستغلال ، والطابع الاجتماعي المباشر الذي يأخذه العمل، والتخطيط الذي يجعل فعالية الانتاج عند كل فرد تخدم ناحية معينة من المخطط العام للاقتصاد .

٢ ــ التنظيم المنهجي للمجتمع الذي يسمح بالاستفادة من مصادر العمل الى اقصى حد ، وبالحصول على اعلى درجة من الفعالية والمردود .

٣ ــ تحول العمل من حاجة حيوية الى وظيفة اجتماعية مشرفة في ظل النظام الاشتراكي ، وظهور دوافع ومحركات جديدة للعمل ، وغلبة الحوافز المعنوية والاخلاقية على المصالح المادية .

٤ ــ ظهور نوع جديد من التنافس الايجابي قائم على الحماسة والغيرة على النظام الاشتراكي ، وظهور دوافع ومحركات جديدة للعمل ، وغلبة الحوافز .

هذا بالنسبة للطابع الجديد للعمل ، اما بالنسبة للتوزيع فالذي يميز النظام الاشتراكي ان التوزيع يجري حسب المبدأ الآتي : «لكل حسب قدراته وقابلياته ، لكل حسب عمله» (١) اي بالنسبة الى كمية العمل وكيفيته ، التي ساهم بهما كل عضو من اعضاء المجتمع . وهذا يتطلب طبعا مراقبة دقيقة لنسبة العمل ولنسبة الاستهلاك . على اننا يجب ان نميز بين العمل الاختصاصي والعمل الذي لا يحتاج الى اختصاص اي الى معرفة وتكنيك راقيين . وان ناخذ بعين الاعتبار ان المجتمع

---

١ ــ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢١٨ .

الاشتراكي لا يملك امكانية توزيع المنتجات المصنوعة حسب حاجة الافراد . وان تطبيق مبدأ «لكل حسب عمله» يشجع الرغبة في رفع مستوى انتاجية العمل وفي تعزيز نظام العمل . لذلك فان فكرة مساواة الاجور وتحديد اجرة واحدة فكرة مرفوضة . والمهم ان تنشأ علاقة مناسبة بين الدوافع المادية وبين الحوافز الاخلاقية لتشجع على العمل .

تركيب الطبقات في ظل الاشتراكية :

يتميز المجتمع الاشتراكي بتركيب طبقي جديد . فالتحولات الاقتصادية والاجتماعية خلال المرحلة الانتقالية من المجتمع الراسمالي الى المجتمع الاشتراكي، تقضي على الطبقات المستغلة المسيطرة ، وتحدث تغييرا اساسيا في وضع العمال والفلاحين والمثقفين .

فالطبقة العاملة التي لم تكن تملك اية وسيلة من وسائل الانتاج ، والتي كانت خاضعة للاستغلال ، تصبح القوة الموجهة للمجتمع الاشتراكي لعدة اسباب اهمها :

١ ـ لانها كانت القوة الاساسية في الثورة .

٢ ـ لانها ترتبط باكثر اشكال الملكية تطورا ، اي الملكية العامة للشعب ، (ملكية الدولة) .

٣ ـ لانها تمتاز بالاخلاص للمبادىء الاشتراكية

اما طبقة الفلاحين التي كانت تضم صغار المنتجين والتي لم تكن تشكل طبقة متجانسة ، والتي كانت تعمل في ظل الملكية الفردية ووسائلها المتخلفة ، فانها تصبح في ظل الاشتراكية طبقة جديدة متحررة من الاستغلال تعمل داخل اطار جماعي وبوسائل حديثة ، وضمن شروط ترفع في مستوى ثقافة الفلاحين وتوسع آفاقهم وتتجاوز الاطر العتيقة من التفكير التي كانت تهيمن عليهم وتخلصهم من آثار الانانية وتجعلهم اكثر اهتماما بنجاح العمل الجمعي ونجاح البلاد .

ان مستوى طبقة الفلاحين قد يبقى خلال فترة من الزمن في ظل النظام الاشتراكي دون مستوى الطبقة العاملة ، الا ان هذه الفروق تزول بالتدريج .

اما فئة المثقفين ، فانها تلعب دورا هاما في المجتمع الاشتراكي ، وهم لا يشكلون طبقة لانهم لا يقومون بدور مستقل في عملية الانتاج الاجتماعي ، انهم الفئة الاسرع نموا وتكاثرا من فئات الشعب . ففي الاتحاد السوفياتي ارتفع عدد الاختصاصيين الذين حصلوا على التأهيل الثانوي والعالي من ٥٩١ الف ، عام١٩٢٨

الى ٧٥٥ مليونا عام ١٩٥٨ (١) . ان الغاء الاستغلال يلغي الهرم الطبقي الذي كان سائدا خلال الاجيال السابقة كما يلغي نظام التبعية الذي كان يربط طبقة باخرى . كما ان التركيب الجديد للطبقات في ظل الاشتراكية يؤدي الى تبديل الروابط التي كانت قائمة بين الطبقات ، فجميع الفئات الاجتماعية وجميع الطبقات تملك في ظل المجتمع الاشتراكي نفس الحقوق ونفس الواجبات تجاه وسائل الانتاج

ان الفروق الاجتماعية لا تزول في المجتمع الاشتراكي وانما يطرا تبدل اساسي على طبيعتها ، فلا يبقى مجال لعلاقات السيطرة والتبعية . وتنحصر الفروق بين قطاعات مختلفة من العمل تملك جميعها حقوقا متساوية . فالفروق اذن تستند الى اختلاف الاشكال التي تاخذها الملكية الاشتراكية نفسها (ملكية دولة او ملكية تعاونيات)

مهمات الدولة في المجتمع الاشتراكي :

ان الايديولوجية الماركسية
ترى ان الدولة
تستمر وتبقى لها وظائفها الى ان تتحول الى ادارة ذاتية
عندما يتم الانتصار الكامل للشيوعية .

---

١ - الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٠٩ .

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة ترى
ضرورة لبقائها للاسباب التالية :

١ ــ لان سلطة الدولة تشكل الاساس المعقول لادارة الانتاج ، والاداة الفعالة في التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

٢ ــ ان بقاء بعض اشكال اللامساواة في شروط حياة الافراد يستوجب قيام نظام لمراقبة نسبة العمل ونسبة الاستهلاك مراقبة مستمرة . وليس كالدولة من يستطيع ان يحقق هذه المهمة .

٣ ــ لان بعض الجيوب الراسمالية ما تزال موجودة ولان بعض الافكار القديمة ما تزال معششة في ادمغة بعض الاوساط الاجتماعية ، فوجود الدولة ضروري لحماية الملكية الاجتماعية وللتصدي لوقف اعمال التخريب الموجهة ضد المجتمع .

٤ ــ ان خطر العدوان من قبل الدول الامبريالية يبقى ماثلا طالما ان الاشتراكية لم تنتصر على الصعيد العالمي ، اي في العالم كله . لذلك فان «القوى المسلحة وباقي اجهزة الدولة التي لها مهمة تامين القوى الدفاعية لحماية البلاد ، ومهمة الكفاح ضد الجواسيس وضد المضللين وغيرهم من العناصر التي تدخل الى البلاد لتنفيذ اغراض الامبرياليين ، ان هذه القوى تبقى ضرورية ويجب ان تستمر» (٢) .

لهذه الاسباب ، ترى الايديولوجية الماركسية المعاصرة ان بقاء الدولة وسلطتها امر ضروري في ظل الاشتراكية .

الوظيفة الاقتصادية للدولة تنمو وتتسع بشكل خاص لان الدولة تمسك بجميع خيوط التطور الاقتصادي للبلد ، ولان ادارة الاقتصاد تصبح احد مهماتها الرئيسية . فالدولة في المجتمع الاشتراكي مسؤولة عن توجيه الصناعة كلها والقطاع التجاري المؤمم ، كما ان عليها ان تدير الصحة العامة والتامينات الاجتماعية والتربية ... وان تكون المتعاقد الرئيسي مع الكولخوزات . ثم ان المهمة الاقتصادية تنمو موازية للمهمة الثقافية والتربوية وخاصة في مجالات العلم والفن والثقافة الاشتراكية بالاضافة الى ذلك يدخل توطيد النظام والامن وحماية حقوق ومصالح المواطنين والملكية الاشتراكية ضمن مهام الدولة الاشتراكية ايضا .

---

١ ــ نفس المصدر ، ص ٢١٠ .
٢ ــ نفس المصدر ، ص ٢١١ .

الديموقراطية الاشتراكية :

ان الاشتراكية هي التي تخلق الامكانيات والشروط اللازمة لتحقيق ديموقراطية حقيقية ذات طابع شعبي ، لاول مرة في التاريخ . ففي المجتمع الاشتراكي تكون الديموقراطية «ديموقراطية اشتراكية» اي شعبية . لذلك نجد كتاب (اسس الماركسية ـ اللينينية) يعرّف هذه الديموقراطية بقوله : «ان الديموقراطية الاشتراكية ليست ديموقراطية متطرفة ودون هدف ، بل على العكس ، فهي ديموقراطية موجهة من قبل الحزب ومن قبل الدولة لصالح تطور الاشتراكية تطورا اوسع ومن اجل بناء الشيوعية» (٢) .

لذلك فان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتبر الديموقراطية الاشتراكية الشكل الاعلى للديموقراطية . وهذا النموذج الجديد للديموقراطية يتميز بالخصائص التالية :

١ ـ بمشاركة العمال والفلاحين بادارة الشؤون العامة مشاركة واسعة .

٢ ـ بامتلاك الشعب لحق نزع النيابة عن النواب وغيرهم من الممثلين قبل نهاية مدة النيابة .

٣ ـ بالاهمية الكبرى والدور المتعاظم للمنظمات الاجتماعية .

٤ ـ بالمساهمة الفعالة للشعب في القضايا العامة .

ويمكن ان نعثر على امثلة واضحة حول هذه الخصائص مستمدة من واقع الاتحاد السوفياتي في الجزء الثاني من كتاب الايديولوجية السوفياتية المعاصرة (٣) وهي تكشف عن ان انتخابات السوفيات الاعلى عام ١٩٥٨ قد اوصلت ٦١٤ عاملا وكولخوزيا يعملون مباشرة في الانتاج الى مقاعد النيابة . وفي عام ١٩٥٩ كان

---

٢ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني .

٣ ـ نفس المصدر ، ص ٢١٢ .

٣٤٠ الف عامل يعملون في الصناعة ، وحوالي ٧٨٠ الف كولخوزي ، يشغلـــون اماكنهم في السوفيتات المحلية بحيث ان ٣٩،٤ بالمئة من نواب سوفيات المدن كانوا عمالا صناعيين موظفين مباشرة في الانتاج ، و٥٨،٨ بالمئة من سوفيتات الريف كانوا كولخوزيين .

اما فيما يتعلق بالمنظمات الاجتماعية ، فيذكر المرجع المذكور ان عدد اعضـــاء الحزب الشيوعي السوفياتي عام ١٩٦١ قد بلغ ٩،٢ مليون منتسب ، وان عـــدد اعضاء اتحاد الشبيبة الشيوعية اي الكومسومول قد بلغ ١٨،٥ مليون عضو ، وان عدد اعضاء النقابات قد وصل الى ٥٥ مليون عضو . اما فيما يخص مساهمة الشعب الفعالة في القضايا العامة ، فان كتاب اسس الماركسية ـ اللينينية يذكر انه خلال المناقشة الشعبية العامة حول اعادة تنظيم ادارة الاقتصاد في ربيع عام ١٩٥٧ ، قد عقد ٥١٤ الف اجتماع ضم ٤٠،٨ مليون شخص . وان اكثر من مليوني شخص قد قدموا اقتراحات ، وحوالي ٧٠٠ الف شخص قد عبروا عن آرائهم في الصحف . وكذلك خلال المناقشة العامة في ربيع ١٩٥٨ حول اعادة توزيع محطـــات الآلات والجرارات ، فقد انعقد ما يقرب من ٥٧٦ الف اجتماع ضمت حوالي ٤٩ مليـــون مواطن سوفياتي تكلم خلالها حوالي ثلاثة ملايين شخص ، كما ان الصحف قد تلقت حوالي ١٢٦ الف خطاب نشر منها ١٠٢ الف خطاب .

الحرية الفردية في ظل الاشتراكية :

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تؤكد بأن المجتمع الاشتراكي يضمن حرية الافراد ، ذلك ان تحرر الانسان يتوقف على الروابط الاجتماعية . والاشتراكيـــة بتبديلها للروابط الاجتماعية في المجتمع الاستغلالي القديم ، انما تتيح الفرصـــة للافراد لان يستغلوا مواهبهم وامكانياتهم الشخصية على احسن وجه . ان المجتمع الاشتراكي وحده هو الذي يسمح في راي لينين بايصال «غالبية العمال الى ميدان للعمل يعطيهم الفرصة لكي يتمايزوا ويفتحوا قابلياتهم ، ويفسح المجال للمواهب بأن تظهر وان تعبر عن نفسها ، لمواهب الشعب ، ذاك الينبوع الذي لا ينضب الذي داسته الراسمالية بالاقدام» (١) .

الا ان المجتمع الاشتراكي لا يفسح المجال امام حريات فردية لا حدود لها ، ولا بد للدولة فيه ، كما يقول كتاب اسس الماركسية ـ اللينينية ، من ان تضع تقييدات تحمي الشعب والمصلحة العامة من التجاوزات ومن عوامل التخريب . فهي لا بد ان تعاقب كل من ينشر افكارا فاشية وعنصرية ودعايات استعمارية ، وهي لا بد ان

---

١ ـ المنتخبات ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٦ .

تمنع نشر كتب او عرض افلام تضلل الشبيبة وتفسدها وتشوه اخلاقها وانسانيتها. ومثل هذه التدابير تعزز الطابع الديموقراطي للنظام الجديد في راي الايديولوجية الماركسية المعاصرة ، ولا تنقص منه او تنال من ديموقراطيته (١) .

ان الوحدة العضوية بين المصالح الشخصية وبين المصلحة العامة لا تتحقق الا في ظل النظام الاشتراكي حيث يتشكل الاساس الموضوعي لهذه الوحدة . ففي المجتمع الاشتراكي لا يستطيع فرد ان يحسن وضعه الخاص الا عن طريق عمل منتج ، وهذا ما يتفق مع مصلحة المجتمع ككل . فسعادة كل فرد من افراد المجتمع تتوقف على تطور المجتمع كله . لذلك كان من واجب النظام الاشتراكي ان يراعي المصالح العامة وان يكافح جميع المفاهيم والعادات التي نشأت خلال آلاف السنين من سيطرة الملكية الخاصة سواء فيما يخص العمل وحب التملك والانانية والتعصب القومي والنظرة الى المراة وغير ذلك من رواسب النظام الراسمالي .

وهذا يعني ان يمارس المجتمع الاشتراكي عملا تربويا ثابتا وبعيد المدى على افراده حتى يضمن تحررهم من هذه الرواسب .

الثقافة الاشتراكية :

ان الثقافة التي كانت في الماضي امتيازا خاصا بطبقة اجتماعية محدودة ، اصبحت في ظل النظام الاشتراكي خيرا عاما يتمتع به الجميع ، فنشأت طبقة جديدة قوامها المثقفون الاشتراكيون . وحدثت ثورة على الصعيد الثقافي ادت الى نشوء «ثقافة اشتراكية» .

ان هذه الثقافة هي حسب تعريف كتاب اسس الماركسية ــ اللينينية «الثقافة التي تعكس حياة المجتمع الجديد ومثله ، والتي تنهل من ايديولوجيته وتعمل على خدمة الشعب وعلى دعم نضاله من اجل الاشتراكية» (٢) .

وتتميز الثقافة الاشتراكية في كونها تتبنى كل ما في التراث الثقافي الماضي من اشياء ثمينة وتحذف كل ما هو بال ورجعي مخالف لاسس المجتمع الاشتراكي ومعناه . وبكونها متاحة للجميع وليست مقصورة على فئة ، وكونها اداة في خدمة الشعب كله .

ان هذه الحقائق هي التي تفرض على صانعي الثقافة في المجتمع الاشتراكي مسؤوليات عالية . فالادب والفن لا يعكسان حياة الشعب فحسب ، بل والنفس الانسانية ايضا . فهما لا يمكن ان ينفصلا عن حياة الشعب داخل المجتمع الاشتراكي

---

١ ــ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢١٣ .
٢ ــ نفس المصدر ، ص ٢١٤ .

ولا عن الصراع الطبقي في المرحلة السابقة له ولا عن السياسة ، لان كل فنان يعبر بصورة شعورية او لا شعورية عن مصالح بعض الطبقات .

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتمد على ما قاله لينين (تشرين ثاني ١٩٠٥) فتقرر مبدأ الالتزام والتحزب في الادب . فعبارة لينين تقول : «ان النشاط الادبي يصبح جزءا من القضية البروليتارية العامة تقوم به طليعة الطبقة العاملة التي تتمتع بالوعي السياسي لذلك يجب أن يصبح النشاط الادبي عنصرا من اهم عناصر عمل الحزب ، وان ينتظم وان يخطط له» (١) . وهذا ما يفسر اهتمام الاحزاب الشيوعية بدور النشر والمجلات والصحف وبالمكتبات وبالكتاب وبالنشاط الادبي والفني بوجه عام. اما بصدد اشكال التعبير الادبية والفنية في المجتمع الاشتراكي فهي تلتـــزم «الواقعية الاشتراكية» اي «تصوير الواقع في تطوره الصاعد تصويرا امينا» على حد تعبير كتاب أسس الماركسية ــ اللينينية .

ان الواقعية الاشتراكية هي منهج في الادب وفي الفن يتطلب اعادة تصويـــر الواقع وعرض الحقيقة بشكل امين من خلال تطورها التاريخي المشخص . فالاصالة تعني في الواقعية الاشتراكية ترجمة الادب للواقع ترجمة امينة وهذه الاصالة تشكل بالاضافة الى الطابع التاريخي المشخص للانتاج الفني الخاصتين الرئيسيتين للواقعية الاشتراكية . وهما تساهمان في التربية الايديولوجية للعمال وتعزيز الفكـــر الاشتراكي .

محركات التطور في المجتمع الاشتراكي :

---

١ ــ الايديولوجية السوفيالية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢١٤ .
٢ ــ نفس المصدر ، ص ٢١٥ .

اهم هذه المحركات تتلخص[1] :

١ ــ في العمل الجمعي القائم على اساس الملكية الاشتراكية والتنافس الايجابي المستند الى الحماس الاشتراكي والتعاضد والتعاون المتبادل وروح الرفاقة .

٢ ــ الوحدة السياسية والمعنوية للمجتمع التي تساعد على حل المشكــلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الاكثر الحاحا لانها تجمع جميع الشغيلة حــول الحزب وحول سياسته .

٣ ــ الصداقة بين الامم الاشتراكية داخل بلد واحد (كالاتحاد السوفياتي) او داخل اطار النظام الاشتراكي العالمي (كالمعسكر الاشتراكي) . هذه الصداقة التــي تدعم القوى الاشتراكية في مهمات الدفاع عن المكاسب الاشتراكيــة امام هجمات الامبريالية ومؤامراتها من جهة ، وتعزز التعاون لبناء المجتمع الاشتراكي من جهة اخــرى .

٤ ــ الولاء الاشتراكي الذي يشكل صورة جديدة من صور المواطنة والذي لا ينفصل بسببه حب الوطن وحب الامة عن الولاء للنظام الاشتراكي ولدولة العمال التي يقودها الحزب الماركسي ــ اللينيني .

الفصل السادس

مرحلة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية
صورة المجتمع الشيوعي في المستقبل

أ ـ مرحلة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية

يعتبر بناء المجتمع الاشتراكي في نظر الايديولوجية الماركسية خطوة في طريق بناء الشيوعية ، فهو يشكل مرحلة يتم خلالها التخلص نهائيا من رواسب المجتمع الراسمالي . كما توضع خلالها ايضا الاحجار الاساسية لبناء المجتمع الشيوعي المقبل . ففي الاتحاد السوفياتي بدات مرحلة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية في نهاية عام ١٩٣٦ عندما اعلن فيه عن انتهاء مرحلة الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية . الا ان هذه المرحلة الجديدة لم يكتب لها الاستمرار الطبيعي . فقد جاءت الحرب لتقطع حلقات السلسلة ، وتوقف التطور ، لم جاءت فترة ما بعد الحرب . فترة الترميم التي امتدت حتى عام ١٩٥٢ ، حيث اعلن في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي عن الانتقال الى الشيوعية .

ان نظرية الانتقال الى الشيوعيـــة تحاول التفريق بين المرحلة الاولـــى ـ الاشتراكية ـ والمرحلة الثانية ـ الشيوعية ـ وتكشف عن التدابير التي يجب ان تتخذ لتحقيق هذا الانتقال ، وخاصة فيما يتعلق بالشروط المادية والتقنيـــة ، وكيف تتحقق الملكية الشيوعية الموحدة ، وكيف تزول الفوارق بين المدينة والريف، وبين العمل الفكري والعمل البدني . وكيف يجري الانتقال الى مرحلة التوزيع المجاني للمنتجات على الجميع ـ كل حسب حاجته ـ ، وكيف يجري التحول في السلطة السياسية ، وكيف يتحقق التقارب بين مختلف الشعوب ، وما هي التدابـــير الايديولوجية والتربوية الضرورية لهذه المرحلة وما هو دور الحزب .. الخ .

الفروق بين الاشتراكية والشيوعية :

ان الايديولوجية الماركسية تعتمد في تمييزها للمرحلة الدنيا (الاشتراكية) ، وللمرحلة العليا (الشيوعية) من مراحل تطور المجتمع الجديد ، على اقوال ماركس ولينين . ففي المنتخبات نقرأ لماركس ما يلي (١) : «في هذه الحالة ، تكون بصدد الكلام عن مرحلة من مراحل تكوين المجتمع الشيوعي ، لا تلك التي قامت علـــى اسس شيوعية . بل على العكس ، تلك التي اتت عقب انهيار النظام الراسمالي . وهي ما تزال من جميع النواحي ، الاقتصادية والمعنوية والروحية متصلة بآثـــار المجتمع القديم الذي نجمت عنه .. ان هذه العيوب امر لا مفر منـــه في المرحلة الاولى من المجتمع الشيوعي .. ففي مرحلة اعلى ، عندما يزول الارتباط الذليـــل بين الافراد وبين تقسيم العمل ، وتزول نتيجة لذلك المعارضة بين العمل البدنـــي والعمل الفكري ، وعندما يصبح العمل اول حاجة حيوية ، وتنمو قوى الانتـــاج وتتفجر ينابيع الثروة التعاونية .. عندئذ .. وعندئذ فقط ، يستطيع المجتمع ان يكتب على راياته : «كل حسب قدراته .. ولكل حسب حاجاته» .

وعندما اتى لينين فيما بعد ، نجده يسمي الاشتراكية « المرحلة الاولـــى » ويسمي الشيوعية «المرحلة الثانية» ، والفرق بينهما هو في كون المرحلة الاولى «هي بنت النظام الراسمالي ، في حين ان الثانية هي وليدة المجتمع الاشتراكي . لذلك فان المرحلة الثانية تشكل مرحلة متقدمة على الاولى ..» والاشتراكيـــة لا تدخل في المرحلة العليا الشيوعية الا «عندما يتعلم جميع الناس كيـــف يديرون الانتاج الاجتماعي بشكل مستقل» ، وكذلك عندما تصبح ضرورة احترام القواعـــد الرئيسية البسيطة لكل حياة مشتركة عادة من العادات (٢) .

---

١ ـ المنتخبات ، الجزء الثاني ، ص ١٦ .

٢ ـ لينين ـ الدولة والثورة ـ ، المنتخبات ، ص ٣٩٥ .

على ضوء هذه المبادىء ، تعتبر الايديولوجية الماركسية المعاصرة الاشتراكية والشيوعية ، مرحلتين من مراحل نظام اجتماعي واحد تتميزان بدرجة نضجهما ، ويجمعهما خط مشترك هو ان استغلال الانسان للانسان لم يبق له مكان فيهما ، وانه لم يبق وجود لطبقة مستغلة ، وان وسائل الانتاج هي في يد المجتمع ، وهي تستخدم لتامين حاجات البشر .

اما الفروق بينهما فتتلخص فيما يلي (١) :

١ – في ظل الاشتراكية تبلغ قوى الانتاج مستوى عاليا ، ولكن في ظل الشيوعية وحدها تصل القاعدة المادية والتقنية للانتاج الى درجة تستطيع ان تؤمن الوفرة في الانتاج .

٢ – في المرحلة الاشتراكية يوجد شكلان للملكية الاجتماعية ، ملكية الدولة ثم الملكية التعاونية الكولخوزية . في حين انه في المرحلة الشيوعية لا يبقى سوى ملكية اجتماعية شعبية شيوعية موحدة .

٣ – في المجتمع الاشتراكي ، لا يزال هناك فروق بين المدينة والريف . اما في المجتمع الشيوعي فتزول هذه الفروق .

٤ – في ظل الاشتراكية ما تزال هناك فروق بين العمل الفكري والعمل الجسمي. اما في ظل الشيوعية فتنمحي هذه الفروق .

٥ – في الاشتراكية تبقى الفروق بين طبقة العمال والفلاحين وبين طبقة المثقفين . اما في الشيوعية فان التمييز بين العامل والمثقف يزول ويتحقق المجتمع اللاطبقي ..

٦ – في المرحلة الاشتراكية يجري توزيع الخيرات تبعا لكمية ونوعية العمل وتبعا للمبدأ القائل : «لكل حسب عمله» . اما في المرحلة الشيوعية ، حيث تصل قوى الانتاج الى مستوى اعلى بكثير ، وحيث يصبح العمل المبدأ الحيوي الاول ، فان التوزيع يتم حسب المبدأ القائل : «لكل حسب حاجاته» .

٧ – واخيرا فان الدولة تبقى قائمة في ظل الاشتراكية . اما في المرحلة الشيوعية العليا ، فان زوال انقسام المجتمع الى طبقات ، والوعي العالي الذي يتمتع به البشر، يلغيان ضرورة سلطة الدولة . اما زوال الدولة ، فلا يصبح ممكنا الا بعد انتصار الشيوعية على الصعيد العالمي .

ماذا يعني الانتقال الى الشيوعية ؟ :

على ضوء الفروق بين الاشتراكية والشيوعية ، نستطيع ان نحدد المقصود بالانتقال الى الشيوعية في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة على الصعيد

---

١ – الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٤٦ .

الاقتصادي وعلى الصعيد الاجتماعي والسياسي .

فعلى الصعيد الاقتصادي : يعني الانتقال الى الشيوعية خلق القاعدة المادية والتقنية للشيوعية ، اي الوصول الى اعلى مستوى حياتي في العالم كله ، بحيث يمكن البدء بتوزيع المنتجات حسب الحاجات .

وعلى صعيد العلاقات الاجتماعية ، يعني تجاوز الفروق بين المدينة والريف ، وبعد ذلك بين العمل العقلي والعمل الجسدي ، وازالة آثار الفروق الطبقية وخلق مجتمع دون طبقات .

وعلى الصعيد السياسي ، تحويل وظائف الدولة بشكل تدريجي الى المنظمات الاجتماعية والتحضير لانقراض الدولة وللانتقال للادارة الذاتية الشيوعية ، والتسيير الذاتي .

خلق القاعدة المادية والتكنيكية للانتاج :

ان الايديولوجية الماركسية المعاصرة ، تعتبر خلق القاعدة المادية للانتاج الشرط الاولي الضروري لتحقيق الشيوعية وهي تعتمد في تقريرها لهذا الشرط على كتابات لينين التي اكدت عدة مرات ضرورة توفر التقنية الحديثة وخاصة كهربة البلاد للانتقال الى الشيوعية .

فقد بلغ من تأكيد لينين على كهربة البلاد ، انه قال في حديث مع مراسل الديلي اكسبرس ــ ١٨ شباط ١٩٢٠ : «ان كهربة بلادنا على اساس النظام السوفياتي سوف يؤدي الى الانتصار الحاسم للمبادىء الشيوعية فيها» (١) .

ويعود لينين ليؤكد هذه الملاحظة في مناسبة اخرى فيقول : «اذا لم تعط روسيا تقنية جديدة اعلى من السابق فلا مجال لاقامة الاقتصاد الشعبي وبناء الشيوعية . فالشيوعية هي سلطة السوفييت مضافا اليها كهربة البلاد جميعها»(٢).

ان هذا القول الذي يرجع تاريخه الى ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠ ما يلبث ان يؤيد بقول آخر بعد شهر ، ففي ٢٢ كانون اول ١٩٢٠ يقول لينين : «عندما تصبح روسيا مغطاة بشبكة كثيفة من المراكز الكهربائية وبمنشآت تكنيكية قوية ، عندئذ يصبح بناؤنا للاقتصاد الشيوعي نموذجا لاوروبا في المستقبل ، ونموذجا لآسيا الاشتراكية في المستقبل» (٣) .

ان خلق القاعدة المادية التقنية ، يتضمن حسب التعريف الماركسي الحديث الى جانب الكهربة الشاملة للبلاد وتجديد التقنية واقامة الانتاج على احدث

---

١ ــ نفس المصدر ص ٢٤٧ .
٢ ــ نفس المصدر .
٣ ــ نفس المصدر ص ٢٤٨ .

الاساليب الميكانيكية والاوتوماتية، استخدام الكيمياء استخداما واسعا في الاقتصاد وتطوير فروع الانتاج وانماط الطاقة واستخدام المصادر الطبيعية استخداما علميـا والربط بين العلم والانتاج ربطـــا عضويا ورفع المستوى المهني التكنيكي والثقافي للعمل وتحقيق مردود وانتاجية للعمل اعلى من جميع البلاد الراسمالية حتى الاكثر تطورا منها .

الملكية الشيوعية الموحدة :

ان الفروق التي كانت ما تزال قائمة بين الملكية التعاونية الكولخوزيـــة وبين ملكية الدولة تنتهي الى زوال خلال مرحلة بناء المجتمع الشيوعـي ، حسب راي الايديولوجية الماركسية . فالكولخوزية تقترب شيئا فشيئا من قواعد تنظيم العمل في مشروعات الدولة ، وكذلك من شكل تعويضات العمل . ويبدأ الكولخوزيـــون يتقاضون شان عمال المصانع المؤممة اجرة اسبوعية مضمونة ، ويتمتعون بما لهم من مكاسب اجتماعية كالعطل المأجورة والتعويضات العائلية الخ . وتعمد بعـــض المؤسسات التعاونية كالمخابز والمغاسل ودور الحضانة وروضات الاطفال والنوادي والمكتبات والمؤسسات الرياضية الى تامين جميع حاجات الكولخوزيين عـــن طريق التعاونيـــة .

وعندئذ تغدو ملكية قطعة الارض الصغيرة امرا لا معنى له من الناحيـــة الاقتصادية ، ولا يعطي لحامله اي ميزة فهي ترف لا بد من التنازل عنه عن طواعية.

ثم تأتي مرحلة تتعاون فيها الكولخوزات تعاونا اوثق فيما بينها ، وكذلك مع المنظمات العامة . ولا تقتصر اهتمامها على الزراعة ، بل تنشىء بالتعاون مع بعضها مصانع مشتركة للاستثمار الصناعي للمنتجات الزراعية ولصنع مواد البناء ، ومراكز لتجميع الطاقة وغيرها من فروع الانتاج ، بحيث ان الملكية الجماعية الكولخوزية تاخذ تدريجيا طابع الملكية الشعبية وتندمج الملكيتان اندماجا كليا .

ازالة الفروق بين المدينة والريف :

منذ عام ١٨٤٥ – ١٨٤٦ ، اي منذ المؤلفات التي تعرف بمؤلفات الشباب ، حاول ماركس بحث هذا الموضوع ، والتركيز على ضرورة حذف الفروق بين المدينة

والريف ، لان هذه الفروق تعتبر في نظر ماركس «التعبير الافظع عن عبودية الفرد لتقسيم العمل اي لفعالية مفروضة عليه ، عبودية تجعل من الواحد حيوانا محدودا يقطن المدينة ، ومن الاخر حيوانا محدودا يقطن الريف ، وتعزز يوميا التناقض فيما بينهما وتباعد بين مصالحهما» (١) . كذلك فان انجلز في مؤلفه « مبادىء الشيوعية» يرى بان «المجتمع القائم على اساس شيوعي لا بد ان تنمحي فيه التناقضات بين المدينة والريف ، وان ذلك لا يعود فقط امرا ممكنا بل ضرورة اولية» وان «دمج المدينة بالريف سوف يسمح بتوزيع الصناعة التوزيع العادل في جميع انحاء البلد» (٢) .

ثم جاء لينين فاكد بدوره على ان «الوصول الى الشيوعية يقتضي حل الفرق القائم بين المدينة والريف» (٣) .

لذلك فان ما يجري في المجتمع الاشتراكي سواء في الاتحاد السوفياتي او في غيره من الدول ذات الانظمة الاشتراكية من تطوير للآليات في العمل الزراعي ، ومن امتلاء الريف بالمهندسين والاختصاصيين والفنيين ، ومن تحول الانتاج الزراعي ، يجب ان يؤدي الى تحول في الحياة الزراعية تحولا من شانه ان يقرب القرية من المدينة ويزيل عنها الطابع التقليدي القديم .. كل ذلك ليس الا تعبيرا عن الترجمة العملية للايديولوجية الماركسية المعاصرة التي تذهب في هذا الاتجاه الى الحدود التي استبق كتاب أسس الماركسية ــ اللينينية الكلام عنها في هذه الفقرة التي تقول : «ان القرى التعاونية الكولخوزية سوف تتحول الى مراكز تحمل طابع المدينة وتشتمل على دور للسكن تتوفر فيها كل الوسائل الحديثة التي تؤمن الراحة ، وعلى منشآت صناعية محلية ، وخدمات عامة ومراكز ثقافية ومصحات ..» وهذه النماذج الجديدة سوف تجمع حسب تأكيد الكتاب المذكور «أفضل ما انتجه التطور في حضارة المدن الى جانب ما تقدمه القرية من مظهر ايجابي » .

دمج العمل البدني بالعمل الفكري :

ان حذف الفروق بين المدينة والريف يشكل مع ربط العمل الجسدي بالعمل الفكري ربطا عضويا هدفا واحدا في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة ، والمهم اولا وقبل كل شيء ادخال تغيير وتبديل في طبيعة العمل .

---

١ ــ المختارات ، الجزء الثالث ، ص ٥٠ .

٢ ــ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٠ .

٣ ــ نفس المصدر .

ان التطور الميكانيكي والآلي يستبعد شيئا فشيئا العمال غير المؤهلين ويدخل تعديلا على طابع العمل في الانتاج اذ يتوقف عن كونه مجرد عمل بدني ويتضمن بشكل متزايد عناصر اكثر من الفعالية العقلية . وهكذا تقترب بالتدريج فعالية العامل من فعالية المهندس والخبير الفني . والعامل في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة يجب ان يكون في المجتمع الشيوعي القادم على درجة من التأهيل والاختصاص الفني تجعله الشغيل الاختصاصي الذي يجمع الى سعة الأفق في معارفه التكنيكية الاختصاصية ، الثقافة الجامعة الشاملة .

ان فكرة دمج العمل الفكري بالعمل البدني ، تتفق مع وجهة نظر كل من ماركس وانجلز اللذين اكدا على ضرورة دمج التعليم بالانتاج وربطهما عن طريق التعليم البوليتكنيكي . ففي الجزء الاول من كتاب راس المال ، يقول ماركس بأن المجتمع الشيوعي المقبل سوف يدخل الى المدارس «التعليم التكنولوجي ، النظري والعملي»، وسوف ، يجمع بالنسبة لجميع الاطفال الذين بلغوا سنا معينة ما بين العمل المنتج والتعليم والرياضة البدنية ، باعتبار هذا الربط هو الطريقة الوحيدة لتكوين رجال كاملين من جميع الوجوه» .

كذلك فان انجلز يعتبر ان المجتمع الشيوعي هو المجتمع الذي «يتدرب فيه الشبان على فروع الانتاج الصناعي ، والذي يسمح لهم بالانتقال من فرع الى فرع من فروع الانتاج حسب ميولهم وحسب حاجة المجتمع» .

اذن في المجتمع الشيوعي يقضى على النمط القديم من التعليم الذي كانت فيه التربية معزولة عن العمل ، لانه لا يمكن تصور «المثل الاعلى للمجتمع الشيوعي المقبل من دون الربط بين التعليم والعمل المنتج» كما يقول لينين ..

وهكذا فان الايديولوجية الماركسية المعاصرة تعتبر ان زوال الفروق بين العمل الفكري والعمل البدني ، رهن بتبديل طابع العمل من جهة وبادخال التعليم والتربية البوليتكنيكية على النظام التربوي من جهة ثانية ..

عندئذ فقط يجمع العمل الانتاجي المادي بصورة متزايدة عناصر العمل العقلي الى جانب العمل البدني ، وينشأ نموذج جديد من العمل تزدهر فيه الاستعدادات البدنية والقابليات الفكرية في آن واحد .

الغاء الطبقات :

ان ازالة الفروق بين المدينة والريف وربط العمل الجسدي بالعمل الفكري ، من شأنه ان يؤدي الى الغاء الطبقات في نظر الايديولوجية الماركسية المعاصرة .

والغاء هذه المعالم يؤدي ، بدوره ، الى خلق تجانس اجتماعي واسع الاطار وشامل واقامة المجتمع اللاطبقي .

وتعتبر الايديولوجية الماركسية الغاء الحدود بين المثقفين من جهة وبين الفلاحين

والعمال من جهة ثانية عملية تتطلب وقتا اطول من الوقت الذي تتطلبه عملية الغاء الفروق بين المدينة والريف . وهي تعتمد في هذا التقرير على ما يقوله لينين (١) : «سيبقى المثقفون يشكلون طبقة اجتماعية خاصة طالما ان المجتمع لم يبلغ المرحلة العليا للمجتمع الشيوعي» .

وفي المنهاج الجديد للحزب الشيوعي السوفياتي نقف على الفكرة نفسها ايضا ، كما ينقلها كتاب الايديولوجية السوفياتية المعاصرة (٢) : «ان انتصار الشيوعية سيؤدي الى دمج العمل العقلي بالعمل الجسمي دمجا عضويا داخل اطار الفعالية الانتاجية للبشر وسوف يتوقف المثقفون عن كونهم طبقة اجتماعية خاصة طالما ان العمال الذين يقومون بعمل جسمي سوف يصلون الى المستوى الثقافي والفني للعمال الفكريين . فالشيوعية ستضع حدا لانقسام المجتمع الى طبقات وفئات اجتماعية » .

ان هذه العملية لا شك تتطلب وقتا ليس بالقصير

الانتقال الى مبدأ «لكل حسب حاجته» :

واخيرا فان مبدأ «لكل حسب عمله» الذي يسيطر على المرحلة الاشتراكية يفسح المجال امام مبدأ آخر ليحل محله ويكون اكثر انسجاما مع المرحلة الجديدة ، اي المرحلة الشيوعية ، وهو مبدأ «لكل حسب حاجته» .. وقد اعتبر كارل ماركس وفريدريك انجلز ولينين هذا المبدأ شعار المجتمع الجديد والخاصة الاساسية للمجتمع الشيوعي .

فماركس يقول : «ان احد المبادىء الاساسية للشيوعية هو مبدأ لكل حسب حاجته ، وبعبارة اخرى ، ان تنوع الفعاليات وتعدد الاعمال لا يشكل ابدا اساسا للتفاوت في امتلاك الاشياء والتمتع بها » (٤) . فالمجتمع الشيوعي في نظر ماركس سوف يكتب على اعلامه وراياته العبارة التالية : «كل حسب قابلياته ولكل حسب حاجاته » .

اما بالنسبة لفردريك انجلز فان المردود يبلغ في المجتمع الشيوعي حدا يضمن «كفاية جميع حاجيات البشر بشكل متزايد مستمر» (٥) .

---

١ ـ المنتخبات ، الجزء الثاني ، ص ٩١٠ .
٢ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٢ .

٤ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٣ .
٥ ـ نفس المصدر .

كذلك الامر بالنسبة للينين الذي يرى بانه «لن يكون ثمة تقنين في توزيع المنتجات في المجتمع الشيوعي بالنسبة للملكية الخاصة بكل فرد ، لان كل فرد سيحصل منها على حاجته بشكل حر» (١) .

فاذا اخذنا مثال الاتحاد السوفياتي وجدنا ان البرنامج الجديد للحزب الشيوعي السوفياتي ينص على مضاعفة دخل العمال والمستخدمين خلال السنوات العشر

وذلك بشكل تصبح معه الحاجات التالية متوفرة بشكل مجاني :

١ ـ رعاية الاطفال في المدارس الداخلية وفي مؤسسات التعليم .
٢ ـ التعليم في جميع المؤسسات والدرجات التعليمية .
٣ ـ التامين الطبي لجميع المواطنين بما في ذلك التطبيب والعلاج في المصحات والحصول على الادوية .
٤ ـ استخدام وسائل المواصلات العامة .
٥ ـ الاستمتاع بالخدمات العامة كالماء والغاز والتدفئة .
٦ ـ تامين وجبة الظهر للعمال والمستخدمين والفلاحين الكولخوزيين الذين يعملون في الانتاج .
٧ ـ توفير السكن للجميع .

بالاضافة الى هذه الحاجات المجانية كلها ، ينص البرنامج على حاجات مجانية جزئية كاستخدام بيوت النقاهة والراحة والمراكز السياحية .

اضمحلال الدولة :

ان الانتقال الى الشيوعية يطرح اخيرا السؤال الذي يدور حول معرفة كيفية اضمحلال الدولة وزوالها ، وكيفية الانتقال من نظام الدولة الى نظام الادارة الذاتية الشيوعية . وهذه المسألة كانت وما تزال تثير الصعوبات امام المفكرين الماركسيين المعاصرين ، لان ماركس وانجلز اعتبرا زوال الدولة خاصة من الخواص الرئيسية للمجتمع الشيوعي الذي بشرا به . ففي الجزء الرابع من المؤلفات الكاملة نقرا لماركس قوله (٣) : « ان مجتمعا تعاونيا سيحل محل المجتمع البورجوازي

---

١ ـ نفس المصدر .
٢ ـ نفس المصدر .
٣ ـ المؤلفات الكاملة ـ الجزء الرابع ـ ص ١٨٢ .

القديم لن يكون فيه ابدا سلطة دولة» . وفي البيان الشيوعي الذي الفه كل من ماركس وانجلز نقرأ ايضا : «منذ يصبح الانتاج مركزا في ايدي الافراد المتعاونين تفقد الدولة طابعها السياسي» .

وقد الح انجلز على هذه الفكرة اكثر من مرة ، فهو يقول في رسالته الى كونو Cuno (كانون الثاني ١٨٧٢) : «ان الدولة تسقط من نفسها اذا ما ازال راس المال امتلاك جميع وسائل الانتاج من قبل حفنة صغيرة من البشر» (١) .

ثم يؤكد ذلك بوضوح اشد في قوله بان « الدولة السياسية سوف تزول وتختفي اثر الثورة الاجتماعية المقبلة ، وان الوظائف العامة سوف تفقد طابعها السياسي وتتحول الى مجرد وظائف ادارية» (٢) .

وفي رسالته الى بيبل Bebel (اذار ١٨٧٥) يذكر بان «اقامة النظام الاجتماعي الاشتراكي يؤدي بصورة آلية الى انحلال وجود الدولة » . كما انه يشير ايضا الى «ان تدخل الدولة يصبح خلال مرحلة التحويل الاشتراكي امرا مصطنعا لا معنى له ، يمكن الاستغناء عنه تدريجيا في كافة المجالات . لذلك فهو يقول ان الدولة تضمحل من ذاتها» (٣) .

كذلك نجد لينين شأن ماركس وانجلز يؤكد على ان «الاشتراكية التي تزيل مجتمع الطبقات تؤدي بدورها الى الغاء الدولة في نفس الوقت ، لانه لا يبقى راسماليون ولا طبقات تستطيع ان تضطهد طبقة اخرى» .. على ان زوال الدولة بشكل كامل لا يتم الا في مرحلة متقدمة من الشيوعية ، وكل ما نستطيع ان نقوله في هذا الصدد ينحصر في راي لينين في «الكلام عن زوال لا محيص عنه للدولة ، والتأكيد على ان مراحل اضمحلال الدولة تستغرق وقتا طويلا وتتوقف على تسارع التطور في المرحلة العليا من الشيوعية» (٤) .

بعد وفاة لينين واتجاه السلطة الستالينية نحو المزيد من المركزية ، دخل تطور الاتحاد السوفياتي في اتجاه معاكس لنظرية زوال الدولة . ونشأت طبقة بيروقراطية سيطرت سيطرة كاملة على مختلف وجوه الحياة السياسية والاقتصادية والحزبية والفكرية في الاتحاد السوفياتي . وبدلا من ان تسير سلطة الدولة باتجاه التقلص والزوال كما تقتضي التعاليم الماركسية ـ اللينينية ، عززت هذه السلطة ودعمت واصبحت اداة في يد الطبقة الجديدة الموجهة .

لذلك لجأ ستالين منذ عام ١٩٣٠ (اي منذ المؤتمر السادس عشر للحزب) ، الى محاولة التوفيق بين الايديولوجية الماركسية وبين الواقع الذي يسير باتجاه آخر ،

---

١ ـ المختارات ، الجزء الثاني ، ص ٤٤٠ .
٢ ـ نفس المصدر ، الجزء الاول ، ص ٦٠٦ .
٣ ـ نفس المصدر ، الجزء الثاني ، ص ١٣٦ .
٤ ـ لينين «الدولة والثورة» .

فاعاد النظر في نظرية اضمحلال الدولة وعدل فيها لمصلحة الطبقة الموجهة الجديدة في الاتحاد السوفياتي ، فهو يقول بأن «الشيوعيين السوفياتيين هم من حيث المبدأ مع نظرية زوال الدولة ، الا انهم في الوقت نفسه مع تقوية ودعم دكتاتورية البروليتاريا» (١). وكان ستالين يطالب «بتطوير سلطة الدولة من اجل تهيئة الشروط الضرورية لتحقيق نظرية زوال سلطة الدولة» . ففي تقريره الى المؤتمر الثامن عشر (اذار ١٩٣٩) يطرح السؤال التالي : «هل يستمر وجود الدولة عندنا خلال المرحلة الشيوعية ؟» ويجيب عليه : «نعم سوف تستمر اذا لم يقوض الحصار الراسمالي . ولن تستمر اذا قضي على الحصار واستبدل باحاطة من قبل دول اشتراكية ، اي اذا حل الطوق الاشتراكي محل الطوق الراسمالي» (٢) وقبل موته بفترة وجيزة كان ستالين يقول بأن الدولة سوف تضمحل وتزول الا انه سيقوم مكانها جهاز مركزي للادارة ينظم الملكية الشعبية الشيوعية .. ولكنه لا يعطي اي خطوط مميزة لهذا الجهاز عن الدولة ولا يعطي اي توضيح للفرق بينهما .

---

١ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٦ .
٢ ـ نفس المصدر .

التقارب بين القوميات :

تعتبر الايديولوجية السوفياتية الاتحاد الوثيق بين مختلف الشعوب التي تعيش داخل الاتحاد السوفياتي ، الطابع المميز لمرحلة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية .

ان التآخي بين هذه الشعوب مسألة هامة جدا بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي الذي يجمع قوميات على درجة كبيرة من التنوع والتعدد . فحسب احصائيات عام ١٩٥٩ يبلغ عدد سكان الاتحاد السوفياتي ٢٠٨ ملايين و ٨٢٧ الفا ويتوزع هذا العدد على القوميات حسب الجدول الآتي (٢) :

القومية	العدد
الروسية	١١٨،٥٨٨،٠٠٠
الاوكرانية	٣٦،٩٨١،٠٠٠
البيلوروسية	٧،٨٢٩،٠٠٠

---

١ – نفس المصدر ، ص ٢٥٨ .

٢ – نفس المصدر ، ص ٢٥٩ .

الاوزبكية	٦،٠٠٤،٠٠٠
التترية	٤،٩٦٩،٠٠٠
القازاقية	٣،٥٨١،٠٠٠
الاذربيجانية	٢،٩٢٩،٠٠٠
الارمنية	٢،٧٨٧،٠٠٠
الجورجية	٢،٦٥٠،٠٠٠
الليتونية	٢،٣٢٦،٠٠٠
المولدافية	٢،٢١٤،٠٠
الالمانية	١،٦١٩،٠٠٠
التشوفاشية	١،٤٧٠،٠٠٠
الليتية	١،٤٠٠،٠٠٠
التاجيكية	١،٣٩٧،٠٠٠
البولونية	١،٣٨٠،٠٠٠
الموردافية	١،٢٨٥،٠٠٠
التركمانية	١،٠٠٤،٠٠٠

كما يوجد في الاتحاد السوفياتي مليونان و ٢٦٨ الف يهودي .

ومن خلال هذا الجدول يتبين انه الى جانب القوميتين الكبيرتين الروسية والاوكرانية، توجد في الاتحاد السوفياتي عشر قوميات يزيد عدد ابنائها عن مليونين، وخمس قوميات تزيد عن مليون . وتتوزع هذه القوميات داخل الجمهوريات الاتحادية الخمسة عشرة التي يتألف منها الاتحاد السوفياتي حيث يشغل السلاف الجمهوريات الثلاث الكبيرة «روسيا واذربيجان وارمينيا» وجمهورية آسيا الوسطى الخمس (التركمانية والاوزبكية والتاجكية والقازقية والكرجية) والجمهوريات البلطية الثلاث التي الحقت عام ١٩٤٠ اي استونيا وليتونيا وليتوانيا . واخيراً الجمهورية الموردافية المتاخمة لرومانيا .

ان هذه الجمهوريات وتلك الشعوب تبني حياتها على نفس الاسس وتجمعها المصالح الحياتية المشتركة وتهدف الى تحقيق هدف واحد هو الشيوعية . وقد ساعدت شبكة المواصلات والتطور الاقتصادي على تعزيز الاواصر بين هذه القوميات في ظل النظام الاشتراكي . وتعتبر الايديولوجية السوفياتية ان ظاهرة الاقبال على تعلم اللغة الروسية بالاضافة الى اللغة الام ، تشكل عاملا اساسيا من عوامل التقارب بين شعوب الاتحاد السوفياتي .

التبديلات الايديولوجية والاخلاقية :

ويرافق مرحلة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية في نظر الايديولوجية

السوفياتية المعاصرة تكوّن نمط جديد من الافراد يتميزون بمستوى عال من الوعي السياسي ومن التأهيل . اما الدليل الاخلاقي لهذا الجيل الذي يبني الشيوعية ، فقد حدده برنامج الحزب حسب المبادىء الاتية (١) :

١ ـ الاخلاص لقضية الشيوعية وحب للوطن الاشتراكي وللبلاد الاشتراكية .

٢ ـ العمل الجاد من اجل خير المجتمع . فالذي لا يعمل لا يحق له ان يأكل .

٣ ـ الاهتمام بالمحافظة على الثروة الاجتماعية وتنميتها ، والتمتع بقدر كبير من الشعور بالمسؤولية .

٤ ـ التحلي بروح التضامن الاخوي والروح الجماعية تحت شعار الفرد للمجموع والمجموع للفرد .

٥ ـ الاحترام المتبادل بين الافراد والموقف الانساني الذي يعتبر الانسان صديق اقرانه ورفيقهم واخاهم .

٦ ـ حب الحقيقة والاخلاص لها ، والتواضع والبساطة في الحياة الاجتماعية وفي الحياة الخاصة .

٧ ـ الاحترام المتبادل داخل الاسرة والاهتمام بتربية الاطفال .

٨ ـ المناعة ضد الوصولية والجشع والفضولية والتصرفات المجانبة للعدالة .

٩ ـ مقاومة كل ما من شانه ان يثير الاختلافات القومية او العرقية ، والوقوف بحزم في وجه اعداء السلم وحرية الشعوب .

١٠ ـ الشعور بالتضامن والاخاء مع شغيلة جميع البلاد وجميع الشعوب .

اما من حيث التكوين الفكري والايديولوجي ، فان كتاب اسس الماركسية ـ اللينينية يشير الى التدابير التي يجب ان تتخذ في مرحلة الانتقال الى الشيوعية . خاصة في مجال التربية والتعليم والتكوين الايديولوجي وهي (٢) :

١ ـ الملاءمة بين حياة الشعب وبين المبادىء الشيوعية ملاءمة واعية . وتربية جميع افراد الشعب تربية شيوعية علمية تسمح لهم باستشراف التطور العالمي .

٢ ـ اعتبار العمل الزاما اخلاقيا وليس مجرد واجب مفروض او وسيلة للربح . وتنشئة افراد الشعب على هذه النظرة الشيوعية الى العمل .

٣ ـ تعميق الاخلاق الاشتراكية واغناء محتواها على ضوء الاخلاق الثورية للطبقة العاملة التي اكتشفت عبر التاريخ القواعد الاخلاقية ذات الطابع الانساني العام الكلي التي حاولت الطبقات المستغلة خلال تاريخ البشرية طمسها وتشويهها .

٤ ـ تصفية آثار المرحلة الراسمالية ورواسبها من وجدان وعقول الافراد وخاصة فيما يتعلق بالموقف من الملكية الاجتماعية ومن المراة وغيرها من المواقف التي تسيطر عليها النزعات الانانية والفردية والتعصب القومي والديني والانحلال الخلقي .. الخ.

---

١ ـ نفس المصدر ، ص ٣٦٠ .

٢ ـ نفس المصدر ، ص ٣٦١ .

٥ ـ الكشف عن نواقص المعتقدات الدينية بصبر وأناة والتاكيد على الطابع العلمي الحديث وعلى المادية العلمية التي تجاوزتها .

٦ ـ رفع مستوى وعي وتأهيل ابناء الشعب ، بحيث يصل العمال والفلاحون الى مستوى المثقفين وزيادة عدد سنوات الدراسة الالزامية وتعميم التعليم البولتيكنيكي .

دور الحزب في مرحلة الانتقال الى الشيوعية :

ان المجتمع الشيوعي لا يولد ولادة عفوية آلية ، بل هو في نظر الايديولوجية الماركسية نتيجة جهد واع منظم يقوم به الشعب بقيادة الحزب الماركسي ـ اللينيني. فمهمة الحزب ان يكشف عن الطريق العلمي وان يركز الفعاليات واوجه النشاط في حل المشكلات الاساسية . لذلك فان دور الحزب يزداد اهمية في مرحلة الانتقال الى الشيوعية لعدة اسباب اهمها :

١ ـ ان بناء الشيوعية ، بناء معقد واسع الاطراف يحتاج الى اعلى مستوى ممكن من القيادة السياسية والتنظيمية .

٢ ـ ولان التنظيمات الاجتماعية تزداد اهمية ويتسع دورها خلال هذه المرحلة .

٣ ـ ولان تثقيف الجماهير وتوعيتها وتربيتها تربية شيوعية تتطلب قيادة مركزية .

ولا يستطيع الحزب ان يقوم بهذه المهمات كاملة الا اذا حقق اولا في داخله صورة المستقبل الذي ينشده للجماهير الواسعة وتمسك بالقيادة الجماعية وعمق صلاته بالجماهير الشعبية .

ب ـ صورة المجتمع الشيوعي في المستقبل

في هذه الحلقة التي تتناول بالبحث «صورة المجتمع الشيوعي المقبل» ، نكون قد اتينا على مختلف وجوه تطور الفكر الماركسي واحطنا بالمشكلات الاساسية التي كان هذا الفكر وما يزال يدور حولها . والمشكلة التي نحن بصددها في هذا البحث تنحصر في السؤال التالي : ما هو النظام الاجتماعي الذي سوف يتبلور في ظل الشيوعية في المستقبل ؟

لقد اكتفى الفكر الماركسي خلال مراحل طويلة بالاشارات العامة دون الدخول في التفاصيل حول هذا الموضوع ، الى ان جاء المؤتمر الواحد والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي عام ١٩٥٩

صورة المجتمع الشيوعي لدى ماركس وانجلز ولينين :

«ان مملكة الحرية تبدأ فقط في اللحظة التي لا يبقى فيها عمل تحدده الضرورة والالزام الخارجيين ، لان تطور القوى البشرية التي هي غاية في ذاتها ولذاتها ، والتي هي الميدان الحقيقي للحرية ، يبدأ في تلك اللحظة» . هذا ما نقـــرأه في كتـــاب رأس المال (٢) . وهذا ما يكشف لنا عن ان المجتمع الشيوعي هـو في نظـر ماركس المجتمع الذي يتوقف فيه العمل عـن ان يكون نتيجــة لضرورة والـزام خارجيين . اي المجتمع الذي تتحقق فيــه مملكة الحرية ، فـلا يكون فيه مجـال لقيـام دولـة أو طبقــات او احــزاب . وتتحقق فيه وفـرة الانتــاج ، كمـا يتحقق فيه المبـدا القائل : «لكل حسب حاجته» ، وتلغى فيه الفروق بين العمل اليدوي والعمل الفكري وبين المدينة والريف ، وكذلك ظاهرة تقسيم العمـل وجميـع اشكال الاستغـــلال والاضطهــاد .

اما البحث في تفاصيل الوسائل والطرق التي سوف تستخدمها الطبقة العاملة لتحقيق المجتمع الشيوعي ، فهو لا بد ان يأخذ طابعا طوباويا خياليا في نظر ماركس وانجلـز . لذلك نجـد في الجزء الاول من المختــارات يقـول (٣) : «ان التفكير في الطرق التي سوف يعمد اليها المجتمع المقبـل لتنظيم توزيـع الاغذيـة والمساكـن ، يقود مباشرة الى التفكير الطوباوي الوهمي» . كما نجد لينين وستالـين كليهمـــا يتجنبان الوصف المفصل للمستقبل الشيوعي . فقط ليون تروتسكي يتعرض لوصف حياة الاشخاص في المجتمع الشيوعي في المستقبـل عندما يقول (٤) : «ان الانسان الذي سيكون قادرا على تحويل الانهار والجبال وعلى انشاء القصور الشعبية عـلى قمة الجبل الابيض وفي قاع المحيط الاطلسي ، سوف يعرف بطبيعـة الامـر كيف يعطي لحياته اليومية الى جانب الثروة والبهجة الحد الاقصى من الديناميكية .. ان المهمة التي تقع على عاتق الانسان في المستقبل هو ان يكون مسيطرا على عواطفه وان يرتفع بغرائزه الى قمة الوعي وان يجعلها واضحة شفافة ، وان يرجـع الخيـــوط الموجهة للارادة الى ما تحت عتبة الشعور ، وان يرتفع الى مستوى أعلى سواء عـلى

---

٢ ـ رأس المال ، الجزء الثالث ، ص ٨٧٣ .

٣ ـ المختارات ، الجزء الاول ، ص ٦٠٠ .

٤ ـ الايديولوجية السوفيانية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٢ .

الصعيد البيولوجي او الاجتماعي وان يحقق الانسان الاعلى ... في المستقبل سوف يصبح الانسان اقوى من ذي قبل ، واشد ذكاء ، وارهف ، واكثر انسجاما في جسمه وحركاته وصوته . ان الانسان المتوسط سوف يكون في مستوى ارسطو وغوته وماركس .. وفوق هذه القمم سترتفع قمم جديدة» .

تعريف المجتمع الشيوعي :

لقد بقي التعريف الذي وضعه ستالين عام ١٩٢٧ خلال فترة طويلة التعريف الرسمي للمجتمع الشيوعي . ففي حديثه مع اول وفد للشغيلة الامريكية يقول ستالين (١) : لنصف باختصار السيماء العامة لتركيب المجتمع الشيوعي ، ولنقل انه المجتمع :

أ ـ الذي لن يكون فيه ملكية خاصة لادوات ووسائل الانتاج ، بل مجرد ملكية اجتماعية جماعية .

ب ـ والذي لن يكون فيه طبقات ولا سلطة دولة ، بل مجرد شغيلة في الصناعة وفي الزراعة ينظمون انفسهم بانفسهم اقتصاديا على اساس المشاركة الحرة .

ج ـ والذي يكون فيه التخطيط الاقتصادي الشعبي قائما على التكنيك المتفوق سواء في الصناعة أم في الزراعة .

د ـ والذي لا يكون فيه تعارض وتضاد بين الصناعة والزراعة .

هـ ـ والذي تتوزع فيه المنتجات حسب مبدأ الشيوعيين الفرنسيين القدماء (كل حسب قابلياته ، ولكل حسب حاجاته) .

و ـ والذي سينمو فيه العلم والفن ضمن شروط مشجعة الى الاوج .

ز ـ والذي يتخلص فيه الفرد من مشاغل الخبز اليومي وضرورة التكيف مع قوى العالم ويكون فيه حرا بكل معنى الكلمة .

وقد طرأ قبيل الحرب الثانية على هذا التعريف بعض التعديل تناول بصورة خاصة مسألتي (زوال الدولة) و (المشاركة الحرة للعمال) ، فأصبح تعريف المجتمع الشيوعي كالتالي (٢) :

«الشيوعية نظام اجتماعي خال من الطبقات تكون فيه ملكية وسائل الانتاج ملكية واحدة للشعب ويكون فيه جميع اعضاء المجتمع متساوين اجتماعيا ، كما يكون فيه النمو الكامل للافراد المستند الى العلم والتكنيك عاملا في زيادة القوى الانتاجية وفي تفجير الينابيع الحية للثروة الاجتماعية بشكل غزير وافر غني وهو مجتمع منظم

---

١ ـ نفس المصدر ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

٢ ـ نفس المصدر .

تنظيما رائعا من اناس يعملون بحرية ووعي ، يسوده نظام الادارة الذاتية الاجتماعية والمبدأ الاساسي «كل حسب قابلياته ، ولكل حسب حاجياته» ، وفيه يصبح العمل الحاجة الحيوية الاولى لجميع الافراد والضرورة المدركة بوعي كامل . وفيه يضع لكل فرد امكانياته من اجل خير ومنفعة الشعب بأسره» .

اما أعضاء المجتمع الشيوعي المقبل فيتميزون حسب هذا التعريف بمستوى عال من الوعي وبجدية ورصانة في العمل وبنظام رائع وبخضوع لمصلحة المجتمع .

من خلال هذا التعريف نستطيع ان نتبين المفاهيم الرئيسية التي تهيمن على المجتمع الشيوعي كما يتصورها الماركسيون المعاصرون .

مفهوم العمل :

ان كتاب «اسس الماركسية ـ اللينينية» يشير الى ان «العمل سوف يصبح في المجتمع الشيوعي عادة من العادات واول حاجة حيوية للافراد» (١) . وفي تقريره

ان مجموعة من الشروط الذاتية والموضوعية تلعب دورا في تحويل العمل الى حاجة حيوية للبشر . ففي الانتاج الذي تسيطر عليه الاوتوماتية يتحرر العمال من القيام المباشر بالعمل وتقتصر وظيفتهم على تشغيل الاجهزة وتنظيم الجداول واعداد البرنامج للانتاج التكنولوجي ، كما ان «اوتوماتية العمل» ستؤدي الى رفع المستوى التكنيكي والثقافي للعمال والى زوال الحواجز بين العمل البدني والعمل الفكري ، والى تحرير الانسان من الاعمال الميكانيكية وافساح المجال الاوسع امام نشاطه المبدع .

ويضيف كتاب اسس الماركسية ـ اللينينية الى ذلك القول بان ساعات العمل ستقل وان ساعات الفراغ سوف تتطاول وتمتد ، وان عدد الايام الحرة سوف تبلغ مائة وعشرة ايام في العام . هذا عدا العطلة السنوية . وان المواطنين في المجتمع الشيوعي في المستقبل لن يتعدى مجموع ساعات العمل الاسبوعية لديهم (٢٠) الى (٢٥) ساعة ، اي بمعدل اربع الى خمس ساعات في اليوم ، وانها سوف

---

٢ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة : الجزء الثاني ، ص ٢٧٤ .

تتناقص اكثر فيما بعد (١) .

الى جانب هذه الشروط الموضوعية ، توجد ايضا سلسلة من الشروط الذاتية . . فالدافع والحوافز المعنوية تحل شيئا فشيئا محل الحوافز المادية ويصل الوعي الشيوعي الى درجة يصبح معها الحرص على خدمة المجتمع والغيرة على العمل والشعور بالمسؤولية حوافز متقدمة على حافز الحصول على الاجر . ويحل «العمل الشيوعي» محل «العمل الاشتراكي» الذي تلعب فيه الدوافع المادية دورا كبيرا . ذاك العمل الذي وصفه لينين بقوله (٢) : «انه العمل غير المأجور الذي يتم عادة لصالح المجتمع لا لارضاء واجب مهني ولا للحصول على حق ببعض المنتجات . انه العمل الطوعي الذي يتم دون قواعد وسنن محددة سلفا ودون اجر ودون عقد . انه العمل الذي يأخذ مجرى العادة ، عادة العمل من اجل الخير العام ، ويتم وفق معرفة الضرورة ، هذه المعرفة التي تصبح بحد ذاتها ايضا عادة» .

وهكذا فان العمل كما يتصوره الماركسيون في المجتمع الشيوعي المقبل هو «فعل حر ارادي وحاجة عميقة» في آن واحد . انه ليس عبئا وليس تكليفا ، بل هو على حد تعبير فردريك انجلز «المتعة الكبرى التي يمكن ان نتصورها» .

اختيار المهنة في المجتمع الشيوعي :

لا بد لكل انسان في ظل الشيوعية أن يختار مهنة ، او بالاحرى نوع الفعالية والنشاط الذي يتلاءم بصورة أفضل مع ميوله واستعداداته . كما ان نظام تقسيم العمل كما نعرفه في الوقت الحاضر والذي يقسر الافراد على ممارسة نفس المهنة طيلة حياته كلها ، لا بد ان يزول في ظل الشيوعية .

ان كل عامل سوف يستطيع وسوف يكون في مقدوره . لا ان يكون معلما في القسم الذي يعمل فيه وبطلا في هذه الرياضة او تلك فحسب ، بل وان يكون منشئا للاجهزة والآلات . وفنانا او عالما (٣) . ولن يكون اختيار المهنة بفعل عوامل قسرية خارجية في ظل المجتمع الشيوعي المقبل ، «فما من شخص سوف يساق سوقا الى مهنته» لان الشيوعية سوف تقضي على البقايا والرواسب التي كانت ظاهرة تقسيم العمل تخفض بواسطتها الانسان الى مستوى العبد» وسوف تخلق الشروط اللازمة حتى يتحرر الانسان من الالتصاق المطلق بمهنة واحدة طيلة حياته» (٤) .

---

١ ـ اسس الماركسية ـ اللينينية ، ص ٨١١ .

٢ ـ المؤلفات الكاملة ، الجزء الثاني ، ص ٦٦٧ .

٣ ـ سترومينين «تأملات حول المستقبل» ، الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٥ .

٤ ـ لينين «الانتقال من العمل الاشتراكي الى العمل الشيوعي» ، نفس المصدر .

هل يعني ذلك ان الشيوعية سوف تقضي على وجود المهن ؟ ليس كذلك تماما فان شيئا من الاختصاص سوف يبقى ويستمر في المجتمع الشيوعي سيما وان الشيوعية لا تشترط الالغاء الكامل للمهن .

ان المستوى الحالي للعلم والتقنية يجعل من المتعذر على المرء ان يكون عالما كفوءا واختصاصيا في عدة مجالات في آن واحد . بيد انه سيكون في المجتمع الشيوعي المقبل متسع من الحرية لاختيار المهنة ولامكانية التخصص في عدة فروع داخل القسم الواحد .

وثمة شيء جديد سوف يطرأ على المجتمع الشيوعي ، حسب تقدير المفكرين الماركسيين امثال كوجات ومانيفتش وشركوف وكوستين وتوكارينوف وسترومیلین (١) .. وهو ان العمل سيصبح متعة الى درجة لا تعود معها العطل السنوية مرتبطة بفكرة الراحة .

ان هذا التبدل في مفهوم اوقات الفراغ هو الذي سوف يجعل منها فرصا للاهتمام بمجالات المعرفة خارج نطاق المهنة او الاختصاص وبمجالات الابداع والفن والادب ، بحيث تساهم هذه الاوقات في تطوير المجتمع وازدهاره .

ويعقب كتاب اسس الماركسية ـ اللينينية على هذا التشعب في امكانية المعرفة في المستقبل ، فيقول : «ان ذلك لا يغرقنا في الدهشة طالما اننا منذ الان نرى مصلح البيانو يعزف بعد ان ينهي عمله المادي سوناتا بتهوفن «في ضوء القمر» شأن الموسيقار ، ان الجمع بين مختلف الفعاليات ، سيكون بالطبع مألوفا اكثر في ظل الشيوعية ، طالما ان ساعات العمل اليومي سوف تكون اقل» (٢) . ان طريقة استخدام اوقات الفراغ في المستقبل سوف تحقق الربط الاكمل بين المصلحة الشخصية والمصلحة الاجتماعية . ذلك ان انصراف الافراد الى استغلال مواهبهم وممارسة استعداداتهم وميولهم سوف تؤدي الى تحقيق اكبر مردود اجتماعي في ظل الشيوعية . ويتوقع كوستين في بحثه عن اوقات الفراغ في ظل المجتمع الشيوعي المقبل ان يشغل الناس انفسهم بالفن والادب والرياضة بالدرجة الاولى بحيث تتطور هذه الميادين بسرعة وعمق . كما ان كل انسان يصبح الى حد ما سائحا .

اما سترومیلین فيذهب في «تأملاته عن المستقبل» الى تصور البرنامج اليومي للانسان في ظل المجتمع الشيوعي المقبل فيصف ذلك في قوله (٣) : «ان الحاجات الطبيعية من نوم وتغذية سوف تشكل حوالي عشر ساعات . اما العمل الالزامي فسوف يتطلب اربع ساعات بشكل ان كل فرد سيكون لديه حوالي عشر ساعات

---

١ ـ نفس المصدر ، ص ٢٧٦ .

٢ ـ اسس الماركسية ـ اللينينية ، ص ٨١٢ .

٣ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

الفراغ ، اذا خصص منها اربع ساعات للتمارين الرياضية والفنية ، يبقى ساعتان للتلفزيون او السينما او الحفلات الموسيقية» .

لكل حسب حاجته :

في المجتمع الشيوعي المقبل حيث يتم توفير حاجات البشر بصورة كاملة يعتبر المبدا القائل «لكل حسب حاجته» الاساس الذي يتم بموجبه توزيع الخيرات المادية والثقافية . ولكن ماذا يعني تطبيق هذا المبدا ؟ في كتاب «اسس الماركسية ــ اللينينية» نعثر على الجواب المطلوب فنقرا ما يلي (١) : «ان المجتمع الشيوعي سوف يؤمن لكل فرد مجانا . وبكف النظر عن وضعه الخاص وكمية عمله او نوعيته، كل ما هو بحاجة اليه . وفي ظل هذا المجتمع تزول الرقابة على نسبة العمل ونسبة الاستهلاك ، كما تلغى العملة والعلاقات التي كانت تقوم على اساس المال بحيث يتحرر البشر من مشاغل الغد . وسينتج عن امكانية الحصول مجانا على كل ما هو ضروري لقيام حياة راقية ومريحة ، انعكاسات نفسية وخلقية معينة فتحل اتجاهات واهتمامات اخرى محل الطمع بالربح ومحل الرغبة في الملكية الفردية .

ولكن ماذا يحدث لو ان انسانا ما يرغب في الحصول يوميا على بزة جديدة او سيارة جديدة او قصر مؤلف من عشرات الحجرات ؟ ان كتاب «اسس الماركسية ــ اللينينية» يجيب على مثل هذا السؤال بالقول : ان الذين يذهب تفكيرهم في هذا الاتجاه ويخترعون مثل هذه الافتراضات المستحيلة ، يسيئون الى مواطني المجتمع الشيوعي لانهم يسقطون ما في قرارة نفوسهم من خبث وعيوب على اولئك المواطنين. ان مهمة النظام الشيوعي ليست طبعا ارضاء جميع الرغبات وجميع الامزجة على اختلاف انواعها وتباعدها . فالاشخاص يكونون في ظل هذا النظام على درجة من الوعي ومن الشعور بالمسؤولية تجعلهم بعيدين عن المطالب غير المعقولة .

ومن خلال كتاب الايديولوجية السوفياتية المعاصرة (٢) يتبين لنا ان الايديولوجية السوفياتية ، تعتبر ان مواطني المجتمع الشيوعي المقبل سوف يكونون متميزين بدرجة عالية من الوعي الشيوعي ومن الحرص على الاقتصاد . وان العناصر التي نشات في ظل مجتمع بورجوازي وحدها هي التي تفكر بان المواطن في المجتمع الشيوعي المقبل يستطيع ان يحصل دون تقييد على السلع الاستهلاكية وان يقبل او يرفض منها حسب هواه ، وان يتطلب كل يوم شيئا جديدا . فمثل هذه الوضعية غريبة تماما عن النظام الشيوعي الذي يتميز بانه

---

١ ــ اسس الماركسية ــ اللينينية ، ص ٨١٢ ــ ٨١٤ .

٢ ــ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني . ص ٢٧٨ .

المجتمع الاكثر اقتصادا» .

واذا صادف وجود افراد من هذا النوع الذي يفرط في متطلباته ، فانهم كما يشير الى ذلك كتاب اسس الماركسية ــ اللينينية «لن يدخلوا اضطرابا على مبدأ التوزيع لسبب بسيط وهو انهم سيظهرون بمظهر مضحك يدعو الى السخرية امام الراي العام في المجتمع الشيوعي (١) .

وسوف يحل محل الكماليات التي كانت في المجتمعات القديمة تعتبر ميزة يتمتع بها الافراد من وضع اجتماعي ممتاز ، وسائل الراحة والاشياء الاصيلة في جمالها التي تصبح حاجات اساسية في ظل المجتمع الشيوعي . ولن ينظر المجتمع الشيوعي المقبل الى الاشياء بالمنظار القديم . فهي مجرد وسيلة لتسهيل الحياة وليست وسيلة لارضاء الغرور او مقياسا للنجاح كما كان ينظر اليها في الماضي .

وقد أكدت الايديولوجية السوفياتية مرارا ان تحقيق مبدأ «لكل حسب حاجته» لا يعني ارضاء لجميع الحاجات دون حدود . بل تأمين الحاجات السليمة والضرورية فحسب ...

وقد جرى في الاتحاد السوفياتي تحديد للمقاييس الموضوعية للحاجات الغذائية بالنسبة لمختلف المناطق . فقد قام معهد العلوم الطبية للتغذية في موسكو بوضع القواعد العلمية للاستهلاك بالنسبة لبعض المنتجات في حين ان باقي المنتجات ما تزال قيد الدراسة . والجدول التالي يقدم لنا هذه المقاييس مرفقة بمقارنة مع انتاج عام ١٩٥٨ وما يصيب كل رأس من السكان منها (٢) .

---

١ ــ أسس الماركسيه ــ اللينبنية ص ٨١٤ .
٢ ــ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٨ .
٣ ــ نفس المصدر ، ص ٢٧٩

المنتجات	انتاج عام ١٩٥٨	القاعدة العلمية المعقولة
اللحوم	٣٧ كغ	٧٣ ــ ٩١ كغ
السكر	٢٦ كغ	٢٧ ــ ٣٣ كغ
البيض	١١١ بيضة	١٨٠ ــ ٣٦٥ بيضة
الخضار	٧١ كغ	١٥٠ ــ ١٨٠ كغ
السمن الحيواني	٣،٨ كغ	٦ ــ ٩ كغ
النسيج القطني	٢٧،٨ متر	٣٥ ــ ٧٠ م
النسيج الصوفي	١،٥ م	٢ ــ ٥ م
النسيج الحريري	٢،١ م	٥ ــ ١٢ م
الاحذية	١،٧ زوج	٢ ــ ٤ زوج

ومع ذلك فان كتاب اسس الماركسية ــ اللينينية ينبه الى ان حاجات الانسان ليست شيئا ثابتا لا يتغير . فهي لا تتوقف عن التطور والنمو والزيادة والتنوع . لذلك فان النظام السنوي المقبل ياخذ بعين الاعتبار ذلك كله ويعتبر ان مهمته تتناول ارضاء الحاجات المتنامية لجميع افراد المجتمع .

الملكية الفردية :

ان ملكية السيارات الخاصة والحدائق وبيوت الاستجمام والراحة في الريف وكذلك ملكية الارض في الكولخوزات تؤول الى زوال لدى الانتقال الى المرحلة الشيوعية وتدخل جميعها ضمن اطار الادارة التعاونية . كما يقول ــ ستفاتيان ــ في دراسته «الشيوعية والملكية» (١) كذلك فان ــ كاك ــ احد اقطاب الايديولوجية السوفياتية المعاصرة الذي خصص بدوره لهذه المشكلة دراسة تحت عنوان «الشيوعية والملكية الفردية» يقول (٢) : ان البيوت الخاصة في الريف ستخضع لمبدا التجمع داخل التعاونيات ، وان وسائل المواصلات ستصبح مؤمنة بواسطة المحطات الجماعية وان الملكيات الخاصة داخل الكولخوزات ستغدو شيئا فاقدا لاي مبرر في ظل النظام الشيوعي . لذلك فان الملكية الفردية تنحصر في المجتمع الشيوعي المقبل في الاشياء المتعلقة بالاستعمال الشخصي كالالبسة الداخلية والثياب والاحذية الا ان ذلك لا يمنع في رأي ــ كاك ــ ان يشعر المواطنون الشيوعيون بالحاجة الى اقتناء مكتبة خاصة..

---

١ ــ نفس المصدر ص ٢٨٠ .

٢ ــ نفس المصدر .

وان تبقى لهم ملكية الادوات الموسيقية التي يعزفون عليها .

الادارة الذاتية الاجتماعية :

ان تحقيق المجتمع الشيوعي القائم على الاحترام الطوعي الحر للقواعد الاساسية للتعايش البشري ، يلغي ضرورة وجود الاجهزة القمعية والقضاء الجزائي والشرطة والمحاكم والسجون والنيابة العامة والمحامين والمحققين .. الخ. كذلك فان زوال الملكية الفردية يلغي مبرر بقاء الحقوق المدنية وقواعدها واصولها ، وكذلك الحقوق العامة ومؤسساتها . وتحل الادارة الذاتية الاجتماعية محل سلطة الدولة تدريجيا عن طريق المزيد من مشاركة المواطنين في الادارة حتى يأتي وقت يشارك فيه جميع المواطنين في عملية الادارة الذاتية ، وتصبح فيه القواعد الاساسية التي تنظم الحياة الاجتماعية عادة مشتركة عامة وعندئذ لا يبقى ضرورة لوجود الدولة كما يقول (دينيسوف) في دراسته «العلاقة بين الدولة والمجتمع في مرحلة الانتقال من الراسمالية الى الشيوعية» (١) .

ويعرف كتاب (اسس الماركسية ـ اللينينية) الادارة الذاتية الاجتماعية بانها «نموذج من التنظيم يضم جميع السكان الذين يديرون شؤونهم بانفسهم مباشرة . وهو نظام متشعب كثير التشعب في منظماته الجماهيرية التي تكفل مساهمة جميع اعضاء المجتمع في الادارة مساهمة دائمة مستمرة . وسيكون الاقتصاد المجال الاهم لعمل الادارة الذاتية الاجتماعية في تنظيم العلاقة والتعاون الحر بين مختلف مجموعات الانتاج والمناطق الاقتصادية التي تضع منتجاتها تحت تصرف بعضها البعض » (٢) .

اما (شاخنازاروف) في كتابه «في الدولة والادارة الذاتية الشيوعية» فيتجه في تعريفه للادارة الذاتية وجهة التأكيد على مميزات هذه الادارة الذاتية فيقول (٣): «انها نظام متناسق مؤلف من منظمات منتخبة من الشعب لا تأخذ شكل مؤسسات دولة ولكنها تلعب نفس الدور الطبيعي الذي يقوم به رفاق اكبر سنا واكثر تجربة داخل كل جماعة . وهذا النظام يضم سائر اعضاء المجتمع ، وله مركز خاص» . ان الانتخابات في المجتمع الشيوعي ليست ذات طابع سياسي ، والادارة الذاتية لا تلجأ ابدا الى العنف ، بل تعتمد على التدابير الاجتماعية وعلى الراي العام في ارجاع الافراد الى الصواب عندما يخرجون على المبادىء والقواعد الشيوعية للحياة المشتركة . وتعتبر الايديولوجية السوفياتية انه ما من تناقض في المجتمع الشيوعي

---

١ ـ نفس المصدر .

٢ ـ اسس الماركسية ـ اللينينية ص ٨١٩ .

٣ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

يستعصي على الحل ، لان التناقضات تأتي نتيجة للاختلاف بين المصالح الفردية ونتيجة للجهل وهما سببان لا يبقى لهما وجود في ظل الشيوعية حيث لا يبقى من الاختلافات الا الفروق بين التجارب ، وبين درجة المعرفة ، وهي امور يسهل التغلب عليها وتجاوزها في مجتمع تصبح فيه المصالح والاهداف والايديولوجية واحدة» (١) .

مستقبل الحزب :

في كتاب شيتاريوف «الحزب وبناء الشيوعية» ، وكتاب روماشكين «الدولة الاشتراكية والادارة الذاتية الشيوعية» اتفاق على عدم اقتران زوال الدولة بزوال الحزب . ففي الكتاب الاول نقرا العبارة التالية : «ان زوال الدولة لا ينبغي ان يؤدي بصورة آلية الى تواري الحزب عن مسرح الحياة الاجتماعية » (٢) . وفي الكتاب الثاني نقرأ في نفس الاتجاه العبارة التي تقول : «بأن حل الحزب الشيوعي لا يغدو امرا ممكنا الا حينما يصل جميع اعضاء المجتمع الى مستوى وعي الطليعة ، اي الحزب . وهذا يتطلب دون شك وقتا طويلا» (٣) .

ولكن ما هو دور الحزب في المجتمع الشيوعي ؟ ان المراجع المذكورة تشير الى وظيفتين اساسيتين : اولاهما تتعلق بالتناقضات التي تبقى في المجتمع الشيوعي . ومهمة الحزب ان يحول دون هذه التناقضات ودون أن تصبح عقبات في طريق التطور . وان ينظم الجهود المشتركة ويدفعها في اتجاه حل هذه التناقضات وتجاوزها .

اما الوظيفة الثانية فتتعلق بالربط بين فعالية مختلف منظمات الادارة الذاتية الشيوعية وتوجيهها . فالحزب الشيوعي مطالب بتحقيق الترابط بين مختلف وجوه الحياة الاجتماعية وتبقى هذه المهمة قائمة حتى يرتفع المجتمع الى مستوى الحزب وعندئذ لا يكون الموضوع موضوع حل الحزب او زواله او اضمحلاله ، بل يكون موضوع تجسد الحزب في المجتمع . وهذا لن يتم قبل انتصار الشيوعية على الصعيد العالمي وقبل بلوغ المجتمع الشيوعي مرحلة النضج الكامل .

الاسرة في ظل الشيوعية :

يحاول المفكرون الماركسيون المعاصرون ان يقدموا اجوبة واضحة حول مشكلات

---

١ ـ نفس المصدر .
٢ ـ نفس المصدر .
٣ ـ نفس المصدر .

الاسرة والزواج وتربية الاطفال في المجتمع الشيوعي المقبل . وقد سبق لفردريك انجلز ان اشار الى ان «التحول الاقتصادي في المستقبل سوف يضع الزواج على اساس جديد . فجميع الاعتبارات المادية سوف تزول ويبقى الدافع الوحيد للزواج هو الميل المتبادل . ويزول البغاء وتتوطد دعائم الزواج الواحد ويصبح حقيقة تفرض نفسها » (١) .

وعلى راس المفكرين الماركسيين المعاصرين الذين اهتموا بموضوع الاسرة والعلاقات البشرية في المجتمع الشيوعي «ستبانيان» الذي يقول في كتابه «مراحل وفترات» (٢) : يحتفظ المجتمع الشيوعي بالاسرة ، وفيه يتاح لها ان تتطور تطورا كاملا ويكون الحب الانساني الحقيقي الاصيل هو الاساس الوحيد الذي تقوم عليه الحياة الزوجية التي سوف تتمتع طيلة استمرارها باستقرار لم تشهده من قبل .

وكذلك المفكر سترومیلین الذي يقول في كتابه «حياة العمال» (٣) ان وجود الاسرة في ظل الشيوعية لن يكون مفروضا بالاعتبارات والحسابات والظروف الخارجية مهما كانت . يؤكد ذلك ما يقوله انجلز وستبانيان من ان الدوافع الداخلية الصميمة هي اساس الحياة الزوجية .

اما - خارتشيف - فيشير في كتابه «الاسرة والشيوعية» الى ان الشيوعية هي مرحلة الزواج الوحيد ولا مجال فيها للتعدد المشروع او غير المشروع وذلك لان الطابع الروحي والفني والخلقي للزواج يكتسب اهمية كبرى لم يعرفها من قبل . وان الاسرة في ظل الشيوعية هي «احتياطي من الحب والسعادة الشخصية ..» ، وان لها رسالة هي تربية جيل المستقبل .

ويستدرك خارتشيف قائلا : لا ينبغي ان نظن ان الشيوعية سوف تتجاوز جميع التناقضات والخلافات العائلية ، لان الانسجام في الحب ليس انعكاسا مطابقا للانسجام الاجتماعي (٤) .

ونجد مفكرين آخرين امثال فيرا بيلشاي في كتابها «الحب والاسرة وعمل المراة» ... وسولوفيوف في كتابه «الاسرة والشيوعية» وليفكوفيك فول في كتابه «الحب والاسرة» يتفقون جميعا على رفض كل علاقة ذات شكل جنسي لا اخلاقي، وعلى التأكيد بان الاخلاق الشيوعية هي في الاساس ضد العلاقات الخارجة عن نطاق الحياة الزوجية التي تدعو اليها اسباب لا اخلاقية او عابرة . وانها تعتبر الحب الفردي عاطفة عميقة تربط ربطا محكما بين قلبين ، لا يمكن ان تتجزأ .. وان الحب

---

١ - المنتخبات ، الجزء الثاني ، ص ٢٨١ .

٢ - الايديولوجية السوفياتية المعاصرة . الجزء الثاني ، ص ٢٨٤ .

٣ - نفس المصدر .

٤ - نفس المصدر .

لا يحتاج الى اكثر من شريكين (١) .

اما بشأن تربية الاطفال فنجد ـ انجلز ـ يصرح بان تربية الاطفال هي من «الشؤون العامة» في المجتمع الشيوعي .. ونجد الاستاذ ـ ستروميلين ـ ينادي «بتربية اجتماعية» في ظل الشيوعية ، ويعتبر ان المجتمع الشيوعي يستطيع ان يتحمل كل المسؤولية تجاه الاعضاء الجدد للمجتمع وتجاه تربيتهم ، فلا يترك للاسرة سوى الوظائف التي يمكن ان توكل اليها دون ان يلحق ذلك ضررا بالاطفال (٢) . فالايدي المجربة للمربين تستطيع ان تغرس في الطفل افضل العادات الاجتماعية ، وتستطيع في راي ستروميلين ان تعطيه اكثر مما تستطيع اكثر الامهات حساسية وحبا للاطفال .

كما ان الاشكال الاجتماعية للتربية ينبغي في راي المفكرين الماركسيين ان تنتشر انتشارا كافيا حتى يمكن اخيرا تعميمها على كافة الافراد منذ المهد حتى نهاية الدراسة الالزامية اي طيلة ١٥ ـ ٢٠ عاما . وخلال هذه المراحل يمر الطفل اولا بمستشفى الولادة ثم بدور الحضانة وبعدها بروضة الاطفال ثم بمدرسة داخلية ثم بالعمل والانتاج او بمرحلة الدراسة العالية والاختصاص حسب اختياره . وسيكون في وسع الآباء والامهات ان يزوروا اطفالهم ويشاهدوهم بصورة دائمة ، لان ملاجىء الاطفال ستجمع تحت سقف واحد بين الآباء والامهات . كما انه سيكون في رياض الاطفال وفي المدارس الداخلية سوفيتات خاصة من النساء والامهات .

الا ان هذه الآراء التي تدين بمعظمها للاستاذ ستروميلين قد وجدت من يعارضها في شخص ـ خارتشوف ـ الذي يرى ان وظيفة الاهل في تربية الاطفال يجب أن تستمر في ظل الشيوعية لان تأثير الاهل على الاطفال هو من طبيعة خاصة لا يستطيع احد أن يحل محلهم فيها . وبالتالي ، فان العلاقات المباشرة بين الاهل والاطفال ضمن اطار الحياة العائلية لن تكون في رأي ـ خارتشوف ـ في المستقبل اقل ضرورة مما هي عليه الان . وان تربية الجيل المقبل «هو وظيفة من وظائف الاسرة » (٤) .

---

١ ـ نفس المصدر .

٣ ـ نفس المصدر .

٤ ـ نفس المصدر ، ص ٢٨٦ .

ان

الناس في ظل المجتمع الشيوعي لن تسكن في منازل خاصة بل في منازل عامة او في «قصور شعبية»

وفي هذه البيوت يتناول السكان بصورة عامة وجبات الطعام معا ويلتقون مع اصدقائهم على طاولة مشتركة لتبادل الاحاديث ويؤخذ بعين الاعتبار في موضوع السكن حاجة العمال احيانا الى الراحة وحتى الى العزلة للانصراف الى الاعمال المبدعة التي تتطلب الانفراد والتأمل الهادىء .

وكذلك حاجة الاسرة الى الاقامة فترة من الزمن داخل شقق خاصة الا انه تؤخذ بعين الاعتبار ايضا حاجتهم الى الحياة المشتركة مع اقرانهم وعدم وجود مبرر لاستطالة فترات العزلة هذه .

ويؤكد ــ ستروميلين ــ على ان السكن في القصور الشعبية سيترك لحرية اعضاء المجتمع الشيوعي الا انه قلما سيكون ذلك موضوع رفض من احد . كما يؤكد بأن اصحاب الامزجة الخاصة جدا والمتأنقين سيجدون جميعا اذا رغبوا في ذلك سكنا خاصا على هامش الحياة المشتركة . وستزداد ميزة الحياة الجماعية يوما بعد يوم كلما اقترب المجتمع من المرحلة النموذجية للحياة الشيوعية الشعبية بشكل يجعل اكثر الفرديين فردية يتردد في ترك هذه الحياة المشتركة (١) .

---

١ ـ نفس المصدر ، ص ٢٨٣ .

الانسان الجديد :

وفي مطلع عام ١٩٦٠ صدر عن اللجنة المركزية قرار خاص باعمال الدعاية الحزبية يقول (٢) : ان تكوين الانسان الجديد الذي تتوفر فيه الخصائص والعادات الشيوعية والمطبوع بطابع الاخلاق الشيوعية ، وبادارة تصفية رواسب الراسمالية من شعور الافراد ، يشكل بالنسبة للمرحلة الحاضرة احدى المهمات الاساسية ، ويعتبر كتاب اسس الماركسية ــ اللينينية «ان التبديل في حياة البشر وفي خصائصهم لا يتم بواسطة التربية وحدها خلال المرحلة الانتقالية بل ايضا بواسطة تبديل العلاقات الاجتماعية . فالغاء السيطرة الطبقية وتحقيق المبدا القائل ــ لكل

---

٢ ــ البرافدا ، عدد ١٠ كانون الثاني ١٩٦٠ .

حسب حاجته ـ يؤدي الى زوال اسباب الآثار السلبية في طبيعة الفرد ، ويتحرر المجتمع من جميع المظاهر اللاانسانية والظلم ونقص الثقافة والجهل والجرائم والآثام . بحيث ان العنف والانانية والازدراء والخيانة والصلف تزول بدورها نهائيا من بين العلاقات بين الافراد» (١) . وهكذا فان المجتمع الشيوعي المقبل لا يترك في راي سترومیلین مجالا للجريمة التي تعود ٩٥ بالمائة من اسبابها الى الملكية الفردية».

ان الانسان الجديد هو في راي ـ توجارينوف ـ الانسان الذي تحرر من الاطر التي طبعته بها ظروف المجتمع السابق في ظل نظام الاستغلال ، وهو الذي يتبنى كل ما في العصور السابقة من محتوى ايجابي . فيتشكل من اتحاد القديم الاصيل بالجديد الاصيل ، افضل تركيب عرفه التطور التاريخي الانساني وهكذا تزدهر في ظل الشيوعية وتتفتح تفتحا كاملا كل من النزعة الانسانية والعاطفة الرفاقية والشعور بالحرية والموقف المبدع من الحياة والمبادهة الشخصية (٢) ، ويضيف كتاب أسس الماركسية ـ اللينينية الى ذلك التأكيد على ان «الانسان الشيوعي سوف يتميز باهتمامه بالخير العام» وبان الاساس المتين لاخلاق هذا الانسان يكمن في اخلاصه للجماعة وباستعداده وقابليته للحرص والمحافظة على المصلحة الاجتماعية محافظة واعية (٣) كما يضيف ـ ستيبانيان ـ في كتاب مراحل وفترات قوله : بان الانسان الشيوعي يتميز ايضا بانه «الانسان المثقف ثقافة عالية» . وفي تقريره المقدم لاحد المؤتمرات العالمية لجامعة موسكو يقول ـ بويوف ـ (٤) : ان الفرد في المجتمع الشيوعي المقبل لن يكتفي بامتلاك المعارف العلمية «الفيزيائية والكيميائية» والتقنية الخاصة بعصره ، بل سيكون ايضا على احتكاك مع الآثار الفكرية في مجال الادب والفن والعلوم الاجتماعية .. وسيتابع بانتظام ممارسته التمارين الرياضية وكل ما تتطلبه التربية البدنية والرياضية (٥) .

---

١ ـ اسس الماركسية ـ اللينينية ، ص ٨٢٤ .
٢ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٧ .
٣ ـ اسس الماركسية ـ اللينينية ، ص ٨١٨ ـ ٨٢٠ .
٤ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٨ .
٥ ـ نفس المصدر .

ويذهب كتاب أسس الماركسية ـ اللينينية الى حد تصور العالم بعد الانتصار العالمي للشيوعية . هذا العالم الذي «لا يبقى فيه أقل سبب للنزاع والاختلاف والعزلـــة

والانانية والتعصب . وحيث يتقارب الاقتصاد والثقافة الى درجة تصبح فيها للعالم ثقافة ولغة عالميتين» (١) .

عندئذ يتحقق حلم الشيوعية الاكبر : تلغى الحدود والجمارك وتنتظم الشعوب في عائلة شيوعية واحدة ، وتقوم «الوحدة المنسجمة بين القبائل والشعوب والامم والعروق على اساس اقتصاد شيوعي عالمي موحد» كما يقول المفكر الماركسي المشهور «كامري» في كتابه «اتحاد الشعوب» (٢) .

ولكن ماذا يحدث بعد ان يتحقق حلم الشيوعية هذا ؟ وما هي القوى المحركة للتطور بعده . أن كتاب اسس الماركسية ـ اللينينية يقول : «ان الحياة سوف تضع البشر امام مشكلات جديدة بصورة دائمة يحتاج حلها الى الجهود المبدعة لكل جيل جديد » (٣) .

اما الاستاذ «اوبروتشيف» فيقول في كتابه «العلم والشبيبة» : «ان فيضا من القضايا الجديدة سوف تطرح نفسها على العالم فيما يتعلق بسيطرة الانسان سيطرة كاملة على الطبيعة ووضع القوى الطبيعية في خدمته ، وفيما يتعلق بقدرته على التنبؤ ، وفيما يتعلق بالمجالات التي ما تزال مغلقة ، كاستغلال اعماق البحار، وتطويل حياة الانسان الى ١٥٠ ـ ٢٠٠ سنة ، والتغلب على الشيخوخة والتعب ، واعادة الحياة في حالات الموت المبكر» .

وهكذا نجد ان الفكر الماركسي المعاصر يعتبر ان الشيوعية لا تعرف حدودا لجهود البشر وان طاقة البشر واندفاعتهم الحيوية ، تبقى في ظلها في حالة انطلاقة مبدعة مستمرة ..

---

١ ـ اسس الماركسية ـ اللينينية ، ص ٨٢٠ ـ ٨٢١ .
٢ ـ الايديولوجية السوفياتية المعاصرة ، الجزء الثاني ، ص ٢٩١ .
٣ ـ نفس المصدر .